

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الجَّهَنَّمُ

مَيَادِينُهُ وَأَسَالِيْبُهُ

تَأَلَّفَ

الدكتور محمد نعيم ياسين
كلية الشريعة - الجامعة الأردنية



دار النفائس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الجهاد

مباركته وأساليبه

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الرابعة
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م



دار النفائس
للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - العبدلي - مقابل جوهرة القدس
هاتف : ٦٩ ٣٩ ٤٠ - فاكس : ٦٩ ٣٩ ٤١ - ص. ب. : ٢١١٥١١

الجهنم

مبادئه وأساليبه

تأليف
الدكتور محمد نعيم ياسين
كلية الشريعة - الجامعة الأردنية



دار الفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة

الحمد لله الذي هدانا للإيمان ، ونزل لنا القرآن ، وبين لنا فيه معالم الطريق الى العزة في الحياة الدنيا ، والسلامة في دار القرار ، والفوز بجنة الرضوان . ففتح أبصارنا على آياته البينات ، وبصائرنا على المعاني الساميات . فدلنا سبحانه وتعالى على الغاية الكريمة ، التي تستحق التضحيات ، وان نسخر لها ما وهبنا من القوى والطاقات فقال عز من قائل : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما اريد منهم من رزق وما اريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (١) .

والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، خاتم الانبياء والمرسلين ، وامام المتقين . وقائد المجاهدين لاعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى .

وعلى آله الاطهار ، وصحابته الاخيار ، الذين شهد لهم ربهم ، وكفى بالله شهيدا ، فقال تبارك وتعالى : (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بآموالهم وانفسهم واولئكَ لهم الخيرات ، واولئكَ هم المفلحون) (٢) .

وعلى كل مجاهد في سبيل الله ، وداع بدعوته ، ومهتد بقرانه ، ومتأس برسوله محمد صلى الله عليه وسلم . وبعد :

فان لله تعالى سننا في خلقه ، قدرها عليهم في اللوح المحفوظ ، وهي نافذة فيهم وفق ذلك القدر المقدور . فمن التزمها ، ووقف عندها ، أمن سوء الحال ، وسوء المآل ، وكان من الفائزين . ومن أهملها ، وتجاوزها ، فقد ظلم نفسه ، وظلم غيره وكان من الخاسرين .

(١) الذاريات - الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) التوبة - الآية ٨٨ .

الا وان من سنن الله في عباده ، ما قرره سبحانه وتعالى في قوله :
(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لفسدت الارض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين) (٣) .

واذا كان الله عز وجل قد أخبر عن أهل الكفر والشر أنهم لا يزالون يتربصون بالخير وأهله الدوائر ، ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويبيغونها عوجا ، فان فساد الحياة الانسانية نتيجة لا مفر منها ، اذا لم تجد هذه القوى الشريرة من يدفعها من أهل الخير والايمان .

وان من يستقرىء تاريخ الانسانية ليجد ان صلاح أهل الارض كان دائما مرهونا بعزة المؤمنين ، وقيادتهم للبشرية . وان فساد الناس كان دائما مرتبطا بخلو منصب القيادة الانسانية من هذه الفئة من الناس .

كما يجد أن عزة الامة الاسلامية كانت دائما نتيجة اكيدة لادراك أبنائها لدورهم الذي ألقاه ربهم على كواهلهم ، في جهاد الباطل وأهله وقيامهم بمتطلبات هذا الدور خير قيام .

ولكن روح الجهاد لن تنبعث في قلوب الشباب الا اذا اسلموا انفسهم لله عز وجل ، يربيههم بحكمته ، ذلك ان الطاقات المودعة في الانسان قد تستثار لموازرة الحق والخير ، وقد يستثيرها طواغيت الارض لخدمة مصالحهم وشهواتهم : فانه حينما ينسى الانسان ربه ، يعبد هواه وشهوته ، كما قال تعالى : (أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) (٤) . وعندما يعبد الانسان هواه ، يحاول دائما تسخير أخيه الانسان لخدمة هذا الهوى ، فيوجه ما فيه من قوى وطاقات لذاك الغرض .

واما اذا عرف الانسان ربه ، والتزم هداه اندفعت طاقاته كلها لمجاهدة الباطل والشر ، وتحررت من سلطان أهل الاهواء والمطامع .

(٣) البقرة - الآية ٢٥١ .

(٤) الفرقان - الآية ٤٣ .

هذا وان الله عز وجل خلق خلقه ، ولم يهملهم . وانما تولاهم برعايته وعنايته فأرسل اليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، ليبين لهم المسار الصحيح في هذه الحياة الدنيا ، ويحدد لهم معالم الهدى في كل شعبة من شعاب هذه الحياة .

وان جوهر ذلك الهدى الذي تضمنته تلك الرسائل الربانية واجد لم يختلف وان اختلفت تلك الرسائل فيما جاءت به من الفروع والتفصيلات ، وهو دعوة البشر في كل زمان الى عبادة الله ، والتلقي منه وحده : في العقيدة والمناهج والنظم والاخلاق وغيرها^(٥) . قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا انا فاعبدون)^(٦) . وقال سبحانه : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)^(٧) .

وجاءت رسالة الاسلام ، آخر رسائل الله الى اهل الارض ، لتحقيق نفس الهدف : لتصحيح عقائد الناس عن ربهم ، وعن حقيقة انفسهم ، ولتعريفهم ان الله هو الخالق المعبود ، وان الانسان هو المخلوق العابد ، ولينزه الناس عن كل امر دون مستوى الالهية ، ويحفظوا انفسهم من الاستكبار عن منصب العبودية لله عز وجل .

فيتبين من هذا ان الدعوة الاسلامية دعوة حركية ، وليست نظرية ، وانما تبتغي احداث آثار عملية في حياة البشر .

ومن الطبيعي أن دعوة هذا شأنها ، وهذا هدفها ، لا بد ان يكون لها وسائل تحقق بها ذلك الهدف ، وتحدث بها ذلك الانقلاب الانساني المنشود .

كما انه من الطبيعي أيضا أن يكون اعتمادها في تلك الوسائل على أتباعها الذين حملوها . فكل من يدخل في تلك الدعوة ويحملها يجب

(٥) انظر : كتاب العبودية لابن تيمية ص ٨٣ ، ومعالم في الطريق ص ٤٦ .

(٦) الانبياء - الآية ٢٥ .

(٧) النحل - الآية ٣٦ .

عليه ان يضع نصب عينيه الاسهام في تحقيق ذلك الهدف . وتكون المجموعة المؤمنة بكاملها مكلفة للعمل على الوصول الى تلك الغايات بقدر استطاعتها .

فهذه الفئة بأفرادها ، ومجموعها ، بحكامها ورعاياها ، برجالها ونسائها يجب ان تظل في حركة دائبة نحو تلك الغايات ، وفي اطار المنهج الذي رسمه لها ربها . وهذه الحركة المستمرة هي الجهاد بمعناه العام .

وعلى هذا فان الجهاد كلمة جامعة شاملة يدخل فيها جميع انواع السعي وبذل الجهود ، والكفاح ، واستخدام شتى الوسائل المشروعة لاحداث ذلك التغيير الذي تبتغي احداثه دعوة الله المنزل الى بني البشر (٨) .

ومن منطلق هذا العموم في معنى الجهاد عرفه ابن تيمية فقال : (الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الايمان ، والعمل الصالح ، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان) (٩) .

ومن هذا المفهوم الواضح الشامل للجهاد يتبين انه يقع من الدعوة في مركز الوسيلة لتحقيق أهدافها :

فهو الوسيلة لتعريف الناس بالتصور الصحيح عن الخالق والكون والحياة . وهو الوسيلة لاقتناع الناس بالعودة الى ربهم ، وعبادته . وهو الوسيلة للحيلولة بين الطغاة والمستغلين وبين الناس ، ولتمكينهم من الاختيار الحر ، والنظر السليم ، وتذوق طعم الدلائل والبراهين والآيات التي نصبها الله للعباد ، والتي ما تفتأ الطواغيت تصد عنها عباد الله ، كما قال عز وجل : (ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا) (١٠) .

(٨) انظر : الجهاد في سبيل الله لابي الاعلى المودودي ص ١٣ .

(٩) العبودية لابن تيمية ص ١٠٤ . وانظر أيضا الجهاد في الاسلام لمحمد شديد ص ٧ .

(١٠) هود - الآيات ١٨ ، ١٩ .

وبذا نفهم لماذا سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهاد ذروة سنام الاسلام ، فانه القوة الدافعة لهذه الدعوة الربانية نحو تعميم خيرها على البشر ، وهو الرصيد المستمر ، يجدد نشاطها ، ويظهر فاعليتها في الوجود ، ولولاه لضمر أثرها وانكششت ، وافسحت المجال لغيرها من الدعوات الباطلة .. وهذا أمر يؤيده واقع تاريخ أمة الاسلام ، فقد كان أثرها في الامم ، ونشر العدل والرخاء والسعادة ، يتناسب دائما طردا مع قوة جهادها وحركتها وبذلها وتضحياتها .

ولعل من معاني تلك التسمية النبوية أن الجهاد فوق ما تقدم عنوان الصدق في حمل الدعوة الاسلامية ، وبرهان الاخلاص في ذلك الحمل ، فهو الدليل الذي يقدمه الانسان على صدق ما يقر به لسانه من الايمان .

هذا وقد شاعت حكمة الله عز وجل ، ولا يسأل عما يفعل ، ان يجعل سعي المؤمنين لتحقيق أهداف دعوته في الارض موضوع ابتلائهم وامتحانهم في هذه الحياة الدنيا .

والابتلاء لا يكون الا بوجود المضادات والمعوقات ، ولذلك ابتلى الله عباده بأعداء يصدون عن سبيله سبحانه ، ويسخرون طاقاتهم للحيلولة دون تحقيق الناس عبوديتهم لربهم .

وبالنظر في كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، والنصوص الكثيرة الواردة في الجهاد ، يتبين أن معظم التعطيل عن أهداف الدعوة المذكورة يعود الى خمسة أعداء :

العدو الاول : شهوات النفس وأهواؤها .

والعدو الثاني : الشيطان .

والعدو الثالث : الكفار .

والعدو الرابع : المنافقون .

والعدو الخامس : أهل المنكر وهم الظالمون والفاسقون .

ويتضامن هؤلاء الاعداء جميعا ، ويتعاونون فيما بينهم على محاربة العباد ، وصددهم عن الحق ، واخراجهم عن عبوديتهم لله عز وجل .

ومن هنا يمكن تصنيف الميادين التي يجب على المؤمنين ان يجاهدوا فيها . الى خمسة أيضا ، هي الميادين التي يعمل فيها هؤلاء الاعداء (١١) .

وفي هذا الكتاب أدعو الله عز وجل أن يوفقني في بيان هذه الميادين وضرورة الجهاد فيها ، وبيان أساليبه في كل ميدان ، وخطورة الاعداء الذين يتصدون للمؤمنين في كل منها ، وأساليبهم في الصد عن سبيل الله في كل منها ، ونجعله ان شاء الله تعالى ، في خمسة مباحث :

المبحث الاول : في جهاد النفس .

المبحث الثاني : في جهاد الشيطان .

المبحث الثالث : في جهاد الكفار .

المبحث الرابع : في جهاد المنافقين .

المبحث الخامس : في جهاد أهل المنكر من الظلمة والفسقة ، وهو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(١١) أشار الى هذه الميادين ، وأشكال الجهاد ابن قيم الجوزية في زاد المعاد ج ٢ ص ٣٨ - ٤٠ وابن حجر في فتح الباري ج ٦ ص ٢ ، والقرطبي في تفسيره ج ١٢ ص ٩٩ ، وغيرهم .

المبحث الاول

في

جهاد النفس

خلق الله النفس الانسانية ، وأودع فيها قوى وطاقات ، وركب فيها نوازع ، واستعدادات وقابليات :

فجعل فيها القوة المدركة الواعية ، وهي القلب • والقوى القادرة على الحركة وهي الجوارح والاعضاء ، والقوى الباعثة على الحركة ، وهي الغرائز والنوازع •

ثم من الله عز وجل على الانسان بمنهاج حكيم ، ليأخذ به هذه القوى المختلفة • وجهاد النفس يكون بحمل طاقاتها على منهاج الربها الذي نزلها • وتجد هذا المعنى في قوله تعالى : (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) (١) • ومعنى «ألهمها فجورها وتقواها» ، اي أرشدها الى سبيل الخير ، وبين لها سبيل الشر جميعا (٢) • وتكون تزكيتها بحملها على طاعة الله تبارك وتعالى • وتدسيتهأ بأخذها بمعصية الله سبحانه وتعالى (٣) •

هذا وقد عني بعض العلماء بتأليف مصنفات ، بينوا فيها آفات النفوس ، وأساليب جهادها ، كالامام ابي حامد الغزالي رحمه الله تعالى ، وخاصة في كتابه المشهور « احياء علوم الدين » •

وقد جعل بعض العلماء جهاد النفس في اربعة ميادين هي :

جهادها على تعلم الهدى ودين الحق ، وجهادها على العمل ، وجهادها

(١) الشمس - الآيات ٧ - ١٠ •

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥١٦ •

(٣) المرجع السابق •

على الدعوة الى الله ، وجهادها على الصبر على مشاق الدعوة الى الله وأذى الخلق^(٤) .

وفيما يلي تفصيل هذه الانواع الاربعة من جهاد النفس :

١ - جهادها على تعلم الهدى ودين الحق ، من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وسيرة الصحابة والصالحين .

فان هذا هو مبدأ جهاد النفس ، ومن بدأ بغير هذه البداية في جهاد نفسه ، وتربيتها ، فقد عرض نفسه للضلال والانحراف ، لأن الله ، جل وعلا ، هو الذي خلقها ، وهو أعلم بما يصلحها . فمن ابتغى صلاح نفسه ، سار مع منهج الله سبحانه في تربيتها . ومنهج مبين في كتابه الكريم ، ومفصل في سنة عبده المصطفى صلى الله عليه وسلم . وصورته التطبيقية عند هذا الرسول ، وصحابته رضوان الله عليهم جميعا .

هذه هي البداية السليمة في جهاد النفس . وأما الذين يجاهدون أنفسهم بتصوراتهم ، وتخيلاتهم مما لم يشرعه الله في كتاب ولا سنة ، فقد ضلوا الطريق ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم ، مهما كانت نياتهم ، لأن الله سبحانه لا يقبل أن يعبد الا بما شرع في قرآنه وبينه رسوله صلى الله عليه وسلم .

يقول الامام أبو حامد الغزالي رحمة الله عليه :

(خلاصة العلم أن تعلم الطاعة والعبادة . واعلم أن الطاعة والعبادة متابعة الشارع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل ، يعني : كل ما تقول وتفعل وتترك قولاً وفعلًا يكون باقتداء الشرع ، كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصيا ، أو صليت في ثوب مغصوب ، وان كانت صورة عبادة ، تأثم .

فينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقا للشرع ، اذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة .

(٤) زاد المعاد في هدى خير العباد ج ٢ ص ٣٩ .

وينبغي لك أن لا تغتر بالشطح وطامات الصوفية ، لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة ، لا بالطامات والترهات .

واعلم أن اللسان المطلق ، والقلب المطبق ، المملوء بالغلة والشهوة علامة الشقاوة (٥) .

من أجل هذا رفع الله العلماء ، فقال عز وجل : (قل : هل يستوي الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون) (٦) ، أي لا يستوون في منزلتهم عند ربهم ، لأن الذين يعلمون يعرفون كيف يصلحون أنفسهم وفق منهج الله تعالى ، لانهم تبينوا بعلمهم عظمة الخالق ، وضعف المخلوق ، وقدرة الباري ، وحاجة العباد اليه ، وحكمة الله عز وجل ، وجهل من سواه ، وطرق الهدى ، وما تقود اليه من سعادة الدارين ، وطرق الضلال وما تؤدي اليه من خسران مبين . وأما الذين لا يعلمون فيفسدون أنفسهم باتباعهم مناهج في تربيتها ليست من عند الله سبحانه وتعالى ، ولذلك قال عز وجل : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (٧) . ومن أجل ذلك أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن العلم من أفضل أنواع العبادة ، فقال : (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم) (٨) .

وأفضل انواع العلم هو ما أثمر معرفة الله عز وجل ، ومعرفة صفاته وأسمائه الحسنی وأفعاله وأيامه ، مما أخبر به عن نفسه في كتابه الكريم ، وأخبر به عنه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومما ظهرت آثاره في ملكوت السموات والارض ، من الخلق والابداع والتقدير والتدبير ، وتصريف الامور على احسن وجه .

(٥) انظر : أيها الولد ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٦) الزمر - الآية ٩ .

(٧) المجادلة - الآية ١١ .

(٨) أخرجه الترمذي وقال عنه : حسن ، انظر رياض الصالحين ص ٤٥١ .

ثم العلم بما اخبر به سبحانه من الحقائق ، سواء ما كان منها متعلقا بالحياة الدنيا ، وما كان متعلقا بالآخرة كعرفة رسل الله عز وجل ، وما ارسلوا به من التوحيد ، والدعوة الى عبادة الله عز وجل وما اخبروا عنه من اليوم الآخر وقيام الساعة والحساب والجزاء والجنة والنار .
ثم العلم بمنهج الله سبحانه ، المنزل للعباد ليلتزموا به في شؤون حياتهم جميعها ، لان هذه العلوم هي اساس صلاح الانسان في الدنيا ، وسعادته في الآخرة . والعلم ليس مطلوبا لذاته ، وانما لثمرته ، فأفضله ما استقام به امر الانسان في الحياة الدنيا ، واسعده في الآخرة .

٢ - جهادها على العمل والالتزام بما تعلمت ، لان معرفة الطريق لا تجدي ان احجم الانسان عن سلوكها ، بل قد تضره هذه المعرفة ، اذ بها تقوم الحجة عليه عند ربه وما احسن قول الشاعر :

لو كان للعلم من دون التقى شرف لكان اشرف خلق الله ابليس

وهذا المنهج في تربية النفوس وجهادها هو منهج الصحابة رضوان الله عليهم ، وقد تلقوه عن اسوتهم وقائدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ذكر ابن تيمية عن ابي عبد الرحمن السلمي انه قال : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن : عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا - اي الصحابة - فتعلمنا العلم والعمل (٩) .

واول الالتزام واجله هو التزام القلب بعبادة الله عز وجل ، بالاخلاص لله سبحانه وخشيته ، ورجائه ، وحبه ، ومراقبته ، والتوكل عليه ، والانابة اليه ، والاستعانة به ، وغير ذلك من أعمال القلوب .
ثم التزام الجوارح بطاعة الله ، والانتهاز عما نهى عنه .

(٩) انظر : آيات الجهاد في القرآن الكريم ص ٢١ نقلا عن الاكليل لابن تيمية .

وفي هذا المقام اثبت للاخ القاريء هذه الوصية والنصيحة للحافظ
ابي بكر الخطيب البغدادي ، افتتح بها كتابه « اقتضاء العلم العمل » ،
لعل الله ينفع بها ويحدث بها أثرا طيبا ، يقول الخطيب البغدادي :

(ثم اني موصيك يا طالب العلم باخلاص النية في طلبه ، واجهاد
النفس على العلم بموجبه ، فان العلم شجرة ، والعمل ثمرة ، وليس
يعد عالما من لم يكن بعلمه عاملا . وقيل : العلم والد ، والعمل مولود ،
والعلم مع العمل ، والرواية مع الدراية .

فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشا من العلم ، ولا تأنس بالعلم
ما كنت مقصرا في العمل ولكن اجمع بينهما ، وان قل نصيبك منهما .
وما شيء اضعف من عالم ترك الناس علمه لفساد طريقته ، وجاهل
أخذ الناس بجهله لنظرهم الى عبادته .

والقليل من هذا مع القليل من هذا انجي في العاقبة ، اذا تفضل
الله بالرحمة ، وتمم على عبده النعمة . فاما المدافعة والاهمال ، وحب
الهويني والاسترسال وايثار الخفض والدعة ، والميل مع الراحة والسعة
فان خواتم هذه الخصال ذميمة ، وعقباها كريهة وخيمة .

والعلم يراد للعمل ، كما العمل يراد للنجاة ، فاذا كان العمل قاصرا
عن العلم ، كان العلم كلا على العالم ، ونعوذ بالله من علم عاد كلا واورث
ذلا ، وصار في رقبة صاحبه غلا .

قال بعض الحكماء : العلم خادم العمل ، والعمل غاية العلم ، فلولا
العمل لم يطلب علم ، ولولا العلم لم يطلب عمل ، ولان ادع الحق جهلا
به أحب الي من أن أدعه زهدا فيه

وهل وصل الحكماء الى السعادة العظمى الا بالتشمير في السعي ،
والرضى بالميسور . وبذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم ؟

وهل جامع كتب العلم الا كجامع الفضة والذهب ، وهل المنهوم بها
الا كالعريض الجشع عليهما ؟ وهل المغرم بحبها الا ككانزهما ؟

ولا تنفع الاموال الا بانفاقها ، وكذلك لا تنفع العلوم الا لمن عمل بها ، وراعى واجباتها ، فلينظر امرؤ لنفسه ، وليفتنم وقته ، فان الثواب قليل ، والرحيل قريب ، والطريق مخوف ، والاغترار غالب ، والخطر عظيم ، والناقد بصير ، والله تعالى بالمرصاد ، واليه المرجع والمعاد ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (١٠) .

ولتعلم ايها الاخ القاريء ان جهاد النفس على الالتزام بما تعلمت هو اساس الاجر والثواب في دين الله تعالى ، بعد تحصيل الايمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى : (وان ليس للانسان الا ما سعى) (١١) ، وقال سبحانه : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا) (١٢) . ورتب سبحانه الجزاء على العمل والكسب في عديد من الآيات فقال : (جزاء بما كانوا يكسبون) (١٣) ، وقال ايضا (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ، خالدون فيها لا ييبغون عنها حولا) (١٤) ، وقال (فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا ، الا من تاب وآمن وعمل صالحا ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا) (١٥) .

والاسلام في جملته مبني على الشهادتين والعمل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بني الاسلام على خمس : شهادة ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان) (١٦) .

(١٠) انظر كتاب « اقتضاء العلم العمل » من جملة رسائل من كنوز السنة ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(١١) النجم - الآية ٣٩ .

(١٢) الكهف - الآية ١١٠ .

(١٣) التوبة - الآيتان ٨٢ ، ٩٥ .

(١٤) الكهف - الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .

(١٥) مريم - الآيتان ٥٩ ، ٦٠ .

(١٦) حديث متفق على صحته : انظر صحيح البخاري ج ١ ص ٤٢ ، وزاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري

ومسلم - ١ - ١٣٩ .

والايمان عند السلف اقرار باللسان واعتقاد بالقلب ، وعمل
بالاركان (١٧) .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : (لا تزول قدما عبد يوم
القيامة حتى يسأل عن اربع : عن عمره فيما افناه ، وعن علمه ماذا عمل
فيه ، وعن ماله من اين اكتسبه وفيما انفق ، وعن جسمه فيما
ابلاه) (١٨) .

٣ - جهادها على الدعوة الى ما تعلمت من الحق والهدى ، والا كان
صاحبها من الذين يكتمون ما انزل الله من الهدى والبيانات .

وهذا النوع من اهم انواع الجهاد واطورها ، وخاصة عندما يكثر
الخبث بين الناس ، وينتشر الفساد ، وتعم الجاهلية ، ويترك العبادة
حكم الله تعالى . فان غيابها هو الذي يفسح المجال لاعداء الله ، واعداء
الخير من شياطين الانس والجن ، لينشروا باطلهم وفسادهم . ولهذا
الاعتبار فانتنا نخصص موضعا آخر لتفصيل اهمية هذا النوع من الجهاد
وبيان وجوبه على كل مسلم ، وضرورته في هذا الزمان .

٤ - جهادها على الصبر على مشاق الدعوة : فان الجهاد من النوع
السابق ، وهو الدعوة الى الله عز وجل ، يتبعه حتما اذى ومضايقات من
الناس ، بسبب جهلهم ، وحفاظا على مكاسبهم الدنيوية التي ارتبطت
بالانحراف ، فلا بد للمؤمن من جهاد نفسه على الصبر على ذلك ، كيلا
تفتتن ، وتنحرف عن صراط الله ، او تتقاعس في الدعوة الى سبيله
سبحانه .

وزاد المؤمن في هذا الجهاد الثقة بالله تعالى ، وتذكر وعده لمن يجاهد
في سبيله ويدعو اليه ، حيث قال عز من قائل : (ان الله يدافع عن الذين

(١٧) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٤ وما بعدها .. وشرح قصيدة ابن القيم ج ٢ ص ١٣٩ وما
بعدها وفتح الباري ج ١ ص ٤٠ .

(١٨) أخرجه الترمذي وقال عنه : حسن صحيح . انظر : عارضة الاحوذى ج ٩ ص ٢٥٣ .

آمنوا) (١٩) ، وحيث قال ايضا : (ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز) (٢٠) . والثقة باحقية ما يدعو اليه ، وهو حكم الله سبحانه ومنهجه : (ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون) (٢١) . والثقة بحسن المال الذي سيصير اليه المجاهدون في سبيل اعلاء كلمة الله ، وذكر المصير الذي سيؤول اليه العباد في اليوم الآخر ، فيكون طمعه في رضا الله وجنته اعظم من رغبته في نعيم الدنيا ومباهجها ، وخوفه من عذاب الله عز وجل وناره اشد من خوفه من عذاب الناس ومضايقتهم ، فلا يجعل نفسه مع الذين قال عنهم الله : (ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فاذا اوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) (٢٢) .

والمثل الاعلى للنفس المؤمنة في هذا الجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته، رضوان الله عليهم، فقد لاقوا من صنوف الاذى والتعذيب مالا يعلم مداه الا الله ، فصبر وصبروا ، وجاهدوا انفسهم في هذا الميدان ، حتى نصرهم الله العزيز الحكيم .

(١٩) الحج - الآية ٣٨ .

(٢٠) الحج - الآية ٤٠ .

(٢١) المائدة - الآية ٥٠ .

(٢٢) العنكبوت - الآية ١٠ .

المبحث الثاني في جهاد الشيطان

ان من فضل الله على العباد ، ورحمته بهم ، ان عرفهم على اعدائهم الذين ابتلاهم بهم في هذه الحياة الدنيا ، وعلى اساليبهم وطرقهم في الصد عن سبيل الله سبحانه ، وعلى طرق مجاهدتهم ، واساليب الوقاية منهم ، ودفع شرهم .

وقد كان مما عرفنا الله عليه من هؤلاء الاعداء الشيطان ، فقد أخبرنا سبحانه وتعالى عن هذا العدو ، واساليبه ، وطرق جهاده . والذين يؤمنون بالقرآن يؤمنون بكل ما جاء فيه ، فيؤمنون بان هنالك شيطانا يوسوس للعبد ، ويزين له ، ويدفع في عقله الريب والشكوك والشبهات ، ويشبطه عن الخير ، ويحثه على الشر ، ويلقي اليه الاماني الكاذبة .

وأخبرنا سبحانه عن هذا المخلوق أنه نذر نفسه من أول الامر لمحاربة الانسان ، وصدّه عن سبيل الله ، فقد قال تعالى : (قال ، فيما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم ، وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين)^(١) وقال أيضا : (قال : رب بما أغويتني لازينن لهم في الارض ، ولاغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين)^(٢) . وقال عز وجل : (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم)^(٣) . وقال ايضا : (الشيطان يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء)^(٤) .

وقد ذكر الشيطان في كتاب الله كثيرا ، تحذيرا منه ، وحثا على جهاده ، وبياناً لاساليبه مع العباد في الصد والغواية : فقد جاء بصيغة المفرد في

(١) الاعراف - الآيات ١٦ - ١٧ .

(٢) الحجر الآيات ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) الانعام - الآية ١٢١ .

(٤) البقرة - الآية ٢٦٨ .

سبعين آية مكية ومدنية وبصيفة الجمع في ثمانني عشرة آية معظمها مكِّي (٥) .

وفي هذا دلالة بالغة على خطورة هذا العدو على الانسان ، ووجوب الحيلة له ، والحذر منه . واستفراغ الوسع في مجاهدته ، فقد قال عز وجل : (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) (٦) . والامر باتخاذهم عدوا معناه وجوب استفراغ كل جهد ممكن في محاربته ومجاهدته .

وحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشيطان في كثير من الاحاديث ، منها ما ورد عنه عليه السلام انه قال : (ان للشيطان لمة (٧) بابن آدم ، وللملك لمة : فاما لمة الشيطان ، فايعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد من ذلك شيئا فليعلم انه من الله . ومن وجد الاخرى فليتعوذ من الشيطان ، ثم قرأ : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم » (٨) . وقال عليه الصلاة والسلام : (ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع) (٩) . وروى الامام مسلم والامام احمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما منكم من احد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا : واياك يا رسول الله ؟ قال : واياي ، لكن الله اعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني الا بخير) (١٠) .

(٥) انظر : المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، وآيات الجهاد في القرآن الكريم للدكتور كامل الدقس ص ٣٢ .

(٦) فاطر - الآية ٦ .

(٧) اللمة : هي الخطرة بالقلب ، وتكون لمة الشيطان بوسوسته للانسان بالسوء ، ولمة الملك بايحاته بالخير .

(٨) أخرجه الترمذي وقال عنه : حسن غريب . والنسائي وابن حبان عن ابن مسعود . انظر : فيض القدير للمناوي ج ٣ ص ٤٤٩ .

(٩) رواه البخاري في كتاب الاحكام والاعتكاف وبدء الخلق والادب ، ورواه مسلم في كتاب الادب والصوم ، وابن ماجه في كتاب الصيام .

(١٠) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧ ص ١٥٧ . ومعنى «أسلم» اي استسلم وانقاد لي ، ولهذا

قال (فلا يأمرني الا بخير) ، وليس المقصود أن الشيطان آمن لان الشياطين لا تكون مؤمنة ، وقد روى بضم الميم فيكون الضمير فيه عائدا الى النبي صلى الله عليه وسلم اي : أعانني عليه ، فانا أسلم منه . ولا يؤثر على - شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٩ .

مداخل الشيطان :

ذاك هو الامر الاول الذي يجب على المؤمن أن ينتبه له ، وهو تصديق ما جاء في القرآن ، وفي الحديث من وجود هذا العدو ، وخطورته على ابن آدم ، وضرورة اتخاذه عدوا ، والاشتغال بمقاومته ومجاهدته -

وأما الامر الثاني الذي لا بد للمؤمن من معرفته ، مما يتعلق بهذا العدو فهو مداخله الى قلب ابن آدم ، وأساليبه في الفواية والصد عن الهدى .

ولتعلم أيها الاخ القارئ ان للشيطان مدخلا واسعا يدخل منه الى قلب المؤمن . ولهذا المدخل ابواب وشعب كثيرة ، فان استطاع العبد ان يسد هذا المدخل ويغلق تلك الابواب ، فقد قطع الطريق على هذا العدو اللعين ، وصار ممن قال عنهم الله تعالى : (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) (١١) .

فأما مدخل الشيطان الاساسي فهو الهوى والشهوات ، فانها مبدأ استيلاء الشيطان على قلب الانسان ، فمن امتلأ قلبه بها ، وانبسط معها أكثر مما ينبغي ، فقد وفر للشيطان قوته ، وأعانه على نفسه ، وفتح له الطريق الى قلبه ، وكان ممن قال عنهم الله سبحانه وتعالى : (أفرأيت من اتخذ الهه هواه) (١٢) ، ومثل الذي أخبر عنه سبحانه في قوله : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب : ان تحمل عليه يلهث ، او تتركه يلهث) (١٣) فانظر كيف يتبع الشيطان عبد الهوى ، ويستحوذ عليه ، وأما عبد الله المتحرر من عبودية الهوى ، فليس للشيطان عليه سلطان ، ومهما حاول معه فانه مهزوم لا محالة ، كما انهزم مع رسول الله والصالحين ، وقد مر معك قول

(١١) الاسراء - الآية ١٥ .

(١٢) البقرة - الآية ٢٣ .

(١٣) الاعراف - الايتان ١٧٥ ، ١٧٦ .

الرسول صلى الله عليه وسلم : (لكن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني
 إلا بخير) وإنما كان هذا لان الشيطان لا يتصرف الا بواسطة الشهوة ،
 فمن أعانه الله على شهوته ، حتى صارت لا تنبسط الا حيث ينبغي ، وإلى
 الحد الذي ينبغي فقد ضيق المجال الذي يعمل فيه الشيطان ، وفوت
 عليه الفرص ، وأعجزه عن اصدار الاوامر الشريرة اليه ، يقول الامام
 ابو حامد الغزالي رحمه الله تعالى : (والقلب بأصل الفطرة صالح
 لقبول آثار الملك ، ولقبول آثار الشيطان صلاحاً متساوياً ، ليس يترجح
 أحدهما على الآخر ، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والاكباب
 على الشهوات ، او الاعراض عنها ومخالفتها . فان اتبع الانسان مقتضى
 الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى ، وصار القلب
 عش الشيطان ومعدنه ، لان الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه ، وان
 جاهد الشهوات ، ولم يسلطها على نفسه ، وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم
 السلام ، صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ، ولما كان لا يخلو قلب
 عن غضب وشهوة وحرص وطمع وطول أمل ، الى غير ذلك من صفات
 البشرية ، المتشعبة عن الهوى ، لا جرم لم يخل قلب عن ان يكون
 للشيطان فيه جولان بالسوسة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : ما
 منكم من أحد الا وله شيطان .)

ثم قال : (واكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين . وتملكتها ،
 فامتألت بالسواوس الداعية الى ايثار العاجلة ، واطراح الآخرة ، ومبدأ
 استيلائها اتباع الشهوات والهوى ، ولا يمكن فتحها بعد ذلك الا بتخلية
 القلب عن قوت الشيطان ، وهو الهوى والشهوات ، وعمارته بذكر الله
 تعالى الذي هو مطرح أثر الملائكة .) (١٤) .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبين لنا كيف يأتي
 الشيطان الانسان من طريق شهواته ، فقد أخرج النسائي باسناد صحيح
 ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (ان الشيطان قعد لابن آدم

بطرق : فقعد له بطريق الاسلام فقال : أتسلم وتترك دينك ودين آبائك ، فعصاه وأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر : أتمدع أرضك وسماءك ، فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال : اتجاهد ، وهو تلف النفس والمال ، فتقاتل فتقتل ، وتنكح نساءك ، ويقسم مالك ، فعصاه وجاهد . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة)^(١٥) . ففي هذا الحديث أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى معنى وسوسة الشيطان ، وضرب لها المثل ، وبين لنا الابواب التي يدخل منها الى قلوبنا ، وهي أبواب الشهوات مما يتعلق بالمال والسلطان والنساء .

فعمل الشيطان هو الوسوسة والتزيين والقاء الاماني ، من أجل صرف الانسان عن أمر فيه طاعة الله سبحانه ، وإيقاعه في أمر آخر لا يحبه الله لعباده . فهدفه من هذه الاساليب تحريك ارادة العبد لفعل المعصية او ترك الطاعة . وذلك بان يصور للعبد الجانب المرغوب من المعصية ، ويزينه له ، ويظهره بشكل مبالغ فيه ، وهذا الجانب هو اللذة العاجلة التي تحصل للانسان بفعل المعصية ، او ترك الطاعة ، والتي تكون نتيجة مباشرة لاشباع شهوة في النفس . فان كان القلب الذي غزاه الشيطان عارفا لحقيقة الامور ، وترتيب القيم ، وان الاشياء لا توزن بعاجلتها ، وانما بعاقبتها ، فانه يعلم ان هذه الشهوات التي يزين بها الشيطان فعل المعصية قيم رخيصة ، وان الوسواس الخناس الذي يلوح له بها لا يريد له الخير ، وانما يريد ان يجره الى الهاوية ، فلا يلتفت اليه . ويتكرر ذلك من الشيطان تجاه هذا العبد الصالح ولكن القاعدة التي استند اليها هذا العبد في دفع وسوسة الشيطان قاعدة ثابتة منطلقها ايمانه بالله واليوم الآخر ، ومعرفة بحقائق الامور مستمدة من علم العليم الخبير سبحانه ، وعندئذ يعلم اللعين ان لا سلطان له على هذا العبد المؤمن ، فلا يطمع فيه ، ما دام هذا العبد عارفا

(١٥) ذكر هذا الحديث الامام أبو حامد الغزالي في احياء علوم الدين المجلد الثاني ص ١٣٨٩ ، وقال عنه العراقي : أخرجه النسائي من حديث سميرة بن أبي فاكه باسناد صحيح .

لقيمة الدنيا وما فيها من شهوات ، وقيمة الآخرة ، وما فيها من نعيم خالد او عذاب مقيم .

وأما اذا كان القلب الذي يغزوه الشيطان مغرورا بالحياة الدنيا ومسترسلا مع زينتها وشهوات النفس ، وغافلا عن عواقبها الوخيمة ، فانه سيظهر القبول والاستحسان لتزيين الشيطان ، لان استرساله مع الشهوات ، ومطالب النفس ، وجهله بعواقبها كان مناخا مناسباً لعمل الشيطان ، وتكون النتيجة قبول أمر الشيطان ونهيه وعصيان الله تعالى في أمره ونهيه .

هذا هو المدخل الواسع الذي يدخل فيه الشيطان الى قلب الانسان ، وهو مدخل الهوى بماله من دواع وروافد كثيرة . وطرق الشيطان متصلة بهذه الدواعي والروافد ، فله من شهوة السلطان والجاه وحب الذات الى النفس طريق واسع ، ومن شهوة البطن الى النفس طريق ومن شهوة الجنس الى النفس طريق ، ومن شهوة التملك وحب المال طريق ، ومن شهوة الظهور طريق . وميدان وسواسه وتزيينه هو هذه الشعاب المختلفة من الاهواء .

وهناك مدخل آخر للشيطان الى نفس الانسان ، لا يخلو عن علاقة مع الهوى ، وهو باب الغرور العقلي ، فانه اذا ظن الانسان أن له القدرة العقلية المطلقة التي لا حدود لها في المعرفة ، دخل الشيطان من هذا الباب بجملته من الوسواس ، وأساليب من الشكوك والشبهات حول عقيدته بخالقه ، وصفاته سبحانه ، وما أخبر عنه من الامور الغيبية التي لا سبيل للعقل الى معرفة كنهها او صفاتها الا بالخبر الصادق عن خالق الكون كله ، فتراه يزين له السؤال عن ذات الله أحيانا ، وعن كيفيات صفاته أحيانا أخرى ، وعن أمور أخرى استأثر الله بها في علمه المحيط ، وكل ذلك ليشتككه بالله ، وصفاته ، وأفعاله ، وبعقيدته بصورة عامة .

وانما قلنا : ان هذا المدخل لا يخلو عن صلة بالهوى ، لان كثيرا من الناس يدخلون في الكفر ، والانحرافات في العقيدة ، من اجل تبرير ما يشتهون ، فينظر بعضهم ممن استحکم هواه واتخذها لها من دون الله سبحانه وتعالى ، فيرى أن أشد ما يحول بينه وبين الاستغراق في شهواته أوامر ربه ونواهيه ، وفرائضه ومحرماته ، فاذا به يخرج على الناس باستحلال ما حرم الله سبحانه ، او بتحريم ما احل ، ويشرع الشيطان يزين له ما يهوى ويشتهي ويزوده بما يظنه الجهول أنه حجج وليس بحجج ، فيوقعه في الكفر عن هذا الطريق •

ومن هؤلاء من استحکمت فيه شهوة السلطان، وحب الاتباع والشهرة، فيزين له الشيطان أن أحسن طريق لذلك انكار المعروف، وتبني المنكر، فاذا به يخرج على الناس بطريقة او مذهب يخالف فيه كلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يزين له الدعوة الى هذا المذهب ، ليكون له اشياع ومؤيدون ، فيجتهد في حمل الناس على اتباعه ، وربما يبذل من نفسه وجهده وماله ، ما يبذله أهل الحق في الدعوة الى الحق • ومعظم أصحاب المذاهب والنظريات الباطلة ، اتاهم الشيطان من هذا الباب ، وزين لهم المراكز المادية والمعنوية ، وسول لهم الدعوة الى مذاهبهم الباطلة ، حتى غدوا من أئمة الكفر والعياذ بالله •

طرق جهاد الشيطان :

تلك هي مداخل الشيطان ، الى قلوب العباد ، ويظهر لك مما تقدم أن هذا العدو يستغل في الانسان جهله بحقائق الوجود ، ومطالب الرب تعالى ، ويستغل هواه وغفلته عن الله تعالى ، ويستهدف في عمله ايقاع العبد في معصية الله ، وصدده عن طريق الهدى •

واذا علم الانسان اساليب الشيطان ، وهدفه ، أمكنه ذلك من جهاده ومقاومته ، وذلك باغلاق الابواب التي يدخل منها ، وتفويت الفرص عليه ، وعمارة قلبه بما يخرج الشيطان منه ، ويبطل مفعول شره ووسواسه •

واول الطريق في جهاد الشيطان ، أن يؤمن الانسان بما أخبر الله عنه ، ويستشعر خطورته ، ليملاً قلبه بالعزم على مقاومته ومجاهدته . والا فمن استهان بالامر لم يكن قادرا على دفع اذى هذا العدو ، لان من أهم العوامل التي يبنني عليها النصر معرفة العدو ومدى خطره (١٦) .

فاذا تحفز العبد لمجاهدة الشيطان ، وعزم على ذلك ، كان امامه طرق ناجعة واسلحة ماضية في مقابلة هذا العدو الخطير . ويقدر ما يستزيد منها يكون له النصر والغلبة عليه .

وهذه الاسلحة منها ما يزيد يقين العبد بربه ، وادراكه لعظمته وجلاله ، مما يجعله يدرك استحقاق هذا الرب دون غيره للطاعة . ويكون هذا بالتفكر في ملكوت الله سبحانه ، وادامة رؤية النظر في عظيم صنعه ، وتأمل آياته الماثثة في هذا الكون .

ومنها ما يزيد من الشعور بمراقبة الله عز وجل له ولغيره من المخلوقات ، ويكون هذا بالاستزادة من ذكر الله سبحانه ، بصفاته ، وما يليق بجلاله ، وتلاوة كلامه وآياته وعبادته بما شرع من الطاعات : فان ذكر الله يديم اتصال القلب به تعالى ، والقلب الموصل بالله سبحانه حصن حصين لا يلجه الا الاطهار . وقلة ذكر الله تورث النسيان والغفلة ، مما يوفر البيئة المناسبة لعمل الشيطان .

وهكذا بالفكر يدرك العقل عظمة الله عز وجل ، ويستيقن بأحقيته سبحانه للطاعة والعبادة ، وعدم استحقاق غيره لشيء منها ، وعندئذ لا يلتبس على المؤمن ما يلقيه الشيطان من الشبهات حول عقيدته ، بل يعرفه حق المعرفة ، اذ تستقر في قلبه قاعدة واضحة ، وهي أن كل ما يمر بالخاطر مما لا يليق بالله وجلاله وكماله ، أو يناقض ما أخبره عنه فهو من الشيطان وتزيينه ووسواسه ، وخاصة ان ما يلقيه الشيطان ليس الا مجرد أوهام وشكوك ، لا دليل عليها ولا برهان ، فلا تقف امام

(١٦) انظر : المسائل في أعمال القلوب والجوارح ص ٥٥ ، ٥٦ .

الادلة والبراهين والمعجزات والآيات الدالة على الله ووحدانيته ، وعلى صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبالذكر يظل القلب مستيقظا ، راجيا لله وخائفا منه ، مما يدفع صاحبه للالتزام بطريق الله في كل شأن من شؤون حياته . وقد علمت ان من طرق جهاد النفس حملها على الالتزام بهدى الله بعد معرفته . وذكر الله سبحانه أشد ما يدفع المؤمن الى هذا الالتزام .

وهاتان الوسيلتان : الذكر والفكر ، هما مسلك المؤمنين الصادقين ، كما أخبر عنهم ربهم ، سبحانه وتعالى ، فقد قال : (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات لاولي الالباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والارض : ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانه ، فقنا عذاب النار) (١٧) .

وقال سبحانه : (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) (١٨) . أي تذكروا ربهم وعقابه ، وجزيل ثوابه ، ووعدته ووعيده ، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا اليه (١٩) ، وقال ايضا : (والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) (٢٠) .

والشيطان قرين كل انسان يعرض عن ذكر الله عز وجل ، ولا يتفكر في عظمته وجلاله ، ولا يستفيد من آياته ، وانما يمر عنها كالاصم الاعمي ، قال سبحانه : (ومن يعيش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا ، فهو له قرين) (٢١) .

(١٧) آل عمران - الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ .

(١٨) الاعراف - الآية ٢٠١ .

(١٩) انظر : تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٢٠) آل عمران - الآية ١٣٥ .

(٢١) الزخرف - الآية ٣٦ .

ومن الوسائل في مجاهدة الشيطان ما يساعد على الوقاية منه ، قبل شروعه ، فانه اذا كان هوى النفس هو الباب الذي يدخل منه الشيطان الى قلب الانسان ، فلا شك ان احسن طريقة للوقاية منه هو جهاد النفس ، بحملها على تعلم ما يرضاه الله لها من العقائد والمناهج والمسالك ، وعلى الالتزام بما عرفت من الحق ، وحمل ما فيها من الفرائض والمطالب على حدود الله المفصلة في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . ذلك ان عمل الشيطان هو التزيين والتدليس على الانسان ، وقلب الحق باطلا ، والباطل حقا ، بما يلقيه من الشبهات والوساوس ، فاذا كان عند المرء فرقان يفرق به بين الخير والشر ، والحلال والحرام ، سهل عليه التفريق بين لمة الملك و لمة الشيطان . وهذا لا يحصل للمرء الا بجهاد النفس على العلم الذي يكشف له عن الحلال والحرام ، والحق والباطل ، والخير والشر . فاذا تحصل له الفرقان ، ووثق صلته بالله بالذكر والفكر اللذين يزرعان في قلبه حب الله وخوفه ورجاءه ، استطاع حمل نفسه على الالتزام بأوامر الله ، وعصيان الشيطان في كل ما يأمر به وينهى عنه .

كذلك فان جهاد النفس بدعوة الناس الى الحق الذي عرفه بالتعلم هو جهاد للشيطان الذي استحوذ على الآخرين ، ومطاردة له في خارج نفسه ، بعد ان يكون قد طارده في داخلها . وهكذا فان جهاد النفس بما تقدم من العلم والالتزام والدعوة هو أحسن وقاية للعبد من مكاييد الشيطان .

ومن الوسائل الناجعة في مقاومة الشيطان ، مما يمنع استرساله مع العبد ، ويقطع طمعه فيه ، التوبة الى الله (٢٢) ، بالرجوع اليه ، واستغفاره سبحانه ، والاستعاذة به من الشيطان ، والندم على المعصية ، والعزم على الطاعة .

وبهذا تخلص ابو البشر آدم عليه السلام من الشيطان ، بعد ان وجد

(٢٢) العقائد الإسلامية - سيد سابق ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

اليه سبيلا ، وأزله عما كان فيه من الخير ، فقد استطاع أن يفري آدم بالاكل من الشجرة ، وإيقاعه فيما حظره الله عليه ، بأن حرك في نفسه بواعث الهوى ، قال تعالى : (وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة ، الا ان تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما : اني لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة • وناداهما ربهما : ألم أنهما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما : ان الشيطان لكما عدو مبين) (٢٣) •

ولكنهما تخلصا من الشيطان ومكيدته ، بذكر الله ، والرجوع اليه ، والاستغفار فقالا ، كما اخبر الله عز وجل : (ربنا ظلمنا انفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين) (٢٤) • فقبل الله توبتهما ، واستجاب لهما ، كما قال سبحانه في موضع آخر : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم) (٢٥) •

وكذلك علمنا ربنا ان نستعيز به من الشيطان ، قال عز وجل : (قل : رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون) (٢٦) ، وقال ايضا : (قل : أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس) (٢٧) • والاستعاذة بالله في حقيقتها ليست مجرد كلمات تقال ، وانما هي اقرار القلب بعظمة الله ، وقدرته على كل مخلوق ، وان لا حول ولا قوة الا به سبحانه ، ثم طلب اللجوء الى حماه ، فمس فعل ذلك أعاده الله من الشيطان ، ومن كل سوء •

وهكذا بالذكر والفكر والعلم والتوبة يتحصن المؤمن من الشيطان ، ويتخلص من مصايده وأحاييله ان وقع فيها •

(٢٣) الاعراف - الآيات ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ •

(٢٤) الاعراف - الآية ٢٣ •

(٢٥) البقرة - الآية ٢٧ •

(٢٦) المؤمنون - الآيتان ٩٧ ، ٩٨ •

(٢٧) سورة الناس •

فمن كان حريصا على صلته بربه ، ورضوانه وجناته ، وحسن ختامه ومصيره ، فليذكر ربه ، وليتقنه ، وليجاهد نفسه وشيطانه بالذكر والتقوى والتوبة ، ومن بدأ الطريق ، فله من الله عهد - ومن أوفى بعهده من الله - أن يهديه ويثبتته ، ويفتح أمامه سبل الخير والصلاح ، ويرزقه الفرقان ، كما قال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (٢٨) ، ومن رام غير ذلك فليس أمامه الا الهوى والشيطان ، وقليل من المتاع في الدنيا وخلود في العذاب المقيم .

صور من صنيع الشيطان في أهل هذا الزمان :

ان اهل هذا الزمان ، قد سلموا للشيطان العنان ، فاستغل فيهم بواعث الهوى ، وزين لهم الشهوات ، حتى غدوا لا يفكرون ، ولا يتصرفون ، ولا يحكمون الا من منطلق الهوى ، فترى سلطانه يادي الاثر في كل جانب من جوانب حياتهم ، وفي كل نشاط يصدر عنهم : في عقائدهم ، وأفكارهم ، وأخلاقهم ، وتصرفاتهم ، واقتصادهم ، وسياستهم وفنونهم ، وجميع مسالكهم .

لقد كان اخطر الاوامر التي أصدرها شيطان الهوى هي تلك التي وجهها الى العقول المستعبدة والقلوب الذليلة ، فأمرها اول ما أمرها ان ترفض كل فكرة تقطع على الشهوة الطريق ، او تخفف من نهمها ، او تقف في وجه شرها ، حتى ولو كانت هذه الفكرة حقيقة من الحقائق الساطعات ، او بدهية من البدهيات .

وكان اخطر هذه الاوامر على الاطلاق ذلك الامر الذي وجهه لعقول عباده بانكار الخالق المدبر الحاكم ، لان هذه الحقيقة الكبرى ، وهي أم الحقائق ، تسد على الغرائز طريق التهور ، وتمنعها من التماذي ، لان الايمان بواحد احد ، وقادر ومقدر وهاد وفق تقديره ، وعالم مستحق لان يحكم ويدبر ، يلزم بخلع الهوى عن عرشه ، واسقاطه

من عليائه ، وتجريده من سلطانه ، اذ الخالق العليم هو الجدير بتسليمه
المقاليد ، وهو الاحق بسياسة المخلوقات ، واذن فماذا يبقى للهوى من
السلطان ؟

ولما كانت هذه الحقيقة من الرسوخ في الفطرة الانسانية ، ومن
الوضوح في القلب البشري ، بحيث قد تصمد في قلوب الكثيرين ، امام
هجمات الغريزة الضارية ، لهذا عمدت طواغيت الاهواء والشهوة الى
اصدار امر آخر لهذا الصنف من الناس ، لا يقل كثيرا في خطورته عن
الامر الاول : وهذه المرة ، وان كان الهوى يسمح لأتباعه بالاعتراف
بخالق الخلق ، الا انه يأمرهم بعدم الخضوع له ، ويريد الحاكمية خالصة
لسلطانه هو ، بحيث يظل هو الأمر الناهي . وكأنه لما عجز عن خلع
تلك الفطرة من كيان الانسان ، عمد الى الاستيلاء على سلطان التوجيه
والتدبير لقوى الانسان وطاقاته ، وهو المقصود الاول من محاولته الاولى ،
التي وان نجحت مع كثير من الخلق ، الا انها لم تشملهم جميعا . وهذا
الامر الثاني لم يسلم منه من الناس الا من رحم الرحمن الرحيم من
أوليائه الصالحين .

فغدا الهوى والحال هذه ، هو المسير والمدير ، والأمر والناهي ،
والمهيمن على جميع طاقات الانسان ، وفي جميع مجالات الحياة ، واخذ
بناء على ما خول من السلطان يصدر أوامره وتوجيهاته ، ومشروعاته
وتخطيطاته : للعقل تارة ، والحواس تارة ، والجوارح تارة .

وكان من أخطر أوامره للعقول : ان تحايلي لي بكل حيلة ترضي
نهمي ، وتشفي غليلي ، والعقل بفطرته منطلق نحو الاستنباط
والاكتشاف ، لا يألو جهدا في الاختراع والابتكار . فعمد هذا العقل
المأفون اول ما عمد ، الى تدعيم موقف الهوى بحيل من الافكار والنظريات ،
كان على رأسها النظرية الشهوانية ، التي لا تعترف من قوى الانسان
الا بقواه الجنسية والغريزية ، وترجع كل تصرف الى هذه القوى ،
وتفسر كل خروج عليها بالكبت والمرض والشدوذ . وتلطخ كل عاطفة

انسانية بلوثة الجنس • حتى احوالت حب الطفل لأمه ، والام لوليدها ، والوالد لطفلة ، والطفلة لابيها ، والاخ لاخته ، الى شهوة جنسية ومشاعر حيوانية ، غير لاهية عن اثاره الحقد والكراهية على كل مشير لهذه الغريزة بالتروى والتريث والاعتدال •

وكان من هذه النظريات المصفقة للهوى، والمدعمة لمركزه وسلطانه، والمنافعة عنه ، تلك النظرية التي اهابت بعبيد الهوى أن لا يعترفوا الا بالمحسوسات والماديات ، وان لا يعملوا لسواها ، ولا يتعبوا انفسهم الا في خدمتها ، ولا يدينوا الا بها ، مبثغة من ذلك انكار القلوب ، والغاءها من حساب الانسان ، لان اعمالها غير مرئية ولا ملموسة • وانما الملموس في هذه الحياة كل عمل غريزي ، وتصرف شهواني • فالتقوى الحيوانية عند هؤلاء هي الجديرة بالاعتبار، والتعهد والتنمية • واما القلوب فلا وجود لها، او هي مظاهر وثمرات لتلك القوى الغريزية • وذلك حتى يستبعدوا من حساب الانسان اي حرص على أغذية القلوب، ويشبطوا همته عن ابتغاء شيء منها ، وبهذا صرح الاعلان الشيوعي على رؤوس الاشهاد : أن مطالب الانسان ثلاثة هي : المأكل والمسكن والجنس • واما الروح وغذاء الروح من المعاني والاعمال ، فهي عندهم خرافات واوهام •

يمثل هذه الافكار الشيطانية ، وعلى يد كتاب الهوى ، استقر للشهوة السلطان ونالت الدعم الفكري ، فتمكنت من الانسان • وبعدها قامت تطالب العقل الشهواني الذي اذله وسخرته، بابتكار الوسائل والاساليب العملية لخدمتها ، واشباعها • فهب العقل مطيعا للرب الجديد ، يجهد نفسه في تنفيذ أمره ، وكسب الحظوة عنده • وتخصصت العقول كل في مجال ، تبتكر من اساليب ارضاء الشهوة ما يعجز الانسان عن وصفه وتفصيله • وانما يجمع هذه الاساليب ثلاث جبهات اتخذها الشيطان في حربه مع الانسان •

الاولى : جبهة الشهوة الفرجية ، او الغريزة الجنسية •

الثانية : جبهة الشهوة البطنية •

الثالثة : شهوة الجاه والسلطان ، وتملك قلوب العباد •

فأما الجبهة الجنسية ، فهي التي حقق فيها العقل الجنسي ، في هذه الايام ، انتصارات ساحقة ، على القضايل والاخلاق • وذلك بما ابتكره من الاساليب والوسائل ، حتى اشار على عباد الهوى ببناء المؤسسات الجنسية ، واخترع لها من الوسائل ما يجعل المثيرات صديق كل انسان ، وفي كل زمان ومكان • وقام القادرون على حصر الذهن بتأليف كل منشط للغريزة ، وانتظموا في تخصصات ، وجعل لهم قطاعات ومجالات

فاختص بعضهم بادارة تلك المؤسسات ، على وجه يحقق اقصى غاية من الاثارة ، وجعلت لهم الجوائز والمكافآت ، واعلى المخصصات من الاموال التي خلقت اصلا ليكون فيها قوام العاملين النافعين من بني الانسان •

واختص بعضهم بتأليف الكتب الجنسية ، وآخرون بتلفيق القصص المثيرة ، واصناف من المهازل والحكايات ، بأسماء مختلفة ، وان تشابهت المسميات : تمثيلات ، ومسرحيات وصحف ، ومجلات ، وأفلام وبرامج ومسلسلات وغيرها من المبتكرات •

ثم اشار هذا العقل المفتون لعبيد الدرهم والدينار ، من اصحاب الاموال ان ادعموا هذه البذور في المجتمعات ، وسوف تحصدون اوفر المحصولات ، وذلك عندما تذوق الغرائز النهمات طعم هذه المشهيات ، فلا تملك تراجعا ، ويفلت من ايدي اهلها الزمام ، وعندئذ تمسكون منهم بالخناق ، فتمتصونهم ، وتعصرونهم عصرا ، ولا يكون لهم مناص ، من دفع الغالي والرخيص ، في جيوبكم ، وبنوككم ، لانهم ان التفتوا الى الوراء ، فسوف تلسعهم سياط الغريزة الشائرة ، وتردهم فيضانات الشهوة الطامة الغامرة ، فيصفو لكم الجو ، وتنفردون في الميدان •

وما كانوا بحاجة الى مثل هذه الاشارات ، لان أفواههم الشرهة مفتوحة لافتراس الضحايا ، واقتناص المناسبات • فتسابقوا الى توخيف

اموالهم في هذه المجالات ، فهذا احتضن لنفسه شركة افلام ، وهذا بيتا من بيوت الازياء ، وذاك مجلة من المجلات ، او صحيفة من الصحف ، او غير ذلك ، ودعموها بأشكال من الدعايات ، مستبichen في ذلك كل سبيل لاسالة اللعاب ، والهباب الشهوات ، لانها هي الجنود المخلصة لهم في معركة جمع الاموال .

ولعل من اظهر انتصارات شيطان الهوى في جبهة الجنس حصوله على الطعم الفعال في اثاره الرجال ، واستغلاله أتم استغلال . وذلك عندما استطاع ان يستعبد المرأة ، ويجعلها آلة طيعة بين يديه ، يشكلها كما يشاء من الاشكال ، فأوحى ذلك الشيطان المريد لاوليائه وعبيده ان طعامكم الشهوي ، وشرابكم اللذيذ ، وشفاء غليلكم في المرأة ، فأخرجوها ، وحرروها بكل وسيلة ، وبكل حيلة . ووسوس لهم انه يجب ان تخرج المرأة من بيتها ، تحت اي عنوان ، ولكن قال لهم : احذروا ان تخرج بسترها وعفتها ، والا فلا فائدة لكم ، يجب ان تخرج في صورة اغراء .

نعم ، لقد قال الهوى لعبيده : لن تكونوا مخلصين لي اذا سمحتم للمرأة بالخروج مستورة ، وقال لهم : لا تسمحوا لها ان تتلقى العلم منفردة ، بل يجب ان يكون التعليم مختلطاً لان الهدف ليس هو معرفة الحقائق ، فان هذا هو بغية العقل والقلب ، واما انا الهوى فانه يحطمني ، نعم قال لهم : انني اسمح لكم ان ترفعوا الشعارات، وتزخرفوا العناوين ، ولكن احذروا ان تكونوا صادقين . نعم ، لا مانع ان يكون العلم عنواناً لدعوتكم ، ولكن يجب ان يكون الهدف تعلم الاغراء والاثارة ، وأسمح لكم أن يكون العمل عنواناً لدعوتكم ، ولكنه يهمس في قلوبهم : انني أقصد تأجيج الشهوات ، واثارة الشباب ، ولا بأس ان تتسلى المرأة ببعض الاعمال التي تحقق أوفر وقت من غيابها عن منزلها .

والتفت الملعون الى زمرة اخرى من مستخدميهم ، وقال لهم : الا تريدون المال ؟ الا تريدون أن يشار اليكم بالبنان ، ويكون ذكركم

على كل لسان ؟ أنتم أيها الكتاب ، ألهبوا مشاعر الشباب ، وآثروا في المرأة حب الخروج ، وسوف يساعدكم ما فيها من حب الظهور . وزين لهم ان هذا انفع لاقلامكم ، واكثر ادرازا لارباحكم . وأنتم أيها القصاصون ، وأنتم أيها الصحفيون ، وأنتم يا اصحاب بيوت الازياء ، وأنتم يا صناع ادوات الزينة ، وأنتم يا أدباء ، وأنتم يا شعراء : هذه هي الارض الخصبة التي تدر عليكم الاموال ، وبها تتملكون قلوب الناس .

ثم التفت الى اصحاب السلطان ووسوس لهم : الا تريدون التمكين ، الا تبتغون الانفراد بالسلطان ، الا تخشون صيحة العقل والعقلاء : اذن فافتحوا الجنودي الابواب ، واسمحوا لعملائي بالعبث والفساد ، وسوف أخرس العقول وأجمد لكم الضمائر ، فان في الناس طاقة اخرى ، هي طاقة الجنس ، من خصائصها اذا اعطيت السلطان ان تجمد الضمائر ، وتخرس العقول ، فاسمحوا لي باثارتها ، باساليبي وحيلي . اسمحوا لي بالنفوذ الى بيوتهم عن طريق الاذاعة والتلفزيون ، اسمحوا لعملائي ببيع كتبهم ومنتجاتهم ، وشجعوهم ، اسمحوا لاقلامهم ، لمجلاتهم ، لاشعارهم ، لاغانيتهم . ثم ربوهم كما اريد وضعوا لهم المناهج التي اريد ، وسوف ترضيكم النتائج .

هكذا خطط الشيطان لاوليائه ، وحبك خيوط المؤامرة . ثم جاء دور المقصودين بها ، وهم الشباب والشابات ، فقام سمسار الشيطان يصرخ فيهم : الاختلاط ، البهجة ، المتعة ، التحرر أيها الرجال ، هل تكرهون الاستمتاع ؟ وأنتم أيها المرأة ألا تحبين أن تثبتي ذاتك ؟

وعرف الشيطان ان هناك قليلا من بقايا الاخلاق . وان هناك بعض المسئوليات والآثار التي قد تحد من الانطلاق الغريزي الكامل . فأهاب بأوليائه أن يرتبوا الامور . بحيث لا يخشى الشباب والشابات أية مسؤولية ، فاخترعوا لهم حبوبا تمنع من الحمل وأذاعوها ونشروها ، وجعلوها ارخص الادوية ، بل ربما وزعوها مجانا في بعض البلاد ليساعدوا على انتشارها ، ونشر الرذيلة معها على اوسع نطاق .

وفي نفس الوقت وضعوا امام الشباب كل مثبط عن الزواج، واقاموا الحواجز المنيعه في وجوه الشباب عن ولوج هذه السنة المعقولة ، لان شيطان الغريزة لا يقبل الاعتدال . ولا يرتضي أن يكون تحت رحمة العقل ، بعد ان اذله وسيطر عليه . وهذه شيمه كل ظالم متغطرس ، يخرج عن حدوده ، ويظن أن رآه استغنى ، فلا يقبل بالتوسط والحدود المعقولة . لذلك وضع العراقيل امام طلاب الاعتدال في ارضاء هذه الفطرة بالزواج . حتى غدا هذا من اصعب الامور ، من النواحي المادية وغيرها ، حتى سمعنا ان معدل سن الزواج في كثير من البلاد لا يقل عن ثلاثين عاما ، حيث يقضي الواحد من الناس عمرا قبل دخول الحياة الزوجية ، يكون قبلها ، قد ران على قلبه من التجارب الدنسة ما هو كفيل بتعطيم أي زواج يقدم عليه بعد ذلك . نعم ، لقد أوصدوا امام الشباب الباب الذي يفتحه لهم العقل المستقل عن الشهوة ، وفتخوا لهم كل باب أمر بفتحه الهوى، ابتغاء تحويل الطاقة المهداة لبنى الانسان الى دوافع قوية للرديلة .

هذا جانب من جوانب المؤامرة الشيطانية على القوى الانسانية ، يستهدف في مجمله تسخير هذه القوى لشهوة الجنس العمياء ، واذلال العقل المستنير بنور الحق ليصفو الجو للمنتفعين بالجاهلية ، والمصطادين في المياه القذرة .

واما شهوة البطن ، فقد ربيت ودعمت في الانسان ، وجعل لها في هذه الايام نصيب من السلطان . وجعل في خدمة هذه الغريزة الوان من الفنون والوسائل والمؤسسات . بل لم تنس من دعم كتاب هذا القرن الذين سيطر عليهم الشيطان ، حتى ادعوا انه اوحى اليهم ان الانسان مخلوق ليأكل ، بالاضافة الى اهداف الغريزة الاخرى : فهو ينصب ويكسب ليأكل وينام ، وينام ويأكل ليكسب وينصب ، دورة لا يأتي عليها الا الموت ، يدعون ان ابن آدم وجد ليدور فيها ، قاتلهم الله انى يؤفكون .

والشيطان لا يغفل عن تأجيح نار هذه الشهوة ، لانه يعلم ان شهوة البطن من أصول المهلكات ، كما يقول الغزالي رحمه الله : (فيها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار الى دار الذل والافتقار ، اذ نهيا عن الشجرة ، فغلبتهما شهوتهما حتى أكلتا منها ، فبدت لهما سوءاتهما • والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ، ومنبت الادواء والآفات : اذ يتبعها شهوة الفرج ، وشدة الشبق الى المنكوحات ، ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال ، اللذين هما وسيلة الى التوسع في اشباع الفرج والبطن • ويتبع استكثار المال والجاه انواع من الرعونات ، وضروب من المنافسات والمحاسدات • ويتولد من كل ذلك آفة النفاق والرياء ، وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء • ثم يتداعى كل ذلك الى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء • ثم يفضي ذلك الى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء • وكل ذلك ثمرة اهمال المعدة ، وما يتولد من بطن الشبع والامتلاء) (٢٩) •

واما شهوة الجاه والسلطان ، وتملك قلوب العباد ، فالملاحظ انها معززة السلطان في أهل هذا الزمان • حتى سول الشيطان لاوليائه ان كل شيء مباح في سبيل تحقيق العلو على بني الانسان ، وتسخيرهم لاشباع الرغبات والشهوات ، حتى غدا التنافس والتناحر صيغة اهل هذا العصر • وتبع ذلك صنوف من التمزق والتباغض والتحاسد • حتى اصبحنا نرى الامة الواحدة ، التي كانت خير امة اخرجت للناس عندما كانت متحررة من العبودية للهوى ، اصبحنا نراها مزقا من الدويلات والامارات ، التي يتربص بعضها ببعض • وغدونا نرى كل مزقة من هذه المزق كتلا من الناس المتنافرين ، وفرقا وشيعا لا يجمعهم الا شهوة عارضة ، اذا انقضت عادوا الى تمزقهم ، وتباغضهم ، وتناحرهم • واحزابا يتربصون بعضهم ببعض ، ويتحينون الفرص للانقضاض على انفسهم • كل ذلك من اجل اشباع فريق منهم في حب

التسلط والتأله على العباد . وابتكروا لهذه الغاية من الوسائل والاساليب واستنبطوا لها من الافكار والخطط ما اجج بينهم نار العداوة ، بحيث سرت في دمائهم ، ودماء ابنائهم ، وتملك قلوبهم حب الانتقام : انقلابات واعتقالات وسجون ، وتقتيل وتعذيب ، واساليب في ذلك ابتكرها لهم العقل المستعبد لشهوة السلطان ، حتى أسست لها معاهد وجامعات تدرس فيها كيفيات التعذيب ، والجاسوسية ، وانتزاع الاعترافات ، وحمامات الادمغة ، لتكون قابلة لتلقي كل ما ينسب الى اصحابها .

وهكذا سخر العقل في امبراطورية الغريزة ، بثالوثها المتقدم ، لخدمة اله الهوى فأخلص له ايما اخلاص ، ويسر له كل سبيل ، وحقق له جميع معاني الاستعباد والعبودية .

واما الجوارح التي خلقها رب كل شيء لخدمة العقل النزيه ، وطاعة القلب الصافي فقد وجهت وجهة اخرى . واستعبدت بدورها للسيد الجديد . الهوى المتسلط ، ففدت العيون لا تبصر الا ما اريد لها ان تبصره مما يلذ لهذا الطاغية المستبد ، فليس لها ان تنظر الا الى العورات ، وليس لها ان تقرأ الا ما يشبع النزوات . والآذان وظفت عنده لسماع المثيرات . واللسان الناطق غدا مسخرا في مملكة الهوى للنفاق والرياء والتدليس واثارة الشهوات وترداد الكلمات المسمومات .

واما الفرائز نفسها ، فقد اصابها الغرور والتضخم في هذه الايام ، من كثرة ما القمتها الشياطين ، ومن كثرة ما ربت عليها اولياء الشياطين . ولا عجب في ذلك . فان من المسلمات العلمية : ان العضو او الجهاز الذي يبالغ في استعماله يتضخم ويزداد نهمه ، ويتضاعف شرهه ، وحساسيته . في حين ان العضو الذي يقصى عن عمله فترة طويلة ، يضمّر ، ويتضاءل عمله . وتنكسر مملكته ، ويضعف احساسه . وان هذا المعنى ليدركه جيدا خبراء الاجسام ، والمتخصصون في رياضتها . ويبنون عليه قوانينهم واساليبهم في تربية الاعضاء ، وتنميتها بشكل متناسق جميل .

ولعلنا بمعرفة هذا السر الرباني المودع في الكيان الانساني نستطيع ان نفسر ما حملته اليينا الاخبار عن ظهور جنس ثالث في بعض الدول المتقدمة الى الوراء ، جنس اضاع ما انعم الله عليه من الحب والعاطفة والقدرة على الانجاب ، بما جنى عليه شيطان التربية المادية ، عندما أغراه بالخروج من جنة فطرته الربانية ، فقاده الى متهات التعقيد ، ومستنقعات الرذائل .

ولعلنا بهذا التوضيح نستطيع ان ندرك ايضا نتائج الاحصاءات والدراسات التي اجريت في كثير من مستشفيات المجانين في بعض الدول المتعنونة بعناوين التقدمية والعقلانية ، حيث اشارت تلك الدراسات الى أن معظم هؤلاء المحرومين من نعمة العقل كانوا قبل الحرمان من عشاق مذهبة العقول ، ومدمني احتسائها . فان من يدرك هذه السنة الربانية لا يعجزه تفسير هذه الظاهرة ، لان العقول كالسيوف يزيدها الاستعمال حدة ومضاء ، ويزيدها الاهمال صداً وغباء . وهؤلاء المساكين كانوا يقصون عقولهم عن الاستعمال ، ويسدلون عليها ستائر النسيان ، حتى استمرأت الكسل على العمل ، ففقدت نشاطها ، ولما حاولوا اخراجها من غارها استعصت عليهم ، وافلت منهم الزمام ، وكانوا بذلك ضحية الانسياق وراء الشهوات والمغريات فحق عليهم الجنون ، والانزواء عن مجرى الحياة الى مقبرة العقول .

فهذه سنة حاكمة لجميع طاقات الانسان وقدراته . فالعقل والقلب والفرائز والحواس والجوارح — وهي مصادر الطاقة في الانسان — خاضعة لها وملتزمة بها . والعقل متأثر كل التأثير بطريقة استعماله في اكتشاف الحقائق ، والاحساس بالمعاني . وان مواقع الفضائل من صبر وعزة وكرامة وشجاعة ، واخوة وتسامح ، وعدل ونظام ، وورع وهدوء ، وحكمة وطلاقة ، وعفة ، وغيرها لهي تمرينات رياضية مفيدة للقلب والروح . وكذلك اكتشاف الحقائق والزام النفس بمقتضياتها تمرينات سليمة للعقل الانساني . واما الرذائل من حمق وتهور وجبن

وبذخ وتقبح ، واستشاعة وتكبر ، وعجب ونذالة ، وهلع ومهانة ،
وشره حيواني ووقاحة ، وجور وغش وحسد ، وغيرها ، جميعها تمارين
تنحرف بروح الانسان ، وتنمي جذور الفساد في قلبه ، مع تضخيم بشع
لنطلقاته الغريزية .

وبعد هذا البيان لا استغرب ولا يستغرب العقلاء من امر كثير من
شبابنا في هذا الزمان ، حيث احرزوا قصب السبق في احساسهم الغريزي
بين مختلف مخلوقات الله التي تحس وتشعر . حتى انك اذا نظرت
الى احدهم وجدته غارقا في بحر من الجنس يلفه في يقظته ونومه ،
وذلك من كثرة ما ربت له على غريزته ، ومن كثرة ما غذي هذا الاحساس
بالصور العارية ، والقصص المثيرة ، والاغاني الماجنة والافلام الجنسية ،
وغیرها من اشكال الفتن والمشهيات . وقد رافق هذا الجنون الجنسي
مرض خطير اصاب عقول هؤلاء وارواحهم ، وهو مرض اللامبالاة
والبلادة العقلية ، والصدأ الروحي : حتى كثر بينهم الاقرار بالضرر
والاقدام عليه ، والاعتراف بالذنب والاصرار عليه ، واكتشاف الحق
وجعله ظهريا ، وتبين الباطل واحتضانه ، ومعرفة الصواب وهجرانه ،
فأصبحوا ممن قال عنهم الله تبارك وتعالى : (سأصرف عن آياتي الذين
يتكبرون في الارض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وان
يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل النفي يتخذوه
سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) (٣٠) .

فأصبح سلطان العقل ، والحالة هذه ، مخالفا ، واوامره معصية ،
فضمر المسكين وتبلد ، واستقال من الحكم ، وافسح المجال لغيره من
الغرائز الطاغية ، وكأنه مل وسئم من كثرة ما عصاه السفهاء ، فذل
وخضع لسلطان الغريزة البلهاء ، وهو بذلك يخضع لسنة الفطرة ،
ويمثل لأمر الله عز وجل ، فقد أرسله خالقه نعمة للانسان ، فتيا
نحيطا ، مستعدا لخدمته واسعاده . ولكنه مأمور من قبل فاطره : ان كن

كريما ايها العقل اذا احترموك ، واهجرهم ولا تجد عليهم بشيء ان هم هجروك .

ولا تظنن اخي القاريء ان في هذا الوصف مبالغة ، والا فكم من امر قضت فيه العقول بقضاء ، فوضعت اقضيته العادلة على الرفوف ؟ وكم من أمر حكمت بضرره وفعله الناس ؟ وكم من امر قضت العقول بخيريته فهجره الناس واحتضنوا سواه ؟ ألم يقل لهم العقل والعقلاء : ان شرب الخمر داء عضال فشربوه ؟ ألم يقل لهم العقل : ان الزنا جريمة مدمرة للفرد والمجتمع فأباحوه ، وان لم يجرؤوا على التصريح اوحوا للناس بفعله بشتى الوسائل وصنوف المغريات ؟ ألم يقل لهم العقل : ان لكل مخلوق خالقا ، ولكل حي محييا ، ولكل ميت مميتا ، ولكل متغير مغيرا ، ولكل جديد مجددا ، ولكل لوحة جميلة مصورا ، فنظروا حولهم : فما فعلوه بانفسهم مما يتهافت ازاء خلقهم وخلق السموات والارض ، طبقوا عليه القاعدة . وما وجدوه مخلوقا مما لم يقدرُوا على طوله من السموات والارض ، وما اودع فيهما من المبدعات ، تعاملوا عنه وأغلقوا بصائرهم ، واستنكفوا عن الاعتراف بمقتضى تلك القاعدة فيه ؟

حصاد التربية الشيطانية :

وهكذا غدت صورة الانسان ، بعد ان تلقفه الشيطان ، لو شاء ان يرسمها فنان : حيوانا غرائزه فاغرة فاها هي السيد المطاع بين جميع قواه ، تريد كل شيء يروي غليلها ، وعقلا ذليلا استسلم لذلك الجبار الظالم ، ياتمر بأمره ، ويخطط من اجله ، يبدع له قصورا من المتع والمشتهيات ، ويفلسف له جميع اوامره في فرضيات ونظريات وجوارح مخلصه لذلك الطاغية المجنون ، تروح وتجيء رهن اشارته ، وتجلب له ما يريد من الخبائث .

وليست هذه صورة من الخيال ، انما هي بنت الواقع والحال ، حملت بها ووضعتها تلك التربية الشيطانية . فأثمرت هذه التربية اشكالا من الفتن والموبقات ، وصنوها من الشرور والآثام ، وكانت حصيلة كل ذلك عذابا لابن آدم ونكدا ومرارة وتعاسة . والبرهان على ذلك سهل يسير ، الا وهو النظر بعين البصيرة الى هذا الواقع المرير ، بما فيه من قيم وموازين وافعال وأخلاق وأحكام وصفات وأحوال .

هذه القيم المقدسة عند انسان هذا اليوم ، وهذه الموازين التي حملها يزن بها الاشياء ، وهذه المقاييس التي نصبت لقياس الرجال : انظر اليها-ايها الاخ القارىء-في السوق الذي يتاجر فيه بالانسان : الذكر والانثى على السواء ، فماذا ترى ؟

من هؤلاء الذين علت اقدارهم ؟ ومن هؤلاء الذين يشار اليهم بالبنان ؟ ومن هم ابطال هذا الزمان ، الذين يلشغ بذكرهم الصبيان ؟ من هؤلاء الذين اشتغلت بهم ابصارنا واسماعنا في الليل والنهار ، على الشاشة الصغيرة والكبيرة على السواء ؟ من هؤلاء الذين يصلون بقفزات سحرية ، فتحدق بهم الابصار ، وتنحني لهم الظهور ويرهب جانبهم ، وتنفذ اوامرهم ؟ ومن هؤلاء الذين رفعت فوق هاماتهم رايات التقدم والتحرر وزينت جباههم بشارات العلم ونياشين العقلانية ؟ ثم من هؤلاء الذين اتخمت جيوبهم بما جعله الله قواما للناس ؟ ومن هؤلاء الذين تقضى حوائجهم باشارة ؟ وهؤلاء الذين يتشرف المساكين بخدمتهم ؟ ومن هؤلاء الذين تفسح لهم المجالس ويقدمون فيها ؟ ومن هؤلاء الذين اذا تكلموا نقشت كلماتهم بماء الذهب ؟ ومن هؤلاء الذين تسلط عليهم الاضواء ، وتستتر عوراتهم ، وكلهم عورات ، بل تزين عيوبهم بريش الفنانين ، حتى تبدو باهرة الجمال في أعين النظار ؟ من هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء ؟ أصبح هم أولياء الحق أم أنهم خدام الشيطان ؟ أصبح هم جنود العقل أم عباد الهوى ؟

أليس الذين تناولوا في البنيان حفاة الاخلاق وعراة الفضائل ؟
أليسوا هم اولئك الذين اتخموا بالعظمة وانتفشوا بالكبرياء ، وتسלحوا
بالفطرسة والتعالي ؟ أليسوا هم الذين اقتدوا بولي شقوتهم عندما
تكبر على أمر ربه ، وأخذته العزة بالاثم ، فتعالى عن السجود لآدم
اذ أمره الله بذلك ؟ أليس أبطال هذا الزمان اولئك الذين
أحرزوا قصب السبق في تأجيح الغرائز واشعال نارها ؟ أليسوا هم
اولئك الذين استخدموا الكلمة والفكرة والحركة اسلحة يجهزون بها
على البقية الباقية من صفات الانسان التي تميز بها على الحيوان ؟
أليسوا هم كتاب الرذيلة ، وشعراء الغريزة ، ومجسدي الدعارة
بالكلمات والحركات ، ممن أغراهم ابليس بالجاء وبعد الصيت وتكثير
المال ، في مقابل ما يهدمون من مواضع التكريم في بني الانسان ؟

منذ متى اصبح ما يسمونه بالجمال ميدانا للسباق ؟ منذ متى
أصبحت البشرية تعقد الامتحانات لتصنيف النساء الى جميلات
وقبيحات ؟ ومنذ متى هوت المرأة المسكينة في هذا المستنقع ، فغدت
بالاشارة تستسلم لتجار الفتنة ، فتسلمهم أعز ما حباها خالقها ؟ ومنذ
متى اقامت الانسانية لهؤلاء المستسلمات لغواية الشيطان واوليائه
ممالك يتربعن على عرشها ؟ منذ متى قبل الناس بجميع هذه المهازل ؟
أليس عندما وقع الانسان رجلا وامرأة بين احضان تلك التريبة
الشیطانية ؟

منذ متى اصبح النفاق والرياء والكذب والتكلف مؤهلات الارتقاء
على سلم الوصول الى شرفات الجاه والثراء ؟ ومنذ متى غدا تجسيد
العورات وتعريضها لأعين النظار خير ما يستجلب الشهرة ، واحسن
ما يستحلب المال من جيوب العباد ؟ ومنذ متى اصبح المال والجاء اكسيرا
اذا خالط الباطل غدا حقا ، واذا تفاعل مع القبح حول قبحه الى حسن
وجمال ؟ ومنذ متى اصبح انبياء هذا الزمان اولئك الذين سخروا
عقولهم واقلامهم لتمكين السلطان لغرائز الانسان ، وهيمنتها على
العقل والجنان ؟

هذه هي بضاعة الشيطان ، عرضها في ابرز مكان من سوق النخاسة
البشري الذي اقامه لابناء هذا الزمان . وفي زاوية من زوايا النسيان
تختفي في هذه الايام جميع منتجات العقول من حق وفضيلة واتزان .
وتراهم رفعوا فوقها شعارات الرجعية والتأخر ، وتعطيل عجلة التطور ،
ومقاومة الانفتاح والتحرر ، وضيق الافق والجمود . او الجنون والتهور .
والا فأين العلماء ؟ وأين العادلون ؟ وأين أنصار الحق ؟ وأين وضع
المؤمنون بالحقائق . وعلى رأسها حقيقة الخلق والتدبير ؟ وأين دفن
المتكلمون بصدق ؟ وأين حجبت الاصابع المشيرة الى الصراط المستقيم ؟
وأين ذهب بالذاهبين الى الله ، مصدر الحقائق كلها ؟ ماذا جرى ويجري
لمن يرفضون التملق والنفاق ؟ وماذا جرى ويجري لمن امسكوا ايديهم
عن النهب والسلب والارتشاء ؟ ثم ما تلك النظرات التي ترمق المتعطفات
الكاسيات ؟ هل اقترفن اثما عندما حجبن مفاتنهن عن الحيوانات ؟ هل
فقدن عقولهن عندما سترن نحورهن وجيوبهن كما امرهن رب العباد ؟
هل اجرمن عندما ادخرن زينتهن لازواجهن ؟ ام لانهن حرمن تلك
الافواه الشرهة من زاد الفرائز والاهواء ؟ فغضب عليهن الشيطان
عندما أبين التطوع في جيشه ، فسلطه عليهن يأكل لحومهن ؟ ماذا فعل
بجميع هؤلاء الملبين لنداء العقل والقلب والفطرة ؟ ألم يلق بهم جنود
الهوى في غياهب سجون الاهمال ان لم يزجوا بطائفة منهم وراء
القضبان ؟ لماذا حكم عليهم بهذا الجور ؟ أليس لانهم يعطلون مسيرة
الركب المفتون عن التقدم الى الهاوية التي يسوقه اليها ابليس اللعين ؟
هذا هو السوق الذي يقوم فيه أبناء الانسان في معرض الشيطان .
فتعال الى سوق آخر نشر فيه اللعين بضاعته : سوق معطيات الفكر
والقوة الذهنية : المؤلفات والمخترعات والابتكارات .

ان الرواج في هذه السوق لكل غذاء ينمي في الانسان القوى
الحيوانية لان العقل بعد ان خلع من مكانه ، وحلت محله قوى الغريزة

والشهوة بمختلف أشكالها ، أخذت تصدر له الاوامر التي تدعم مركزها ،
وتزيد في اذلاله واخضاعه :

فأما غريزة التعالي وحب استعباد الناس ، والاستيلاء عليهم ، فقد
أصدرت تعليماتها للعقول القادرة على الابتكار أن اخترعي لي كل وسيلة
لاذلال الناس: أريد أسلحة أرهب بها أصحاب العقول المتحررة من سلطاني
أريد أساليب جديدة لتعذيبهم ! أريد خططاً مبتكرة للتجسس عليهم
ومعرفة خبايا نفوسهم واخرى مبنية عليها لغسل أدمغتهم من كل رواسب
الحق العالقة بها ، أريد أحدث الوسائل في بث الفرقة بين الناس ،
ليشتغلوا بأنفسهم ، فلا يجد أحدهم وقتاً ولا جهداً لانتقادي اريد فنونا
من الدعاية تزين قبائحي ، وتستتر معايبى بأبهى حلل الخديعة ، أريد
اجهزة ومؤسسات تظل تعمل وتعمل ، وتدغدغ الناس ، فتخدرهم لتطول
غفلتهم ، أريد نظريات وفلسفات تباركني ، ووسائل أخرى لتدعم
حاكميتي اريد أنسب الشعارات والاعلام أرفعها بأعداد هائلة استر بها
جرائمي ، حتى لا يكاد احد يرى ما تحتها من الفضائح والمخازي ، أريد
وأريد وأريد !!!

غير أن أهل الجاهلية لا يعيشون الا على المنافع المتبادلة ، او قل على
المفاسد المتبادلة وهنا يرفع شيطان الجنس رأسه ، حيث يرى الفرصة
مواتية فأبدى مطالبه ورغباته ، انه اشترط لنفسه ولم يدخر : اريد
مكانا مناسباً اعرض فيه منتجات العقل الجنسي ، مستشاري العبقري :
هذه نظرية في الجنس اريد ان تروج ، وهذه اخرى في نسبية الاخلاق ،
وهذه ثالثة في الوجودية ، وهذه رابعة في انكار الحقائق ، وفي اولها
وجود خالق ، وهذه خامسة ، وهذه سادسة وهذه عشرون اريد
ان تؤلف فيها الكتب ، وتعرض على مشارف المعرض الفكري ، حتى
يراها كل غاد ورائح . ثم اشترط لنفسه ايضا وقال : هذه سمومي
العملية اريد ان يكون لها الخطوة في السوق ، بشرط أن يكتب عليها
«ترياق التقدمية والتحرر والتطور» : أغاني وأفلام وموضات ومساحيق
وأصناف أخرى كثيرة جدا :

وعقدت صفقة الجريمة بين الشيطان من جهة وشهوة الكبرياء وشهوة الجنس المسعور من جهة أخرى ، ونفذت بنودها ، وكان ضحيتها الانسان بكل ما فيه من المعاني الكريمة ، فكان ما كان من سطوة طواغيت وتنحرف فرق ، وتمزق أمة ، وظلم وعذاب ، تأنت رجال ، وترجل أناث ، أحقية باطل ، وبطلان حق ، سقوط ابطال ، وتعاضم جهال ، استعباد اسياذ ، وغطرسة عبيد ، عفن قلوب وصدأ أرواح ، مشردين معذبين ، غلاء حيوان ورخص انسان ، ندرة رجولة ووفرة ميوعة ، فضائل منبوذة وفواحش ماثلة . وأخيرا تهافت أمة تحت أرجل كلاب البشرية . لقد صدقت يا رب اذ تقول : (ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) (٣١) .

معالم في طريق جهاد الشيطان وأوليائه :

أرأيت يا أخي القاريء ماذا اريد بالانسان في هذا الزمان ؟ أدركت أبعاد المؤامرة ؟ أبصرت الخراب الذي قاد اليه هذا الغراب ؟

والآن فقد آن الاوان للكلام عن الدواء بعد ان عرف الداء . ولكنني قبل هذا أؤكد ان الطريق الى الشفاء تبدأ من معرفة الداء والشعور بآلامه ، والاحساس الصادق بآثاره ، ورؤية اعراضه ، لان هذا هو القوة الدافعة للبشرية المصابة لأن تتخلص من مواقع الخطر ، وتتحاشى مسببات المرض ، لتكون بعد ذلك مؤهلة لتلقي العلاج بتجرع الدواء .

وهنا اجدني مدفوعا برجائي ان اكون من اتباع محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي يعز عليه عنت امته ، الحاني عليها ، الحريص على هداها ، الرؤوف الرحيم بها . اجدني مدفوعا ان أنادي بحرقة المصاب ، ولهفة الغريق الذي لا يستطيع النجاة الا بصحبة المدركين لابعاد المستنقع الشيطاني :

يا اخوتي الذين عرفوا مصاديد الشيطان ، وحددوا مواقع الغامة المبتوثة تحت أرجلهم ، وتبينوا اساليب اوليائه في جر الناس الى شباكه .
يا هؤلاء تعالوا نفر الى مكان امين ، ونركن الى ركن ركين ، تعالوا نتخطى الحفر الشيطانية التي حفرها لنا اولياء الشيطان فيما رأينا وسمعنا .
ان ربكم يدعوكم الى حصنه الحصين ، ويناديكم : (ففروا الى الله ، اني لكم نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ، اني لكم منه نذير مبين) (٣٢) .

والآن انتقل الى الخطوة الثانية في طريق الشفاء ، انها معرفة الدواء بعد معرفة الداء واسبابه ، والعزمة القوية على الخلاص .

وان فضل الله واسع ، ونعمه سبحانه سابعة ، وانه يوم خلق الانسان لم يتركه لقمة سائغة للشيطان ، لانه يحبه ، اذ خلقه ، ولذلك كرمه يوم خلقه ، سخر له الملائكة ساجدين ، وما في السموات والارض خادمين .
وجزه بالسلاح الذي يذب به عن حماه ، وجعل بين يديه الدواء ، مفصلاً لكل علة وداء ، وبعث له فرق الانقاذ من الرسل والانبياء .
واما مادة الامتحان فكامنة في قبوله او رفضه لهدية الرحمن .

وان من اعظم نعمه علينا هذا القلب الذي يدل على بداية الطريق ، ويستبين معالمها في شعاب الحياة ، لذلك جعل مناط التكليف ، ومدار المؤاخذة والعقاب والمكافأة والثواب ، حتى عذر فاقدوه ، وروعي ناقصوه .

ولكنني اذ انطلق من منطلق القلب والعقل في اكتشاف طريق الخلاص اذكر بأمرين هامين :

الامر الاول : أن العقل ، أمام الاساليب الشيطانية في غواية الناس ، عمله أن يستبين الطريق ، وان يدل على الاصول ، وان يشير الى الجهة التي يكمن فيها العلاج ، وبعد قليل سنرى ان هذا القلب يقود المخلوق

الى الخالق ، ويلزم صاحبه بالاستقرار عند تعاليمه سبحانه ، والالتزام بتوجيهاته ، وتجرع دوائه المنزل له رحمة وشفاء •

ولكن ليس عليه ان يفسر كل جزئية ، ويدرك الحل لكل مشكلة ، والوضع السليم لكل حركة ، لان هذا غير كائن بالضرورة الا لمن خلق الاشياء كلها ، والذي قدر الحركات • كما يكون بصورة جزئية لمن علمهم هذا الخالق ، ودلهم على كثير من الحقائق • والعقل يحدد المسار الصحيح الى الدواء ، ومكان وجوده ، والى هذا أشار الامام الغزالي رحمه الله تعالى بقوله : (اعلم أن العقل لن يهتدي الا بالشرع ، والشرع لم يتبين الا بالعقل ، كالأس ، والشرع كالبناء ، ولن يغني أس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس ، وأيضا فالعقل كالبصر ، والشرع كالشعاع ، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من الخارج ، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر ، فلهذا قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه » (٢٣) •

وبعد ان يقوم العقل البشري بهذا الواجب ، ويوصل الانسان الى ربه ، يكون الانسان بكل حركة يتحركها وفق تعليمات الله ، وكل التزام لامر من اوامر الله منسجما مع العقل ، لانه هو الذي اوضله الى هذا المكان ، ووضعه في هذا المركز • ويكون بعد ذلك كل خروج عن امر الله وكل مخالفة لتعليماته ، وكل خروج عن حكمه مخالفات صريحة ، ولكلمات عنيفة للعقل ، لان هذا يقول له : الزم ربك ، فلا يمثل ، ويقول له : التزم منهاج الله ، فلا يلتزم ، فيكون بذلك اضل من الدواب ، التي حرمت من الدليل ، فكانت معذورة في كل خطأ او انحراف •

الامر الثاني : ان القلب القادر على ادراك الوضع السليم ، والمؤهل للقيادة الى النجاة والدلالة على الحق ، هو القلب النظيف من ادران

الهوى • فهو الذي يرى ، ويستطيع ان يعكس لصاحبه صورة الحقيقة في هذا الكون ، ليتخذها صاحبه دليلا في سيره • فهو كصفحة الماء الصافي او المرأة الصقيلة • واما القلب المحكوم للهوى ، فهو كصفحة المستنقع الملوث بالطين ، تنزلق عن سطحه صور الحقائق ، فلا يبين لها اثر ، ولقد صدق خالق القلوب اذ قال سبحانه : (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد) (٣٤) ، ولا يقدر على الشهادة والرؤية الا صاحب ذلك القلب الصافي • وهذا هو معنى وعيد الله ، المخيف ، الذي تقشعر منه الجلود (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ، وان يروا كل اية لا يؤمنوا بها ، وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل النفي يتخذوه سبيلا ، ذلك بانهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين) (٣٥) ، وهو ايضا معنى قوله تعالى : (وفي الارض آيات للموقنين) (٣٦) ، فالآيات ماثلة للجميع ، ولكن الذي يراها هو صاحب القلب المزكى ، ويعمى عنها اصحاب النفوس المدساة ، لذلك قال عز وجل : (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) (٣٧) ، وهو ما اشار اليه سبحانه بقوله : (قل : هل يستوي الاعمى والبصير ، أفلا تتفكرون) (٣٨) ، ولهذا لا ينتفع بالقرآن الا اصحاب القلوب الحرة ، ولا ينتفع به المكبلون بقيود الغرائز والشهوات •

وبعد ذلك ، فان مثل هذا القلب لن يضل صاحبه في معرفة الطريق • نعم سيجد نفسه ملقى في شعاب هذا الكون ، ولكنه سرعان ما يهتدي بالآيات البينات :

من هذا الذي رفع السماء ؟ من هذا الذي نثر النجوم في الفضاء ؟ من الذي نظم عقدها ، ورتب حركاتها ، فلا تصطدم ولا ترتطم ؟ يا

(٣٤) ق - الآية ٣٧ •

(٣٥) الاعراف - الآية ١٤٦ •

(٣٦) الذاريات - الآية ٢٠ •

(٣٧) الشمس - الآيتان : ٩ ، ١٠ •

(٣٨) الانعام - الآية ٥٠ •

صاحبي : هذا الذي يستطيع ان يربيك ، لتدور نجما على سطح الارض في فلك لا تند عنه ، فلا تتحطم ولا تشقى . ثم من هذا الذي فرش الارض ، وأرسى فيها الجبال ، وانزل اليها الماء ؟ من الذي خلق كل شيء حولك ، فسواه ، ثم هداه ؟ يا صاحبي : هذا هو الجدير بهدايتك . من هذا الذي يحكم الكون كله ، وانت منه بعض يسير ؟ هذا هو الحقيق ان ترفع له رايات الاستسلام ، وتدين له بالحاكمة . هو الذي يعدل بين قواك فلا يصيبك خور ، ولا يعتريك نكد ، ولا يخالطك شقاء . لان الذي فعل كل هذا لا بد انه اقدر على حكمك ، واعلم بوسائل تربيتك ، (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (٢٩) . أفمن يهدي الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي الا ان يهدي) (٤٠) .

يا صاحبي أدرك نفسك ، واهرع الى هذا العظيم ، عليك بجواره فانه لا ولن يخزيك . ان هذا الذي وسعت رعايته وعنايته جميع هذا الذي تراه من الكون الباهر لن يبخل عليك بالهداية والعلاج والحماية .

هذا هو الامر الاول الذي يوجهه العقل المحايد المتحرر من سلطان الهوى لصاحبه الذي يبحث عن الطريق : أمر بتحويل الوجهة الى الله ، أمر بالفرار اليه ، أمر بتسليم مقاليد الامور اليه ، أمر بالاستسلام لحكمه وحاكميته ، أمر بالامتثال لنداء الله سبحانه : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء ، وانزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون) (٤١) ، نعم : لا تشركوا به اربابا يربونكم معه ، ويشرعون لكم ، ويضعون لكم المناهج .

وهنا أغتنم فرصة ثانية لأنادي الاخ القاريء ، الذي صدق بهذه الحقيقة ، ولا مفر من تصديقها لمن يفكر بعقله ، بعيدا عن حكم الهوى ،

(٣٩) الملك - الآية ١٤

(٤٠) يونس - الآية ٣٥

(٤١) البقرة - الآيتان ، ٢١ ، ٢٢ .

أغتنمها لاناديه : انك في خيار بين ان توجه لقلبك أعنف صفة ، فيذل ويستسلم للفريضة البلهاء ، التي ستقودك لا محالة الى تلك الهاوية التي رأيت بعض ابعادها ، ولا يعلم مداها الا العليم الخبير ، وبين ان تتشبث بقوة بحكم القلب الناصح لك . ولا اظن عاقلا يختار تدمير نفسه . اذن فقل يا اخي كما قال عبد من عباد الله ، اهتدى الى الحق ووصل الى هذا اليقين ، قل : (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا ، وما انا من المشركين) (٤٢) ، نعم . يا أيها الاخ الباحث عن الهدى قل (ان هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين) (٤٣) ، وقل : (الله يهدي للحق) (٤٤) .

وما دمت قد اقتنعت بفطرتك وعقلك ان الهدى عند الله فقل : (أغير الله اتخذ وليا ، فاطر السموات والارض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل انني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين) (٤٥) ، وقل : (انني هداني ربي الى صراط مستقيم ، دينا قيما ، ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) (٤٦) ، وقل : (أغير الله ابغي ربا وهو رب كل شيء) (٤٧) .

وما دمت عرفت فالزم وقل : (ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) (٤٨) ، فاذا حاجك اولياء الشيطان ، ودعوك الى مائدة وليهم فقل : (اسلمت وجهي لله) (٤٩) .

وبهذا يضع القلب الصافي صاحبه في اول طريق الهداية ، ويضع بين يديه مقبض النجاة ، ومفتاح السعادة ، ولن يتركه ، بل سيأخذ بيديه الى الخطوة الاخرى ، اذا طلب منه تحديد المسار ، سيقول له : انك تنظر

-
- (٤٢) الانعام - الآية ٧٩
 - (٤٣) الانعام - الآية ٧١
 - (٤٤) يونس - الآية ٣٥
 - (٤٥) الانعام - الآية ١٤
 - (٤٦) الانعام - الآية ١٦١
 - (٤٧) الانعام - الآية ١٦٤
 - (٤٨) الانعام - الآية ١٦٢
 - (٤٩) آل عمران - الآية ٢٠

حولك ، فترى الخالق قد وضع لكل مخلوق خطة يلتزم بها ، ويسير وفقها : الشمس والقمر ، والارض ببرها وبحرها ، وما فيها من حيوان وشجر ، وما ينزل عليها من مطر ، كل ذلك له قرآن يقرأه وينفذه ؛ (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الارض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) (٥٠) .

أفحسبت يا صاحبي ان تكون الوحيد بين مخلوقات الله منسيا من رحمته ، ومهملا من رعايته سبحانه ! لم ؟ وانت جزء يسير من هذا الكون الكبير ! لا بد ان لك قرآنا تقرأه ، ومنهاجا تنهجه ، وخطة تلتزمها ، فان سألت عنها فاني أنا القلب أستطيع ان اتبين لك قرآنك ، وصفاته ، وخصائصه ، من خلال قرآن الوجود الذي تراه :

انظر ، فهل ترى في خلق الرحمن من تفاوت ؟ هل ترى في صنعة الله من تناقض ؟ الا ترى اليسر والسهولة ؟ الا ترى الجمال والتناسق ؟ الا ترى الانسجام بين الذرة في أرضك والكوكب في سمائك ؟ الا ترى الاعجاز في نظام الكون ، بل في نظام اصغر المخلوقات واحقرها ، و (ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) (٥١) ، في البعوضة والذبابة ، وفي العين والاذن واللسان . هل ترى في كل ذلك من خطأ او تلف او نقص او اضطراب ؟

يا صاحبي : انظر هذه الخصائص في الكتاب الذي تبحث عنه : أين الكتاب الذي يكرم فيه الانسان ولا يهان ؟ أين الكتاب الذي تشع في صفحاته معالم النور ؟ أين الكتاب الذي يخلو من الخرص والظن ؟ أين الكتاب الطاهر من التناقض والاختلاف ؟ أين الكتاب الذي أصاب ويصيب الغيب فلا يزل ولا يخطيء ؟ ثم أين الكتاب الذي تحدى صاحبه أبطال اللسان ، وفرسان البيان ، فأعجزهم على مر الزمان ؟

(٥٠) الحج - الآية ١٨ .

(٥١) البقرة - الآية ٢٦ .

أين الكتاب الذي تحدى منزله أبناء الزمان بعرضه وطوله على أن يحرفوه ويغيروه ، وهو بين أيديهم ، وتحت سلطان مطالبهم ، فتكبلوا بقيود العجز أمام هذا التحدي ؟ ثم أين هذا الكتاب الذي صنع الابطال ؟ أين الكتاب الذي صنع الحكماء من الجاهل ؟ وأخرج الهداة من الضلال ؟ أين هذا الكتاب الذي وحد أمة مقطعة الاوصال ؟ أين هذا الكتاب الذي جرب فربى خير أمة أخرجت للناس ؟

ألم يتضح لك الامر يا سائلي ؟ ألم ينكشف لك الحجاب عن هذا الكتاب ؟ أليس هذا هو القرآن ؟ أية خصلة من خصال الكمال أخطأها هذا الفرقان ؟ اذن فهو كتابك وهو منهاجك المنزل لك من ربك سبحانه : (ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) (٥٢) . (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) (٥٣) ، وهو الذي قال فيه منزله تبارك وتعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) (٥٤) . هو الميسر المغدق في العطاء : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) (٥٥) ، هو الذي فصل فيه كل سبيل الى سعادتك ، انه مجمع الحقائق ، وتنزيل عالم الحقائق جميعا : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون) (٥٦) .

هذا هو حكم العقل للذين استرشدوا به ، وهنا يأتي أمره المنطلق من هذا الحكم العادل : يا سائلي عن الطريق ! هذا هو الدليل ، هذا هو قرآن ربك ، خذ به قوة واتل ما فيه ، تدبره ثم التزمه ، ولا تتخذ به مهجورا . وهنا أغتنم فرصتي الثالثة لاتادي العقلاء :

يا هؤلاء الذين عرفوا الداء ، وتوجهوا الى ربهم ، فمن عليهم بالدواء ، تجرعوا دواء ربكم ، خذوا ما آتاكم بقوة ، واذكروا ما

(٥٢) الاسراء - الآية ٩

(٥٣) الاسراء - الآية ٨٢

(٥٤) الاسراء - الآية ٨٨

(٥٥) القدر - الآية ١٧

(٥٦) الزمر - الآية ٢٧

فيه لعلكم تفلحون ، فان المعرفة لا تكفي في العلاج ، ألا ترون وصفة الطبيب، لا تجدي المريض، ولو حصل على ما فيها، اذا اتخذ الدواء ظهريا، ولم يتجرعه حسب الارشاد . وهذا قرآن ربكم بين أيديكم ، لا ينفعكم الا اذا تقلدتم سلاحه ، وتجرعتم دواءه ، والتزمت بأشاراته ، ولكن خذوه كلا ولا تفرقوه ولا تجعلوه عضين . احذروا ان تخلطوه بغيره من سموم اولياء ابليس ، فيبطل مفعوله فيكم ، وتنقطع بكم الطريق ، فينطبق عليكم قول ربكم : (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون) (٥٧) .

وفي هذه المرحلة من طريق الهداية ينادي القلب الطاهر المطهر من دنس الهوى ، صاحبه السائل عن الصراط المستقيم :

اني أجد ربي قد من عليك بنعمة أخرى لا تعدلها الا نعمة معرفته سبحانه : ها هو قد أرسل اليك قرآنا آخر ، قرآنا عمليا تقلده وتتأسى به ، يعلمك الكتاب والحكمة ، ويوضح لك كيف تتجرع الدواء، نقطة نقطة ، وخطوة خطوة ، (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ، ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) (٥٨) . هذا هو محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ، رسول الله اليك بالعلاج وكيفية استعماله ، الا ترى في قرآن ربك احواله صريحة على هذا الرسول ، ليوضح لك الطريق : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا) (٥٩) .

وأنت يا أخي العاقل: أناشدك الله أن تأخذ مكانك وراء هذا الرسول، وأن تسلمه نفسك ، ليزكيها وفق منهاج الله ، وان تغض بصرك

(٥٧) البقرة - الآية ٨٥

(٥٨) البقرة - الآية ١٥١

(٥٩) الاحزاب - الآية ٢١

وبصيرتك عن رسل الشيطان وكتبه ، فان (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد ، وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم ، وأصلح بالهم ، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) (٦٠) .

هذه هي معالم الصراط المستقيم في حكم العقل السليم ، حلقات من البدهيات ، كل بدئية توصل المستمسك بها الى أختها ، حتى يستقر به المطاف في نادي الرحمن ، ينتظرهم فيه مصطفىاه المحمود أحمد ، يربيهم ، ويلقنهم الاوضاع السليمة للاشياء ويفعل أمامهم ليقلدوه ويتبعوه .

وفي دوحة الرحمن الرحيم ، وفي ظلال كتابه الكريم ، وأمام أنوار رسوله العظيم عليه الصلاة والسلام ، ينعم الانسان بعناية المنان :

فيجد العقل مكانه ، ذاكر الرب ، متفكرا في ملكوته ، مؤيدا لحكمه وتشريعہ يتلقى الحقائق من خالقها ، ويغذى بالمعرفة على مائدة العليم الحكيم ، ويفطم عن الضلال الفكري والعمى والتقليد :

— ففي مدرسة الرحمن يتعلم القلب العبودية لله عز وجل ، فيتحرر من العبودية لغيره .

— وفيها يتدرب على الاخلاص لله ، فيخلصه ذلك من التكلف والرياء والنفاق .

— وفيها يتعلم الخوف والخشية من الله ، فانما يخشى الله من عباده العلماء ، فيأمن من سواه ، ويتحلى بالشجاعة والاقدام .

— وفيها يتعلم الصبر ، فلا يقتله الاسى ، ويتعلم الرضا بالقدر ، فلا يأسى على ما فات ، ولا يفرح بما أوتي ، فلا يتمزق بين الحسرة على الماضي ، والامل الكاذب .

— وفيها يتعلم الحب لله ، فينخلع من حب الآفلين من الشهوات والعباد .

– وفيها يتعلم أصل الوجود ، ومصير الوجود ، فلا يتيه في صحراء الغرص والتخمين •

– وفي هذه المدرسة يدرك الانسان هدفا يسعى اليه ، فلا يحار بين الاهداف الكاذبة والاماني الخادعة •

– وفيها يتسلم من ربه الميزان الدقيق ، فلا ينحرف في وزن القيم والناس والاشياء • فيتعلم أن الوزن عند الله هو الحق ، وأن أكرم العباد أتقاهم لله ، وأكثرهم اخلاصا له •

– وفيها يتعلم صفات الله الكريمة ، وأسماءه الحسنى ، فيكتسب من كل صفة خيرا كثيرا : فيعلم أنه الله الذي لا اله الا هو ، له الخلق والامر ، فلا يتوجه الى غيره ، ولا يفزع الا اليه في النوائب ، ولا يشعر بوحشة معه ، ولا براحة مع غيره • وأنه الملك الذي أوجد كل شيء ، وله التصرف المطلق في كل شيء ، فيغنى به ، ولا يشعر بالحاجة الى غيره سبحانه ، فلا يذل لمخلوق ، ويورثه ذلك الثقة والرجاء • وأنه السلام المؤمن ، مصدر السلامة والامن ، فيطمئن ويسكن ويأمن ولا يخاف سواه • وأنه العزيز الجبار المهيمن الذي لا نظير له ، ولا غالب له ، فيورثه هذا العلم خوفا من الله ، ومراقبة له ، فيعتدل وينضبط ، وأنه الغفور الغفار ، فلا يتمزق حسرة على ما سبق منه ، حيث يلحق أن (من يعمل سوءا أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله ، يجد الله غفورا رحیما) (٦١) • وانه المعز المذل الخافض الرافع ، ينزل – اذا شاء – العتاة المتكبرين منازل الذل والهوان : (ومن يهن الله فما له من مكرم) (٦٢) ، ويهب الدرجات العلا لمن يشاء من عباده ، وينصر أعباءه ، ويرفع أقدارهم • فيستفيد من ذلك خشية الله وخفض الجناح للمؤمنين ، ويزداد تواضعا لله واستعلاء على الكفار والطفاة وما يمكرون •

(٦١) النساء – الآية ١١٠ •

(٦٢) الحج – الآية ١٨ •

— وفي ظلال هذه المدرسة الربانية يجنب العقل كل ما يناقضه ، ويستحيل في حكمه ، فلا يذل ولا يخزي ، ولا يضر ، ولا يستعبد للغريزة والهوى . نعم قد يلحق مالا يدرك فيه أبعاد المصلحة في الحال ، وان كان سيدركها في المآل . وقد يخبر بما لا يستطيع ادراكه بنفسه من المغيبات ، والمصير الذي سيؤول اليه الانسان ، والعالم الآخر ، وما فيه من موجودات ربانية ، من النعم للمهتدين ، ومن النقم للغاوين ، ولا ضير عليه في ذلك ، ولا حيف عليه ولا ظلم ، لانه يعلم أن مخبره هو العليم اللطيف الخبير . وهذه قضية اقتنع بها ، ولم يجد فيها اي تناقض ، بل يحكم بالتناقض في مخالفتها : فكم قبل العقل اخبار المختصين بما يتعلق باختصاصاتهم . ألم يصدق الطبيب في تشخيصه ، نزولا عند ثقته بعلمه في هذا المجال ؟ ألم يسترشد بالمهندس فيما يشير عليه ، نزولا عند ثقته بعلمه في هذا المجال ؟ ألم يصدق الدليل في الصحراء نزولا عند ثقته بخبرته فيها ؟ فماذا عليه لو صدق اللطيف الخبير فيما يخبره عما خلق ؟ وماذا عليه لو آمن بملائكته وكتبه ورسله ، وجنته وناره ، وقدره وقضائه خيره وشره ؟ ماذا على العقل لو آمن بما يخبره ربه الذي (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض) (٦٣) ، أليس من التناقض القاتل للعقل أن يقال : هذا عالم في الطب او الهندسة او الفلك أو اللغة أو أي نوع من أنواع العلوم ، ثم يقال : فاذا أخبركم بما هو عالم فيه فلا تصدقوه ، ولا تأخذوا بقوله ؟ أليس من التناقض والجهل اذن أن يقال : هذا رب السموات والارض وسع علمه كل شيء ، ثم لا يصدق ولا يحكم ؟

هذه بدهيات أعرض عنها كثير من الناس في هذه الايام : ألم نسمع بعض المضللين يلومون المؤمنين أنهم ما زالوا يصدقون بالمغيبات : بالجنة والنار والجن والملائكة والشيطان وعذاب القبر ، وغير ذلك مما أخبرنا عنه أصدق الصادقين ، مدعين أننا في القرن العشرين ،

وكان الحقائق تتبدل بتبدل الازمان ، وما علموا ان النفوس هي التي تهزل وتنتكس ، وان الحق حق في كل زمان ومكان . ألم يأتنا خبر المهزومين أمام خبث الخبثاء ، وكيد الكائدين للانسان : اولئك الذين تأولوا كل هذه المغيبات خوفا من اخراجهم من القرن العشرين ، وخجلا من أن ينسبوا الى القرن السابع والثامن ! اولئك الذين أحسنوا الظن بأولياء الشيطان ، وأساءوا الظن بالعليم العلام ، فصدقوا الخراصين. الذين هم في غمرة ساهون ، وكذبوا صاحب اليقين . وان لهم شيئا بأولئك المنافقين الذين قال فيهم رب العالمين : (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا) (٦٤) .

وكما أن العقل يجد مكانه المناسب في هذا النادي الرباني ، فان الغرائز أيضا تجد مكانها الملائم لها ، فتسير لما خلقت له من خدمة العقل وعونه على القيام بوظيفته المفطور عليها في الدلالة على ربه : تطعم بقدر مقدور ، حتى لا تموت ولا تبور ، وتحرم من التماذي والتفريط ، حتى لا يصيبها الغرور .

وسوف تجد الحواس والجوارح مكانها أيضا ، جنودا تنفذ خطة الله الحكيمة ، مدعومة بتشجيعات القلب السليم .

هذا وان تفصيل خطة الرحمن في تربية الانسان لهو الامر الذي تنزل به الفرقان ، وبعث به المصطفى عليه الصلاة والسلام . انه رسالة الاسلام بكل ما فيها من احاطة وشمول ، وانما ذكرنا بعض معالم الطريق في خلاص الانسان من براثن الشيطان .

وهكذا فان طريق الحق بين ، وصوته واضح ، مهما حاول أسارى الهوى تعميته والتشويش عليه ، بضجيج الغرائز والشهوات . انه يقود العقلاء الى باب الرحمة الربانية . نعم ان الطريق اليه في هذا الزمان ،

الذي استشرى فيه أمر الشيطان محفوف بالمكاره، ولكننا لسنا بمعدورين: ألا ترى لو أن أحدنا كان يعلم طريقين: أحدهما سهل ميسور، معبد مفروش بالورود، ولكنه يقود الى النار • وآخر مهجور، في سلوكه بعض مشقة، ولكنه يقود الى جنة لا تعاسة فيها ولا شقاء • أكنّا تاركيه؟

نعم، لن يتركنا الشيطان وأولياؤه، ولكن يتركوا ركب الهدى يسير بهدوء، بل سيرموه بسهام الترغيب بأشكال الشهوات والمثيرات، وسهام الترهيب والتخويف والسخرية والاستهزاء، وانما يعيننا على مواصلة السير الى الله وقهر الشيطان ما يلي:

أولا: أن نعزم على التغيير، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فلا بد من تغيير المسار، بحيث ندير الظهور الى الشيطان وبضاعته وأساليبه، ونتخذ عدوا كما قال لنا ربنا: (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) (٦٥)، ثم نتوجه الى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام •

ثانيا: أن نوثق صلتنا بالخالق، بالاكثار من عبادته وذكره، والتفكر في خلقه، ودعائه، والاخلاص له في أعمالنا وأقوالنا وأحوالنا •

ثالثا: أن نتعرف على مناهج الله في قرآنه بنية التداوي بدوائه، واتخاذ أسلحته للوقاية من الشيطان وجنده •

رابعا: أن نأخذ مكاننا وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونهرع الى سنته الصحيحة •

خامسا: أن نتخذ موقفا ايجابيا في جانب الحق، ولا نقف على الحياد، فإن هذه الحياة بحر متلاطم الامواج، متزاحم التيارات، لا يستطيع الانسان فيها أن يستقر في المكان الذي يريده، ويثبت على ما آمن به، ان ثم يدافع، ويجاهد، ويهاجم، ويصنع تياره بيديه، قال تعالى: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) (٦٦) • فيجب علينا

(٦٥) فاطر - الآية ٦

(٦٦) البقرة - الآية ٢٥١

ان ندعو الى الله ، ونبين للضالين سوء خاتمتهم • وان نلمس مواقع الالم في نفوسهم ، وكيد الشيطان بهم ، وندلهم على الطريق الذي هدانا اليه ربنا ، وفي أثناء ذلك يجب علينا أن ندخر في قلوبنا الكره للمنكر ، والحق على الكفر والفسوق والعصيان فان ذلك آخر حدود الايمان ، كما بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم •

سادسا : أن يبحث كل مؤمن عزم على تغيير مساره الى الله وجهاد الشيطان وأوليائه عن اخوانه ، لنسير الى الله مجتمعين ، ونخطط في سبيله ، متفقين ، وننسق متآلفين : فان الطريق واحدة ، والوسائل واحدة ، والهدف واحد ، وان القوة في التآلف ، والضعف ، والفشل في التنازع والاختلاف •

سابعا : ان نحمل في قلوبنا ميزان الله في تقويم الناس والافكار والاشياء ، فنرفع ما رفع الله ومن رفع ، ونخفض من خفض الله ، ونحب ما أحب الله ، ونبغض ما أبغض الله ، ننظر بمنظار الله ، ونقيس بمقياسه ، ونرى بما علمنا سبحانه : (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد) (٦٧) • نسبح ربنا يقول : (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) (٦٨) ، ويقول : (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) (٦٩) ، فنحكم كما حكم سبحانه بخيرية المؤمنين ، وشرية المشركين ، ونسمعه يقرر : (قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة) (٧٠) ، فنستمسك بالخير الذي دل عليه ونستعفف عن الشر الذي حذر منه ، ونسمعه يقول : (فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) (٧١) فنخلع عنا عبادة الشهوة والهوى ،

(٦٧) سبا - الآية ٦ •
(٦٨) البقرة - الآية ٢٢١ •
(٦٩) البقرة - الآية ٢٢١ •
(٧٠) الجمعة - الآية ١١ •
(٧١) الشورى - الآية ٣٦ •

ونهرع الى ما عند الله سبحانه ، ونسمعه ينادينا : (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم : تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) (٧٢) ، فتنافس في تجارة الله من ايمان وجهاد ودعوة الى دينه ، ونسمعه يقول : (ان الظن لا يغني من الحق شيئا) (٧٣) ، فرفض بشدة خرص الخراصين ، ونظريات المضللين ، ونتمسك بالحق المبين • ونسمعه يعلمنا : (لا يغررك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) (٧٤) ، فلا تنبهر قلوبنا بتقلب الذين كفروا في البلاد ، ولا بجمعهم ولا بزينتهم • ونسمع مثل الله الذي ضربه لنا : (وضرب الله مثلا رجلين : أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ، وهو كل على مولاه ، اينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم) (٧٥) ، فنقرب من قلوبنا الدعاة الى الله ، وننزع منها حب اولئك الصم البكم الذين لا يعقلون •

(٧٢) الصفه - الآيتان - ١٠ ، ١١

(٧٣) يونس - الآية ٣٦ •

(٧٤) آل عمران - الآيتان ١٩٦ ، ١٩٧ •

(٧٥) النحل - الآية ٧٦ •

المبحث الثالث

في

جهاد الكفار

هذا هو النوع الثالث من انواع الجهاد ، بالنظر الى الاعداء الذين يبتغون انحراف الانسان عن طريق الله عز وجل ، وهو جهاد الكفار .

والكفار أصناف من البشر ، استحوذ عليهم الشيطان ، وتملكهم الهوى ، انجرفوا في تيار التقليد الاعمى ، فكذبوا بآيات الله ، وكذبوا رسله سبحانه ، واستنكفوا عن عبادته ، والخضوع له في أحكامه ومناهجه التي نزلها للناس ، وعبدوا غيره سبحانه وتعالى ، أو أشركوا معه غيره في العبادة ، واتخذوا لانفسهم أحكاما ومناهج وقيما وأخلاقا بعيدة عن أحكام الله وتشريعاته . وكثير منهم انتظم في تجمعات ، وأقاموا حياتهم كلها من فكرية وسياسية واقتصادية وأخلاقية وغيرها ، على هذا الكفر .

والكفار لا يقفون من المسلمين موقفا مسالما ، ولا يتركونهم يحققون مقتضى ايمانهم في الحياة ، أو يوصلون كلمة الله الى خلقه . وانما يقفون منهم موقف العداء ، ويصدون عن سبيل الله عز وجل .

هذه حقيقة أخبرنا بها الله سبحانه وتعالى ، وهو أعلم بخلقهم ، قال تعالى (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا) (١) . فانظر الى قوله تعالى (ولا يزالون) مما يدل على أن العدوان طبيعة فيهم ، وليس مجرد امر عارض . وكذلك قوله تعالى : (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) (٢) ، وقوله تعالى : (ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون

(١) البقرة - الآية ٢١٧ .

(٢) البقرة - الآية ١٠٥ .

سواء^(٣)) ، وقوله تعالى عن أهل الكتاب : (ولن ترضى عنك اليهود ولا
النصارى حتى تتبع ملتهم)^(٤) .

فهذه الآيات وغيرها تقرر حقيقة نوايا الكفار تجاه المؤمنين ، وهي
الكره والحقد ، ومحاولة تحويلهم عن طريق الهدى ، الذي هداهم اليه
ربهم ، وتمني زوال النعمة عنهم . وكم أبرزت الآيات الكريمة هذه
الصفة في الكفار ، صفة الصد عن سبيل الله عز وجل ، من ذلك قوله
تبارك وتعالى : (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل
الله ، فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون ، والذين كفروا
الى جهنم يحشرون)^(٥) ، وقال تعالى : (بل زين للذين كفروا مكرهم
وصدوا عن السبيل)^(٦) ، وقال تعالى : (أن لعنة الله على الظالمين ، الذين
يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا)^(٧) .

كما أن هذه الحقيقة نتيجة طبيعية لحقيقة أخرى تقدم ذكرها ،
وهي أن الكفر غالبا ما يكون ناتجا عن اتباع الهوى ، والاستسلام للشهوات .
ودعوة الله في الارض تبتغي الحد من هذه الشهوات والاهواء ، لانها
أصل الفساد . فالكفار يعلمون خطر هذه الدعوة الربانية عليهم ، وعلى
مكاسبهم ، فيقفون منها موقف العداء ، للحفاظ على تلك الشهوات التي
استسلموا لها بتزيين الشياطين .

لهذا كان جهاد الكفار فرضا على المؤمنين ، وضرورة حتمية ،
للمحافظة على بذرة الايمان في قلوب أصحابها ، وايصال دعوة الله الى
خلقه .

(٣) النساء - الآية ٨٩ .

(٤) البقرة - الآية ١٢٠ .

(٥) الانفال - الآية ٣٦ .

(٦) الرعد - الآية ٣٣ .

(٧) الاعراف - الآيتان ٤٤ ، ٤٥ .

كيف يكون جهاد الكفار :

وأما كيفية جهاد الكفار ، فلتوضيحها لا بد من التفريق بين وضعين اثنين :

الوضع الاول : وذلك عندما لا يكون للمؤمنين سلطان مادي في الارض ، والجاهلية عامة طامة ، والسلطان المادي بيد أعداء الله وأعداء الاسلام ، يحكمون بغير منهج الله ويشرعون مالم يأذن به الله ، ويوجهون الناس بعيدا عن الله وما رضىه للعباد من الاحكام والقيم والاخلاق .

ففي هذه الحال يكون جهاد الكفار بدعوتهم الى دين الله عز وجل : فيكون فرض عين على كل مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ان يشارك في جهاد الكفار بدعوتهم الى دين الحق ، وبيان فساد عقائدهم ومناهجهم ، وبيان مخاطر ما هم فيه من البعد عن منهج الخالق : في الدنيا من الظلم والفساد ، وفي الآخرة من العذاب والهوان .

الا أن هذا الامر يبدأ بأن تقوم طليعة من المؤمنين اولي العزم^(٨) بالتجمع والتنظيم ، ودعوة غيرهم الى الانضمام اليهم ، ودعوة الناس الى خلع الكفر عن انفسهم ، والدخول في دين الله ، والمشاركة في عملية البعث الاسلامي . وفي خلال ذلك تربي هذه الطليعة المؤمنة نفسها وتصوغ حياتها كلها وفق المنهج الرباني المفصل في كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وسنة المهديين الراشدين من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام . وتتميز بأخلاقتها وقيمها وعقيدتها واسلوب حياتها عن الكفار والجاهليين . وتواجه الفتن والابتلاءات بالصبر والثبات حتى ينتفي خبثها ويبقى طيبها . فاذا وصلت الى الحد الذي يرضي الله سبحانه ، وأنفقت من نفسها وجهدها ووقتها ومالها ما يصلح ان يكون مهرا للنصر والتمكين في الارض في ميزان الله ، فان الله وعدها - ومن أوفى بعهده من الله - أن ينصرها ويمكن لها ، فقد قال عز وجل : (ولينصرن الله من ينصره ، ان الله

(٨) انظر صفات هذه الطليعة وخصائصها ومعالم طريقها في كتاب « معالم في الطريق » لسيد قطب رحمه الله تعالى في مبحث « جيل قرآني فريد » وغيره .

لقوي عزيز) (٩) ، وقال : (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) (١٠) . فهذا ثمن النصر والتمكين في الارض للمؤمنين ، ان ينصروا الله في ذوات نفوسهم بمجاهدة الشيطان والهوى ، واخضاعها لامر الله تعالى ، وان ينصروا الله في واقع الحياة بجهاد الكفار من أجل تحكيم شريعة الله في الارض ، يقول سيد قطب رحمه الله تعالى : (ان الله في نفوسهم ان تتجرد له ، والا تشرك به شيئا ، شركا ظاهرا او خفيا ، وألا تستبقي فيها معه أحدا ولا شيئا ، وأن يكون الله أحب اليها من ذاتها ، ومن كل ما تحب وتهوى . وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها ، وسرها وعلاقتها ، ونشاطها كله وخلجاتها . وهذا نصر الله في ذوات النفوس . وان الله شريعة ومنهاجا للحياة تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة ، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء ، فهذا نصر الله في واقع الحياة) (١١) .

فاذا كان ذلك من الفئة المؤمنة ، ونصرها الله على أعدائها ، دخلت في مرحلة جديدة ووضع جديد ، وكلفت تكاليف جديدة ، حيث زادت امكانياتها وقدراتها ، فيفرض عليها تغيير أسلوبها في جهاد الكفار بما يتفق مع هذه النعمة الربانية .

الوضع الثاني : وذلك عندما يكافيء الله تلك الطليعة الصابرة بالنصر والتمكين ، فتأخذ زمام السلطان والتوجيه من يد الكفار ، ويمن الله عليها بالمنعة والقوة المادية ، ويكون لها دولة في الارض ، يكون جهاد الكفار المفروض عليها عندئذ بالدعوة المدعومة بالسلاح والقوة ، واستعمال هذه القوة عند امتناع الكفار عن تحقيق مطالب الدعوة الاسلامية :

(٩) الحج - الآية ٤٠ .

(١٠) محمد - الآية ٧ .

(١١) في ظلال القرآن - المجلد السابع ، ص ٤٥١ .

أما بالدخول في دين الله ، والانضمام الى ركب الهدى ، وأما بالتخلي عن القيادة والتوجيه للمؤمنين ، وترك الصد عن سبيل الله ، والظلم والعدوان ، وسياسة الناس بغير ما أنزل الله من الاحكام العادلة . ويكون ذلك بالدخول في ذمة المسلمين ، والانصياع لاحكام الاسلام المتعلقة بأمور الدنيا . فان لم يقبلوا بأحد هذين الامرين ، وجب على المؤمنين أن يقاتلوهم بالرجال والسلاح الى ان تكسر شوكتهم ، ويوضع حد لشرهم وصدهم .

الا انه في مبدأ الدولة الاسلامية قد لا يتيسر لها من القوة ما يمكنها من الشروع في مقاتلة الكفار بعد امتناعهم من الاسلام ، فيكون الواجب على جماعة المسلمين عندئذ دفع العدوان وردده وعدم تمكين الكفار من النيل من المسلمين .

فاذا نمت قوة المسلمين بفضل الله ، بعد اتخاذ الاسباب التي أمر الله بها ، كان فرضا على أمة الاسلام أن تقاتل جميع الكفار ، مبتدئة بأئمتهم وأشدهم خطرا ، بعد دعوتهم الى الاسلام او الانخراط في ذمة المسلمين وعهدهم ، وامتناعهم عن احد هذين المطلبين ، ويكون جهادهم وقتالهم وفق نظام رباني محدد في أهدافه ومبادئه واجراءاته .

دليل ما تقدم :

ويدل على ما تقدم من كيفية جهاد الكفار وأوضاعه ومراحله سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام من أول بعثته الى أن توفاه ربه . فقد اتبع عليه الصلاة والسلام في جهادهم خطة موحى بها من عند الله ، فنفذها والتزم في تنفيذها في جميع مراحلها وأوامر الله ومنهجه . وقد كانت هذه الخطة على النحو التالي (١٢) :

(١٢) انظر : زاد المعاد في هدى خير العباد ج ٢ ص ٨١ ، المبسوط للرخسي ج ١٠ ص ٢ ، ٣ ، مغني المحتاج للخطيب الشربيني ج ٤ ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١١٤ ، حاشية ابن عابدين ج ٣ ص ٣٠٢ ، شرح العناية على الهداية ج ٤ ص ٢٨٢ ، حاشية الصاوي على الشرح الصغير ج ٢ ص ٢٦٧ . آيات الجهاد في القرآن ص ١٩٣ وما بعدها و ص ٢٠٨ وما بعدها .

١ - مرحلة التربية والاعداد العقائدي والفكري والإخلاقي ،
والجهاد بالدعوة والبيان : وقد استغرقت هذه المرحلة جميع الفترة
التي قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة بعد بعثته عليه الصلاة
والسلام ، وقبل هجرته الى المدينة المنورة .

وقد ابتدأت بنبوّة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، حيث أوحى
له ربه بقوله : (اقرأ باسم ربك الذي خلق) (١٣) ، فأمره عز وجل أن
يقرأ في نفسه ، ولم يأمره آنذاك بتبليغ (١٤) .

وفي مبدأ البعثة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه
بتربية أنفسهم بالعبادة المتصلة ، والتفكير في عظمة الله وجلاله ، وأخذ
النفوس على الخضوع له وتوطينها على الصبر ، واعدادها للحمل الثقيل ،
حتى كان قيام الليل في مبدأ الدعوة فرضا على الرسول ومن آمن معه (١٥) ،
قال تعالى : (يا أيها المزمل ، قم الليل الا قليلا نصفه او انقص منه
قليلا ، أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، انا سنلقي عليك قولا ثقيلا
ان ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا ، ان لك في النهار سبعا طويلا ،
واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب ، لا اله الا
هو فاتخذه وكيلا . واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) (١٦) .

فامتثل عليه الصلاة والسلام وطائفة من الذين آمنوا معه ، حيث
أخبر عنهم سبحانه وتعالى بقوله : (ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من
ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) (١٧) .

وبعد ذلك أمره الله عز وجل بأن يجاهد بالدعوة والانذار ، فقال
تعالى : (يا أيها المدثر ، قم فأنذر) (١٨) وان يبدأ بعشيرته الاقربين ،

(١٣) الملق - الآية ١ .

(١٤) زاد المعاد ج ٢ ص ٨١ .

(١٥) انظر : احكام القرآن للجصاص ج ٣ ص ٥٧٦ . سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٧٥ . السيامة الشرعية

لابن تيمية ص ١١٤ .

(١٦) المزمل - الآيات ١ - ١٠ .

(١٧) المزمل - الآية ٢٠ .

(١٨) المدثر - الآيتان ١ ، ٢ .

قال عز وجل : (وأنذر عشيرتك الاقربين) (١٩) ، ثم بالعرب ، ثم بالناس جميعا .

فقام عليه الصلاة والسلام وصحابته يندرون ويبشرون ويصبرون على ما يلاقون من الاذى ، وظل عليه السلام يندب بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح طوال بضع عشرة سنة . وفي خلال ذلك كان عليه الصلاة والسلام ومن معه من الصحابة يتعهدون أنفسهم بتوثيق الصلة بالله ، وجهادها والزامها بالصبر وتطهيرها من أدران الجاهلية وأخلاقها (٢٠) .

وفي هذه المرحلة كان الدعاة مأمورين بالكف عن القتال واستعمال السيف (٢١) كما أشار الله اليه فيما بعد . حيث قال تعالى في سورة النساء : (ألم تر الى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم) (٢٢) .

وفي الوقت نفسه كان القرآن الكريم يربي هذه الفئة المؤمنة على ضبط النفس والصبر والثبات أمام ما يلاقون من الاذى والفتنة ، ويأمرهم بذلك ، من ذلك قوله تعالى : (فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) (٢٣) ، وقوله تعالى : (واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون) (٢٤) ، وقوله تعالى : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار) (٢٥) . وكان ينهاهم عن مقابلة العدوان بمثله ، ويأمرهم بالصفح والاعراض عن

(١٩) الشعراء - ٢١٤ .

(٢٠) انظر : الجهاد في الاسلام - محمد شديد ص ٣ - ٦ ، والفصل الاول من هذا الكتاب بيان واسع لما كان في هذه المرحلة من جهاد بالدعوة والبيان . والتربية للخلق والوجدان ، واقامة الاسس الاخلاقية في نفوس المؤمنين .

(٢١) انظر حاشية الصاوي على الشرح الصغير ج ٢ ص ٢٦٧ . آيات الجهاد ص ١٩٨ ، احكام القرآن لابن العربي - القسم الثالث ص ١٢٨٥ .

(٢٢) النساء - الآية ٧٧ .

(٢٣) الروم - الآية ٦٠ .

(٢٤) النحل - الآية ١٢٧ .

(٢٥) الاحقاف - الآية ٣٥ .

المشركين ، من ذلك : قوله تعالى : (فاصفح الصفح الجميل) (٢٦) ،
وقوله : (وأعرض عن المشركين) (٢٧) ، وقوله : (وأعرض عن
الجاهلين) (٢٨) .

ولكنهم كانوا في هذه المرحلة مأمورين بان يتميزوا عن الكفار في
عقيدتهم وأخلاقهم وأفكارهم ، حيث أمروا بعبادة الله وحده . وترك
عبادة الاوثان والاخلاق المتفرعة عنها ، يوضح ذلك نداء الله تعالى لقائد
الدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قل : يا أيها الكافرون لا أعبد
ما تعبدون) (٢٩) وكذلك مواقف الرسول عليه الصلاة والسلام من
مساومات المشركين ومطالبهم .

واذا كان الدعاة في مكة قد نهوا عن استعمال السيف والسنان في
مقابلة العدوان ، فانهم كانوا مأمورين بمجاهدة الكفار بالعلم الذي
استقوه من القرآن ، والحجة والبيان (٣٠) . قال عز وجل : (فلا تطع
الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا) (٣١) . وهذه آية من سورة الفرقان ،
وهي مكية ، والمقصود : جاهدهم بما في القرآن من حق وفرقان وتفنيد
لما هم عليه من العقائد الباطلة ، والقيم الهابطة .

وهكذا فقد كانت هذه المرحلة اولى مراحل الجهاد . خاضت فيها
الجماعة المؤمنة معارك قاسية ضد العقائد الفاسدة . والاخلاق والقيم
والموازين الجاهلية وشهوات النفس ونوازعها . وهي معارك أشد في
حقيقتها من معارك السيوف والرماح ، وقد كان لا بد من الانطلاق
منها ، لانها كالاساس للمراحل الاخرى ، ولا يقوم بناء بغير أساس .

٢ - مرحلة التميز المادي (الهجرة الى المدينة) : وكانت هذه
مقدمة لمرحلة أخرى يباح فيها استعمال القوة المادية والعنف مع اعداء

(٢٦) الحجر - الآية ٨٥ .

(٢٧) الانعام - الآية ١٠٦ .

(٢٨) الاعراف - الآية ١٩٩ .

(٢٩) الكافرون - الآيتان ١ ، ٢ .

(٣٠) مجموع الفتاوى لابن تيمية - المجلد ٢٨ ص ٣٨ . احكام القرآن لاسن العربي القسم الثالث ص ١٢٨٤ .

(٣١) الفرقان - الآية ٥٢ .

الدعوة • وكان لا بد منها ليتخذ المؤمنون الوضع المناسب للذود عن أنفسهم ودعوتهم ، وكانت الظروف المادية والمعنوية في المدينة أكثر تحقيقا لمثل هذا الوضع •

ولم تكن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته من مكة فرارا وهروبا كما اصطلاح عليه المبشرون والمترجمون للسيرة النبوية في لغات الغرب (٣٢) ، ولم تكن اعتزالا أو ردة فعل لما لاقاه النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته من أذى الكفار وصدودهم ، وانما كانت تنفيذا لخطه ربانية موحى بها من عند الله عز وجل هدفها كسر شوكة الكفار وازالة العقبات من وجه الدعوة •

فإنه سبحانه وتعالى أوحى لرسوله بالهجرة ، فدبر عليه الصلاة والسلام أمر الهجرة لأصحابه تحقيقا لهذا الأمر الرباني ، ومن أجل أن يصبحوا مؤهلين للتكليف الجديد بتغيير أسلوب مواجهة الكفار من مجرد الدعوة بالحجة والبرهان الى قتالهم ورد عدوانهم ، ولذلك نزلت الآيات الكريمة تبارك هذا العمل وتثني على المهاجرين وتنعى على المتقاعسين ، من ذلك قوله تعالى : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون) (٣٣) ، وقوله عز وجل : (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما) (٣٤) ، ومن جهة أخرى توعدهم الله الذين رغبوا عن الهجرة ورضوا بالذل والبقاء في مكة فقال عز وجل : (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض • قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) (٣٥) وكذلك نهى سبحانه عن موالة المؤمنين الذين

(٣٢) انظر : آيات الجهاد ص ٢٠٦ •

(٣٣) الحشر - الآية ٨ •

(٣٤) النساء - الآية ١٠٠ •

(٣٥) النساء - الآية ٩٧ •

لم يهاجروا فقال : (والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا) (٢٦) .

ومما يدل على أن الهجرة لم تكن هروبا ولا فرارا ، وانما مرحلة في طريق الجهاد ، ذلك الموقف الذي وقفته قريش منها ، فانها بذلت قصارى جهدها لتحول دون هجرة الرسول وصحابته ، وتامروا على قتله صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : (واذا يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) (٢٧) . قال ابن اسحق : (ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم ، عرفوا انهم قد نزلوا دارا ، وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم ، وعرفوا انه قد اجمع لحربهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة — وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرا الا فيها — يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين خافوه) ، فاقترح بعضهم حبسه في الحديد ، واقترح بعضهم نفيه ، الى أن قال أبو جهل ابن هشام : (والله ان لي فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابا فتى جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطي كل فتى سيفا صارما ، ثم يعمدوا اليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ونستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل (٢٨) ، ففعلناه لهم) (٢٩) ، فتفرقوا وهم مجمعون على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢٦) الانفال — الآية ٧٢ .

(٢٧) الانفال — الآية ٣٠ .

(٢٨) العقل : الدية .

(٢٩) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٣ ، ٩٤ .

فانظر كم كانت قريش متخوفة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته . حتى أجمعت . لأول مرة على قتله عليه السلام ، وكانت من قبل تؤذيه بأساليب أخرى غير القتل . فلما أفلت منها بعناية الله عز وجل طاردته عليه الصلاة والسلام ، وحاولت اعادته الى مكة ، ومنعه من اتمام ما عزم عليه من الهجرة الى المدينة ، ولكن الله متمم نوره ولو كره الكافرون . فنجاه هو وصاحبه منهم ، كما سجل ذلك القرآن الكريم حيث قال تعالى : (الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار . اذ يقول لصاحبه : لا تحزن ان الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم) (٤٠) .

كذلك حاولت قريش أن ترد كل من استطاعت رده من المؤمنين الى مكة لتفتنه عن دينه . حتى كانت تفرق بين المرء وزوجه ، وبين الام ووليدها ، من ذلك ما رواه ابن اسحق عن أم سلمة أنها قالت : (لما أجمع ابو سلمة الخروج الى المدينة رحل لي بعيه ، ثم حملني عليه ، وحول معي ابني سلمة في حجري ، ثم خرج بي يقود بي بعيه ، فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا اليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذوني منه . قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الاسد رهط أبي سلمة ، قالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا ، قالت : فتجازبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الاسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي ابو سلمة الى المدينة ، قالت : ففرقوا بيني وبين زوجي وبين ابني (٤١) .

٣ - مرحلة الدفاع المباح بالقوة المادية : وفي هذه المرحلة أباح الله عز وجل للدعاة أن يستعملوا السلاح والقوة المادية في دفع أذى

(٤٠) النوبة - الآية ٤٠ .

(٤١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٧٧ ، ٧٦ ، الام ج ٤ ص ٨٣ ، تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٥ .

المشركين ، ولم يوجب القتال عليهم ايجابا . وانما تركه لظروفهم وامكاناتهم ، فان رأوا انهم يستطيعون مقابلة القوة بالقوة والسلاح بالسلاح فعلوا والله معهم ، والا فلهم أن يصبروا حتى يغدو بإمكانهم ذلك .

وقد كانت بداية هذه المرحلة بنزول قوله تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، الا ان يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز . الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الامور) (٤٢) .

وكان نزول هذه الآيات الكريمة بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته الى المدينة المنورة ، في أوائل العهد المدني على القول الراجح (٤٣) . قال ابن قيم الجوزية في زاد المعاد : (فلما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأيده الله بنصره وبعباده المؤمنين وألف بين قلوبهم بعد العداوة والاحن التي كانت بينهم ، فمنعته انصار الله وكتيبة الاسلام من الاسود والاحمر ، وبذلوا نفوسهم دونه ، وقدموا محبته على محبة الآباء والابناء والازواج ، وكان اولى بهم من انفسهم رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة ، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كل جانب ، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح ، حتى قويت الشوكة ، واشتد الجناح ، فأذن لهم حينئذ في القتال ، ولم يفرضه عليهم فقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » (٤٤) .

(٤٢) الحج - الآيات ٣٩ - ٤١ .

(٤٣) زاد المعاد ج ٢ ص ٥٨ ، السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١١٤ ، آيات الجهاد ، ص ٢١٠ ، الشرع الدولي

في الاسلام لنجيب ارمنازي ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٤٤) زاد المعاد ج ٢ ص ٥٨ .

ويرى طائفة من العلماء ان هذا الاذن بالقتال كان في أواخر العهد المكي (٤٥) وان الهجرة جاءت بعد نزول الآيات السابقة ، لتمهد للجماعة المسلمة السبيل لتنفيذ ذلك الاذن . جاء في سيرة ابن هشام : (قال ابن اسحق : فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في الحرب ، وتابعه هذا الحي من الانصار على الاسلام والنصرة له ولمن اتبعه ، واوى اليهم من المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج الى المدينة ، والهجرة اليها ، والالحوق باخوانهم من الانصار . وقال : ان الله عز وجل قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها . فخرجوا أرسالا ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة ، والهجرة الى المدينة ...) (٤٦) .

هذا وقد رجح ابن القيم القول الاول بعدة قرائن منها (٤٧) :

أ - أن الله لم يأذن بمكة للمسلمين بالقتال ، حيث لم يكن لهم شوكة يتمكنون بها من القتال .

ب - أن سياق الآية يدل على أن الاذن بعد الهجرة واخراجهم من ديارهم ، فانه قال : (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق) ، وهؤلاء هم المهاجرون .

ج - أن الحاكم روى في مستدركه عن ابن عباس قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، قال ابو بكر : أخرجوا نبيهم ، انا لله وانا اليه راجعون ليهلكن ، فأنزل الله عز وجل « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » وهي أول آية نزلت في القتال ، واسناده على شرط الصحيحين .

(٤٥) زاد المعاد ج ٢ ص ٥٨ .

(٤٦) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٧٦ .

(٤٧) زاد المعاد ج ٢ ص ٥٨ .

ويرى الامام الشافعي رحمه الله تعالى في ترتيب مشروعية الهجرة ومشروعية القتال أن المسلمين في مكة ظلوا فترة من اول البعثة يستضعفين ، لم يؤذن لهم بهجرة ولا قتال ، ثم اذن الله لهم بالهجرة ، وأباحها لهم ولم يفرضها عليهم ، فهاجرت طائفة الى بلاد الحبشة ، ثم اذن الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى المدينة ، ثم كانت اباحة القتال للدفاع ، ثم فرضت الهجرة فرضا على من قدر عليها ممن بقي في مكة ، ثم أصبح القتال فرضا على المسلمين (٤٨) .

وعلى أية حال ، وسواء كان الاذن بالهجرة قبل الاذن بالقتال ، او كان الاذن بالقتال قبل الاذن بالهجرة ، او كان الاذن بهما معا ، فانه يستفاد من مجموع حوادث السيرة في هذه المرحلة وسابقتها ان الطليعة المؤمنة ، اذا غدت في مستوى من القوة في دينها وصلتها بريها وتفانيها من أجل دعوته سبحانه ، ومثانة رابطة الايمان فيما بين افرادها ، وجب عليها أن تحاول ايجاد قاعدة لها ، وتتميز عن الكفار في بقعة من أرض الله عز وجل ، تكون مناسبة — في تقدير أهل الحل والعقد فيها — من النواحي المادية والمعنوية ، لولادة الدولة الاسلامية . وان تبدأ من هذه اللحظة ، لحظة العزم على ايجاد القاعدة ، باعداد السلاح واصناف القوة ، وتستمر في تربية عناصرها وفق منهج الله ، لتدافع عن نفسها ودعوتها . فاذا قدر الله لها النجاح في بناء تلك القاعدة وجب على كل مؤمن في أقطار الارض أن يهاجر اليها ، ويضع قدراته كلها في سبيل الله ودعوته . ثم تتدرج في البناء والاعداد لتكمل مسيرتها في جهاد الكفار ونصرة دين الله في الارض .

هذا وقد كانت السياسة الربانية في هذه المرحلة تفرض على الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين الاهتمام بقاعدتهم التي من الله عليهم بها في المدينة وتقويتها من الداخل . ببناء الرجال ، وتوثيق رابطتهم ، والقضاء على الخلافات ، وعقد المعاهدات من أجل التمكن من الاعداد .

اما استعمال السلاح . فلم يعد في هذه المرحلة منهيها عنه كما كان الأمر في مكة . وانما ابيح اباحة . ولم يفرض فرضا^(٤٩) وخص بالدفاع عن النفس ومواجهة المعتدين من الكفار دون المسلمين . ويدل على ذلك قوله تعالى : (اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا . . .) فان هذا من أساليب الاباحة . وليس من أساليب الايجاب^(٥٠) . كما ان الآية تعلل هذا الاذن بما وقع من الكفار من الاعتداء على المسلمين وظلمهم ، فيفهم منها أن المباح في أول قيام دولة الاسلام هو مقابلة العدوان والظلم . وأما المسلمون من الكفار فلا يجوز التعرض لهم حتى يعتدوا .

٤ - مرحلة الدفاع الواجب بالقوة المادية : وكانت بعد أن اشتد ساعد الدعوة . فأمر الله سبحانه الدعوة أمرا أن يقاتلوا من يقاتلهم دون من يسالمهم . ولم يكن نهم في هذه المرحلة الخيار في أن يقاتلوا او يصبروا . وانما فرض الله عليهم المجابهة ولكن للمعتدي دون المسالم . يقول الامام الشافعي رحمه الله تعالى : (ولما مضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مدة من هجرته أنعم الله فيها على جماعات باتباعه حدثت لهم بها مع عون الله عز وجل قوة بالعدد لم يكن قبلها . ففرض الله عز وجل عليهم الجهاد بعد اذ كان اباحة لا فرضا . فقال تبارك وتعالى : « كتب عليكم القتال . . . »)^(٥١) .

وروى ابو جعفر الطبري بسنده عن الربيع في قوله تعالى : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا . ان الله لا يحب المعتدين)^(٥٢) قال : (هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة . فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من يقاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت براءة)^(٥٣) .

(٤٩) انظر : احكام القرآن للشافعي ج ٢ ص ١٨ . ١٩ . الام ج ٤ ص ٨٥ . زاد المعاد ج ٢ ص ٥٨ .

(٥٠) انظر احكام القرآن لابن العربي - القسم الثالث ص ١٢٨٤ .

(٥١) انظر : احكام القرآن للشافعي ج ٢ ص ١٨ . ١٩ . والام ج ٤ ص ٨٤ . ٨٥ .

(٥٢) البقرة - الآية ١٩٠ .

(٥٣) تفسير الطبري ج ٣ ص ٥٦٢ .

ويرى جماعة من العلماء ، انه لم تكن في تاريخ تشريع الجهاد مرحلة قصر فيها الوجوب على مقاتلة من يقاتل دون من يسالم ، وانما كان الامر بقتال الكفار جميعا بعد أن انتهت مرحلة الاباحة ، واولوا قوله تعالى : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) بأن المقصود الامر بقتال الكفار بغض النظر عن بدئهم بمقاتلة المسلمين او عدم ذلك ، وان قوله تعالى (الذين يقاتلونكم) انما هو تهيج واغراء بالاعداء الذين همتهم قتال الاسلام واهله ، وان قوله تعالى : (ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) يراد به النهي عن قتل النساء والذراري ، واجتناب المحرمات من المثلة والغلول وغير ذلك ، وممن رجح هذا التأويل ابن كثير في تفسيره ، وروي عن عمر ابن عبد العزيز ومجاهد وابن عباس ، ورجحه ابو جعفر الطبري في تفسيره أيضا (٥٤) .

وممن رجح القول الاول ابن قيم الجوزية ، فقد قال في زاد المعاد (ثم فرض عليهم القتال لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة ، وكان محرما ثم مأذونا به ثم مأمورا به لمن بدأهم القتال ثم مأمورا به لجميع المشركين : اما فرض عين على أحد القولين او فرض كفاية على المشهور) (٥٥) . وذهب الى مثل هذا السرخسي في المبسوط ، فقد ذكر ان الرسول عليه الصلاة والسلام كان مأمورا في الابتداء بالصفح والاعراض عن المشركين ، ثم أمر بالقتال اذا كانت البداية منهم ، ثم البداية بالقتال ، فاستقر الامر على فرضية الجهاد مع المشركين . . . (٥٦) .

(٥٤) تفسير الطبري ج ٣ ص ٥٦٣ ، تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٦ . ويدل مسلك الشافعي في تقسيم مراحل الجهاد على انه يرى هذا الرأي ، فقد ذكر مرحلة واحدة بعد مرحلة الاباحة ، وذكر من النصوص الدالة عليها آيات سورة براءة في القتال - انظر احكام القرآن ج ٢ ص ١٩ .

(٥٥) زاد المعاد ج ٢ ص ٥٨ .

(٥٦) المبسوط للسرخسي ج ١٠ ص ٣ ، ٢ .

والظاهر ان النصوص الواردة في هذه المرحلة ، والتي استدل بها الفريقان تحتل ما ذهب اليه من التأويل ، الا انه يمكن ترجيح القول الاول بالنظر الى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام في معاملة الكفار في هذه المرحلة ، ذلك أن السمة التي ظلت غالبة على سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم مع الكفار الى أن نزلت سورة براءة كانت تقوم على أساس مقاتلة المعتدين دون المسلمين ، فلم يبادر عليه الصلاة والسلام قوما بقتال حتى يعتدوا او يعزموا على العدوان او ينقضوا عهدا كان أبرمه معهم .

٥ - المرحلة النهائية : وهي مرحلة وجوب قتال الكفار جميعا ، سواء اعتدوا بالفعل أم لم يعتدوا ، ولم يستثن في هذه المرحلة من القتال سوى المعاهدين .

ولم تدخل الدعوة في هذه المرحلة حتى مكن الله للدعاة في الارض ، وأصبح لديهم القدرة على مواجهة الباطل وأهله في كل مكان ، وكان ذلك بعد فتح مكة . حيث خضع معظم العرب لحكم الله عز وجل ، فنزلت بعد ذلك سورة براءة ووضعت الاحكام النهائية للعلاقات بين الدولة الاسلامية ودول الكفار .

ومن آيات براءة التي وضعت الخطوط الرئيسية لهذه المرحلة النهائية في مواجهة الكفار قوله تعالى في حق المشركين : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) (٥٧) ، وقوله تعالى : (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الارض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب اليم . الا الذين عاهدتم من المشركين

(٥٧) التوبة - الآية ٣٦ .

ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم (٥٨) .

وقوله تعالى في حق أهل الكتاب ، والموقف الذي يجب على المسلمين أن يقفوه منهم : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (٥٩) .

وهكذا استقر حكم الجهاد في الاسلام على وجوب قتال كل من لم يقبل بدعوة الاسلام او الخضوع لها ، وهو واجب المسلمين في كل عصر اذا توفرت لديهم القوة والعدة اللازمة (٦٠) .

هذا وفي ختام الكلام عن مراحل الجهاد التي مرت بها الدعوة الاسلامية في مواجهة الكفار نثبت تلخيصاً جيداً لهذه المراحل لابن قيم الجوزية ، فقد قال تحت عنوان « ترتيب سياق هديه صلى الله عليه وسلم مع الكفار والمنافقين » ما نصه : (اول ما اوحى اليه ربه تبارك وتعالى ان يقرأ باسم ربه الذي خلق ، وذلك اول نبوته ، فأمره ان يقرأ في نفسه ، ولم يأمره اذ ذاك بتبليغ ، ثم أنزل عليه « يا أيها المدثر قم فأنذر »

فنبأه بقوله « اقرأ » ، وارسله بـ « يا أيها المدثر » ثم أمره أن ينذر عشيرته الاقربين ، ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من العرب ، ثم أنذر العرب قاطبة ، ثم أنذر العالمين ، فأقام بضعة عشر سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح ، ثم أذن له في الهجرة ، وأذن له في القتال ، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، وكيف عمن

(٥٨) التوبة - الآيات ١ - ٥ .

(٥٩) التوبة - الآية ٢٩ .

(٦٠) انظر : فقه السيرة للدكتور محمد سعيد زهران البوطي ص ١٨٢ .

اعتزله ، ولم يقاتله ، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله ، ثم كان الكفار معه بعد الامر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة وأهل حرب ، وأهل ذمة ، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد ، فان خاف منهم خيانة نبذ اليهم عهدهم ولم يقاتلهم ، حتى يعلمهم بنقض العهد ، وأمر أن يقاتل من نقض عهده . ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الاقسام كلها ، فأمر فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب ، حتى يعطوا الجزية او يدخلوا في الاسلام ، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين ، والغلبة عليهم ، فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان ، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ، ونبذ عهودهم اليهم ، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة اقسام : قسما أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم ، وقسما لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ، ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم الى مدتهم ، وقسما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة اشهر ، فاذا انسلخت قاتلهم . . . فقتل الناقض لعده ، وأجل من لا عهد له او له عهد مطلق أربعة أشهر ، وأمره أن يتم للموفا بعده عهده الى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ، ولم يقيموا على الكفر الى مدتهم ، وضرب على أهل الذمة الجزية ، فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد وأهل ذمة ، ثم آلت حال أهل العهد والصلح الى الاسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه ، فصار أهل الارض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالمة له آمن ، وخائف محارب .

وأما سيرته مع المنافقين فانه أمر ان يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم الى الله ، وان يجاهدوهم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ الى نفوسهم ، ونهي أن يصلي

عليهم ، وان يقوم على قبورهم . وأخبر أنه ان استغفر لهم فلن يغفر الله لهم . . . (٦١) .

تعقيب :

تلك هي الخطة الربانية التي أوحى بها الله الى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . وكان قدر الله عز وجل ان يدخل رسوله في جميع مراحلها . وأن يكلفه بتنفيذ جميع بنودها ، قبل ان يتوفى . ليتم الله نعمته على العباد ، بكمال الدين وبيان الصراط المستقيم .

فكان عليه الصلاة والسلام هو وأصحابه رضوان الله عليهم اذا دخلوا في مرحلة من مراحلها عملوا لما بعدها ، فيلتزمون بمنهج ربهم الذي كان ينزل به الفرقان على رسول الله في كل مرحلة ، حتى اذا تأهلوا لدخول المرحلة التالية تنزلت عليهم آيات جديدة وتكاليف جديدة تناسب المرحلة الجديدة . وهكذا حتى استطاع الجيل الاول من اجيال دعوة الاسلام أن يصلوا الى المرحلة النهائية ، وصاروا مكلفين بنشر دين الله في مختلف بقاع الارض . وقتال الكفار في أقطارها مبتدئين بالأخطر منهم .

وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك الامانة لاصحابه وهم في هذه الحال ، فكانوا مكلفين بعد وفاته عليه السلام بمثل ما كان مكلفا به بعد نزول سورة براءة . وحمل جيل الصحابة رضوان الله عليهم الامانة باخلاص ، وسخروا جميع ما آتاهم الله من قوى وطاقات في سبيل نشر الدعوة ، وايصالها الى الخلق ، فاهتدى على أيديهم كثير من خلق الله . وخلصوا من ظلم الجاهلية ونكدها كثيرا من العباد ، ونشروا العدل الرباني في كثير من بقاع الارض . وكانوا بذلك متمثلين لقوله تعالى : (الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الامور) (٦٢) .

(٦١) زاد المعاد - ٢ ص ٨١

(٦٢) الحج - الآية ٤١ .

وعندما ظهرت في الخلف بذرة الانحراف عن درب الله عز وجل ، صاروا الى الانحدار تدريجيا ، وكان انحدارهم متناسبا مع ما يقعون فيه من الانحراف ، حتى عادوا لا يستطيعون المبادرة بالقتال . ثم ازداد الانحراف عن منهج الله تعالى ، بمكر الماكرين من الشياطين وأعداء الاسلام ، وغفلة الغافلين من أهل الاهواء والشهوات من المسلمين ، حتى ضعفت دولتهم ، وصارت عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، فابتلاهم ربهم بشرار خلقه من الصليبيين والتتار واليهود وغيرهم . ولم تكن الطريق للانقاذ والخلص في غمرة تلك المصائب والابتلاءات الا تلك الطريق التي سلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته . وتلك الخطة الربانية في مواجهة الشر . وقد سلكها بعد الجيل الاول بعض الاجيال المسلمة في فترات من الزمن ، فمن الله عليهم بما من به على الاولين من النصر المبين ، من ذلك : الجيل الذي قاده الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وذلك الجيل الذي قاده صلاح الدين في مواجهة الصليبيين ، وذلك الجيل الذي وقف أمام التتار وانتصر عليهم ، وغيرهم من الذين أنعم الله عليهم بادراك تلك الحقائق ، والالتزام بمقتضياتها .

وهكذا ظلت دولة المسلمين تتأرجح بين ضعف المنحرفين عن منهج رب العالمين وقوة المتمسكين بذلك المنهج ، حتى طغى الانحراف في أوائل هذا القرن ، وقضي على الخلافة الاسلامية ، بعد أن نجح أعداء الاسلام في اثارة العصبية النتنة بين المسلمين ، وظهرت الدعوات الى القوميات بينهم . ولم يعد للاسلام دولة ولا للمسلمين قوة ، وصدق فيهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه ابو هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لثوبان : (كيف بك يا ثوبان اذا تداعت عليكم الامم كتداعيكم على قصعة الطعام تصيبون منه ؟ قال ثوبان : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أمن قلة بنا ؟ قال : لا أنتم يومئذ

كثير ، ولكن يلقي في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله قال : حبكم الدنيا وكرهيتكم القتال (٦٣) .

وصار الناس في ديار الاسلام الى جاهلية جهلاء ، لا تقل عن تلك التي واجهتها دعوة الاسلام في أول مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام (٦٤) .

وليس هناك من سبيل للخروج من هذه الجاهلية التي وقعنا فيها في هذا الزمان الا الرجوع الى الله عز وجل ، والى نظامه الذي نزل في القرآن ، وبينه رسوله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، فكما صلحت السموات والارض بخلق الله وتدبيره ، فانه لا صلاح لحياة البشرية الا بأمره سبحانه .

ولكن العودة الى الله لا تكون بالتمني ، وانما بالعزم والجهاد ، والجهاد الذي يوصل اليها له بداية ينطلق منها ، وليست البداية الا التي بدأ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي الدعوة لله ، وصناعة الرجال وفق منهج الخالق عز وجل وتربية طليعة مؤمنة ، وايجاد قاعدة صلبة ، تصلح لقيادة الناس في طريق الهدى ، والتدرج في ذلك حتى يستطيع أبناء الدعوة من أخذ الزمام ، واقصاء الطواغيت عن سدة الحكم والتوجيه .

وفي هذا المقام نجد من المناسب ان نوفي القاريء ما وعدناه من تخصيص مكان مستقل للكلام عن الجهاد بالدعوة الى الله ، ووجوبه على كل مؤمن بالله واليوم الآخر ، وضرورته وخاصة في هذه الايام ، بعد أن أقصي القرآن عن الحكم ، واستبدلت شريعة الله بشرائع وثنية أرضية ، ونصب الحكام انفسهم آلهة يشرعون للناس بأهوائهم .

(٦٣) رواه احمد والطبراني في الاوسط ، واسناد احمد حسن - انظر مجمع الزوائد ج ٢ ص ٢٨٧ ، وستن ابي دود ج ٢ ص ٤٢٦ .

(٦٤) انظر بعض مظاهر فساد البشرية في كتاب « الدعوة الاسلامية » للدكتور صادق امين - الفصل الاول ، وجاهلية القرن العشرين .

الجهاد بالدعوة الى الله عز وجل وظيفة كل مؤمن :

ان ما يعم الناس من البلاء في هذه الايام ، سواء كان على مستوى الافراد ، وما هم فيه من القلق والحيرة والتعاسة ، وما يلاحظ عندهم من اختلال القيم واضطراب المقاييس ، أو كان على مستوى الأمة ، وما منيت به من ذل وهزيمة ، انما هو نتيجة حتمية لاجتماع عاملين اثنين هما :

الاول : اجتهد أولياء الشيطان في تلبية نداءه ، والصد عن سبيل الله عز وجل .

الثاني : تخلي المؤمنين عن مراكزهم التي وضعهم الله فيها ، وعن وظيفتهم التي ناطها بهم ، وهي الدعوة الى دين الله ، ومجاهدة الشيطان وأوليائه .

وناس اليوم في هذا الشقاء سواء : الذين يدعون الايمان ، والذين اتخذوا الشياطين أولياء .

والمؤمن لا يتساعل عن سبب ذلك بالنسبة للضالين ، فان ربه يقول : (ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا . ونعشره يوم القيامة أعمى) (٦٦) . ولكن قد يتساعل المؤمنون لم لا يتميزون في ذلك عن الآخرين . وهم الذين اعترفوا بالخالق الها ، وبمحمد عليه الصلاة والسلام رسولا ، وصاموا وصلوا وحجوا ، فلم لا يتنزل على قلوبهم السكينة ، ولم لا يستثنون من العذاب الذي كلما نزل أصابهم كما يصيب الجاحدين ؟!

لعل أهم سبب في ذلك انهم تركوا وظيفتهم التي قلدها ، حين قيل لهم عرفتم الحق فادعوا اليه ، وادركتم الباطل فجاهدوه ، فلم يحركوا ساكنا ، ووقفوا متفرجين فنسيهم ربهم من فضله ، وعمهم بعقابه ، وأشركهم في ذلك مع المجرمين . مصداقا لقوله عز من قائل : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . واعلموا ان الله شديد

العقاب) (٦٦) . نعم ان وظيفة المؤمنين التي جعلوها وراء ظهورهم في هذه الايام هي الدعوة الى دين الله الذي اعتنقوه ، والحق الذي عرفوه .

ان الدعوة الى الله ودينه فرض من فروض الاسلام . وليست تطوعا ولا نفلا ، بل إن الجهاد بالدعوة يقع من الايمان في خمسة مواقع : فهو اولا مقتضى من مقتضيات الايمان ، والتصور الاسلامي للكون والحياة والانسان . وهو ثانيا علامة الايمان الصادق . وهو ثالثا وقاية للايمان من الضعف والضمور ، وهو رابعا غذاء للايمان وتنمية له وهو خامسا شرطا لتمام الايمان وصدقه . واليك فيما يلي تفصيل هذه المواقع :

أولاً : الجهاد بالدعوة مقتضى من مقتضيات الإيمان :

فان واجب الدعوة الى دين الله هو اول التزام يلتزمه المسلم تجاه ربه بالتصديق بالاسلام . واول تبعة يتحملها بالايمان بخالقه ، وتصوره عن مركزه الذي جعله الله فيه في هذا الكون :

فالمؤمن بايمانه قد اقر بقلبه ولسانه ان لا اله الا الله . وان محمدا نبيه ورسوله . وكل واحدة من هاتين الشهادتين تلقي على عاتق صاحبها مسئولية الدعوة الى الله عز وجل . والجهاد في سبيله .

فبالشهادة الاولى يقر المؤمن ان لا أحد يستحق الخضوع والعبادة والطاعة الا خالق السموات والارض . وهذا الاقرار بحمله تبعتين : الاولى : تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى في ذاته هو . بحيث يلتزم في نفسه بتوجيه جميع مظاهر العبادة واشكالها لربه . وان لا يتوجه بشيء منها لغيره سبحانه وتعالى . والتبعة الاخرى تجاه غيره ممن رفض العبودية لله تعالى . وجعلها لغيره سبحانه . فان الايمان يلزم صاحبه بأن لا يقف موقفا سلبيا من هؤلاء . فانه يعتقد انهم معتدون متجاوزون لحدودهم . لانهم عبدوا من لا يستحق العبادة، وتركوا عبادة من يستحقها

وهو الله عز وجل ، مع انه خالقهم - فاذا كان المؤمن عبدا خالصا لله تعالى فانه لا يقبل منه ان يظل ساكتا ازاء ما يرى من العدوان على حق ربه .

وتفصيل ذلك انه ليس من مخلوق الا وخلقه الله تبارك وتعالى ، وهو مالكة : فالارض ارض الله ، والناس عياله .

وقد جعل الله لعياله في الارض نظاما ، ونزل فيهم احكاما ، وحد لهم حدودا هي حرماته ، وجعل لهم فيها قيما وموازنين واخلاقا ، واستخلفهم في الارض ، على ان يقوموا بتبعات الخلافة ، ويلتزموا بشروطها ، وجعل اول بنود ذلك العقد معهم : أن يؤمنوا به ، ويقروا بملكه للكون والمخلوقات ، وتدبره لها ، وثانيهما : ان يعبدوه ويطيعوه ، ويسلموا له تسليما . وثالثها : أن يحافظوا على الاوضاع الخاصة التي أراد أن تكون عليها الارض واهلها : فأمرهم بتطبيق نظامه ، والوقوف عند حدوده وعدم الاعتداء على حرماته ، والوزن بموازينه ، والقياس بمقاييسه ، وجعل لهم مقابل ذلك سعادة نفوسهم وسكينتها اثناء تنفيذهم لهذه الشروط ، وسعادة أبدية أخرى لا تنتهي ، بعد أن ينتهي الامتحان وتوضع الاقلام .

فماذا كان موقف المخلوقات من هذه المعاهدة الربانية ؟ لو أنهم جميعهم التزموا بهذه الشروط لما طولب أحد بدعوة ، ولما كلف أحد بأمر بمعروف ولا نهى عن منكر لان المعروف يكون قد تحقق ، والمنكر قد انعدم . ولكنهم لم يفعلوا ذلك على مر العصور وانما كانوا دائما فريقين :

— فريق اعترف بهذه المعاهدة ، وأقر بالامانة ، وان هذه الارض بيت الله وما فيها اشياؤه وأماناته .

— وفريق آخر أنكر تلك المعاهدة من أصلها ، وأنكر عنوانها ، فأنكر ملكية الخالق للارض والكون ، وأنكر بالتالي بقية الشروط ،

واستنكف عن تنفيذ الالتزامات . وكان ابليس وما زال على رأس هذا الفريق وقيادته . وتبعه من تبعه من شياطين الانس والجن لا يألون جهدا في خيانة الامانة وتغيير الاوضاع الالهية* .

وكان في قيادة الفريق الاول رسل الله وأولياؤه .

ففي أي الفريقين أنت أيها الاخ المؤمن ؟ انك بالشهادتين ادعيت انك مع فريق الرحمن وليس مع فريق الشيطان . ولكن الله لم يجعل الايمان بالتمني ، ولكن بالجهد والعمل الصالح . ألم تنظر في بيت الله الذي أماننا على أشيائه ، وأوضاعه* ؟ هل أمره كما اراد الله ؟ هل أماناته موفاة ؟ هل أشيأؤه ما زالت في مواضعها ؟ اذا كان الامر كذلك فلست مطالباً بشيء . ولكن الامر خلاف ذلك : ألا ترى أنه أنكر كثير من الناس ملك الله لهذا البيت ، وهي هذه الارض، وأشاعوا الفساد فيها وزحزحوا كل شيء عما وضعه الله فيه* ؟ فحكموا بغير حكم الله ، وقاسوا بغير مقاييس الله ، فما أبقوا شيئاً في موضعه الذي وضعه الله فيه* . فكيف يصدق علينا أننا آمننا به . وأننا أدينا الامانة ، وأنجزنا الوكالة ، وكل ذلك يقع تحت أعيننا وبصرنا وحسنا ، فلا نحرك ساكنا ، ولا ندعوا الى دين الله ؟ كيف يوكلك شخص بحفظ ماله ، فترى السارق يسرقه ، ولا تردعه ، ولا تحمي المال الذي أمنت عليه ثم تعتذر الى صاحبه أنك لم تسرق أنت شيئاً ؟ هل حجتك مقبولة ؟

ذاك هو مقتضى الشهادة الاولى ، شهادة ان لا اله الا الله ، وكذلك اقرار المؤمن برسالة محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه يقتضيه أن ينحاز الى صفه ، وأن يكون جندياً من جنوده ، ولا معنى للايمان برسول الله غير هذا ، وقد عرفت فيما تقدم موقفه من الكفار ، ومنهجه في مواجهتهم . فقد اتخذ قائد المؤمنين من أهل الشر موقفاً ، وليس من جنوده من لم يتخذ موقفه ذاك .

★ المقصود بالاشياء والأوضاع التي امر الله بالمحافظة عليها ، وغيرها شياطين الانس والجن ، الامور والأوضاع التكليفية التي كلفهم الله بها ، وليس الاوضاع الكونية التي خلق الكون وما فيه عليها ، فليس في وسع المخلوقات تغيير شيء منها .

وقد كان ذلك الموقف الذي اتخذته رسول الله بدعوة الكفار وجهادهم تنفيذاً لأوامر ربه . وقياماً بحق الوظيفة التي وظفه فيها ، والمركز الذي جعله فيه وهو مركز الداعي الى الله والمجاهد في سبيله سبحانه . فناداه من أول الطريق : (يا أيها المدثر ، قم فأندِر) (٦٧) ، وناداه أيضاً : (وأندِر عشيرتك الاقربين) (٦٨) ، وقال له : (لتندِر قوما ما أندِر أبأؤهم فهم غافلون) (٦٩) . وقال له : (وأندِر الناس يوم يأتيهم العذاب) (٧٠) . وقال له : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) (٧١) . وتأكيذا وتثبيتاً له عرفه أنه ما أرسل من رسول الا لهذا . فقال سبحانه : (وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) (٧٢) .

هذه هي وظيفة محمد عليه الصلاة والسلام في كتاب الله . واما في الواقع ، فلم تختلف ، ولا عجب فانه كان خلقه القرآن . فقد وقف صلى الله عليه وسلم في نفس الموقف الذي وضعه الله فيه ، وحمل الرسالة التي حمدها ، وأدى الامانة وبلغها ، واجتهد في ايصالها الى جميع الناس .

ولقد عاش عليه الصلاة والسلام لدعوته : فما تحرك الا من أجلها ، وما سكن الا لها ، وما اكل وما شرب وما نام وما أفاق الا في سبيلها ، وجعل عقله وقلبه وجوارحه وحياته كلها لها . فدعا الى الله في جميع الاحوال : في السلم والحرب والسراء والضراء ، والسعة والضيق ، وما نسي يوماً انه خلق ليدعو الى الله .

وليس هذا المقام بمتسع لتفصيل جهاده في الدعوة الى الله ، لان ذلك يعني تقصي سيرته في كل ساعة من ساعات حياته ، ولكنني أثبت هنا هذه الكلمة القيمة لابن قيم الجوزية ، يقول :

(٦٧) المدثر - الآيات ١ ، ٢ .

(٦٨) الشعراء - الآية ٢١٤ .

(٦٩) يس - الآية ٦ .

(٧٠) ابراهيم - الآية ٤٤ .

(٧١) المائدة - الآية ٦٧ .

(٧٢) الكهف - الآية ٥٦ .

ر لما كان الجهاد ذروة سنام الاسلام وفبته ، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة . كما لهم الرفعة في الدنيا . فهم الاعلون في الدنيا والآخرة . كان رسول صلى الله عليه وسلم في الذروة العليا منه . فاستولى على انواعه كلها . فجاهد في الله حق جهاده : بالقلب والجنان ، والدعوة والبيان ، والسيف والسنان . وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده . ولهذا كان ارفع العالمين ذكرا وأعظمهم عند الله قدرا (٧٣) .

ويقول في موضع آخر : (وأكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها ، والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد . ولهذا كان اكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله . فانه كمل مراتب الجهاد ، وجاهد في الله حق جهاده ، وشرع في الجهاد سن حين بعث الى ان توفاه الله عز وجل ، فانه لما نزل عليه : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر . وربك فكبر وثيابك فطهر » . شمر عن ساق الدعوة . وقام في ذات الله أتم قيام . ودعا الى الله ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا . فلما نزل عليه : « فاصدع بما تؤمر » صدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم ، فدعا الى الله الصغير والكبير ، والحر والعبد ، والذكر والانثى والاحمر والاسود ، والجن والانس . . .) (٧٤) .

هل بقي بعد كل هذا مجال للشك في أن هذا الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، الذي لا يصدق مدع للايمان الا بالاعتراف بقيادته ، والانخراط في جنده ، وقبول تبعيته ، هل بقي مجال للشك في أن طريقه انما هي الدعوة الى الله . فتعال اذن نسأل المتقاعسين عن الدعوة الى دين الله : ما موقفكم من محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ؟ وما علاقتكم به ؟ وما منزلته في قلوبكم ؟

فان أجابوا بوقاحة الكافرين : هو مصلح كبقية المصلحين ، أدى دوره ، وانقضى اوانه ، فقد اختاروا الكفر على الايمان ، وانحازوا الى

(٧٣) زاد المعاد ج ٢ ص ٢٨ .

(٧٤) زاد المعاد ج ٢ ص ٤٠ .

فئة الشيطان • ولكنه لا يجرؤ على ذلك الا من كره ان يتسمى بالاسلام والايمان ، وهؤلاء هم الذين باتوا يقدرّون ان هذا العنوان لا يفيدهم ربّحاً دنيوياً • واما الذين ما زالوا يرتزقون باسم الاسلام والايمان ، ويقدرّون انهم يكسبون بهذا العنوان كسباً مادياً او معنوياً ، فانهم لا يجيبون بهذا الجواب ، بل سيقولون : انه رسول الله اليّنا ، وهو قدوتنا وأسوتنا ، فليأت هؤلاء الى القرآن ، يبين لهم دوره عليه الصلاة والسلام الذي حدده له رب العباد ، والى واقعه الكريم الذي كان تنفيذا كاملاً لذلك الدور ، وقد تقدم ذكر ومضات ساطعة منه قبل قليل • وأضيف هنا بعض الآيات الاخر التي تحدد ذلك بصورة قاطعة : ألا فلينظروا قوله تعالى : (يا أيها النبي انا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً) (٧٥) ، فهذا هو الرسول الذي يدعون انهم به يقتدون ، وهذا هو كتاب ربه الذي فيه تحديد دوره : انه مكلف بالدعوة الى الله ، وليس مكلفاً بالدعوة الى دنيا ، او الى مجد دنيوي ، ولا الى عزة قومية ، ولا الى عصبية جاهلية ، ولا الى مغنم ولا سلطان ، ولا جاه ، ولكن الى الله وسبيله • ومثل هذه آيات آخر منها ، قوله تعالى : (وادع الى ربك ، انك لعلّى هدى مستقيم) (٧٦) ، وقوله تعالى : (وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين) (٧٧) اي فلتكن دعوتك وجهادك في سبيل ربك ، ولا تشرك معه في الدعوة أحداً ، وقوله تعالى : (قل : انما أمرت ان أعبد الله ، ولا أشرك به ، اليه أدعو ، واليه مآب) (٧٨) • وقوله تعالى : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) (٧٩) ، وقوله تعالى : (فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم) (٨٠) •

(٧٥) الاحزاب - الآيتان ٤٥ ، ٤٦ •

(٧٦) الحج - الآية ٦٧ •

(٧٧) القصص - الآية ٨٧ •

(٧٨) الرعد - الآية ٣٦ •

(٧٩) النحل - الآية ١٢٥ •

(٨٠) الشورى - الآية ١٥ •

فهذه نداءات رب العباد الى من نصبه سبحانه قائدا للعباد في الخير فماذا يقول المستنكفون عن الدعوة الى الله فيها ؟ أم يقولون : هي من خصائص الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولا شأن لهم بها ، فماذا يقولون في قوله تعالى : (قل هذه سبيلي : أدعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما انا من المشركين) (٨١) . يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : (يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم الى الثقلين : الانس والجن أن يخبر الناس أن هذه سبيله ومسلكه وسنته ، وهي الدعوة الى شهادة ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، يدعو الى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان ، وكل من اتبعه يدعو الى ما دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة و يقين) (٨٢) .

فهذه هي سبيل الرسول عليه الصلاة والسلام : الدعوة الى دين الله ، رسمها له ربه ، ولمن اتبعه ، فمن ادعى انه من اتباعه ، ولم يدع الى ما دعا اليه ، فهو كاذب ليس من اتباعه ، وما يلتجئ اليه من الاعذار فانما هو تعبير عن مدى عبوديته لغريزته وشهوته وهواه .

ولا ادري : كيف يؤول الخاملون ممن يدعون الاسلام هذا النص الحاسم الذي يصنف الناس الى صنفين : سائرون في سبيل الله ، وصراطه المستقيم الهادي الى رضا الله وجنته ، وآخرون تشعبت بهم الطرق المعوجة التي لا تهدي الا الى تعاسة الدارين او قل : الى فئتين : اتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، وآخرون ليسوا من أتباعه ، وجعل سبحانه الفاصل بين الفريقين الدعوة الى الله ودينه ، ولم يجعله الشعارات والعناوين والادعاءات .

وهذا النص الكريم لا يدع للمجذوبين الى غراتهم فرصة الماطلة ، بحيث يوجب الدعوة الى الله من أول طريق الايمان ، لان الذي يعتنق الاسلام يدخل في حزب محمد صلى الله عليه وسلم ، فعليه أن يبدأ

(٨١) يوسف - الآية ١٠٨ .

(٨٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٩٥ .

المسيرة ورائه يدعو الى الله من أول الطريق ، وليس له ان يدعي انه لا يملك ما يدعو اليه من العلم والمعرفة كما يريد بعض الادعياء ، لانه بالاسلام ، وعنوانه الشهادتان ، قد تحصل له الاصل الجامع للخير كله ، وهو معرفة الله العظيم ، وبه دخل في التبعية الشريفة لرسوله الكريم عليه صلوات الله وسلامه ، وبدخوله فيها التزم بالدعوة الى طريق الله التي اختارها .

ثانياً : الجهاد بالدعوة الى الله علامة الإيمان :

فان لب الايمان حب الله وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : (والذين آمنوا أشد حبا لله) (٨٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين) (٨٤) .

وعلامة حب الله ورسوله الجهاد في سبيله ، والدعوة الى دينه ، وموالاته المؤمنين ، قال عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) ، ثم بين سبحانه في الآية نفسها صفات هؤلاء القوم الذين يحبهم ويحبونه فقال : (أدلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) (٨٥) .

يقول ابن قيم الجوزية في توضيح دلالة الجهاد على صدق الايمان : (مهر المحبة والجنة بذل النفس والمال لمالكهما ، الذي اشتراهما من المؤمنين ، فما للجبان المعرض المفلس وسوم هذه السلعة ؟ بالله ما هزلت فيستامها المفلسون ، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون . لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد ، فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس ، فتأخر البطالون وقام المحبون ينتظرون ايهم يصلح أن يكون

(٨٣) البقرة - الآية ١٦٥ .

(٨٤) متفق عليه - انظر صحيح البخاري ج ١ ص ٤٩ ، وصحيح مسلم بشرح النووي ج ٢ ص ١٥ .

(٨٥) المائدة - الآية ٥٤ .

نفسه الثمن ، فدارت السلعة بينهم ، ووقعت في يد أذلة على المؤمنين
أعزة على الكافرين . ولما كثر المدعون للمحبة طولبوا باقامة البينة على
صحة الدعوى ، فلما يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلفى حرفة الشجى ،
فتنوع المدعون في الشهود ، فقليل : لا تثبت هذه الدعوى الا ببينة « قل
ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » فتأخر الخلق كلهم وثبت اتباع
الرسول صلى الله عليه وسلم في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه . فطولبوا
بعدالة البينة ، وقيل : لا تقبل العدالة الا بتزكية « يجاهدون في سبيل
الله ، ولا يخافون لومة لائم » فتأخر أكثر المدعين للمحبة ، وقام
المجاهدون ، فقليل لهم : ان نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم ، فسلموا
ما وقع عليه العقد ، فان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن
لهم الجنة . وعقد التبائع يوجب التسليم من الجانبين . فلما رأى
التجار عظمة المشتري وقدر الثمن وجلالة قدر من جرى عقد التبائع
على يديه ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد عرفوا ان للساعة
قدرا وشأنا ليس لغيرها من السلع ، فرأوا من الخسران المبين والغبن
الفاحش ان يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة ، تذهب لذتها وشهوتها ،
وتبقى تبعتها ، وحسرتها ، فان فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء ،
ففقدوا مع المشتري بيعة الرضوان ، رضاء واختيارا من غير ثبوت
خيار ، وقالوا : والله لا نقيلك ولا نستقيلك . فلما تم العقد ، وسلموا
المبيع قيل لهم : قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا ، والآن فقد رددناها
عليكم أوفر ما كانت ، وأضعاف أموالكم معها « ولا تحسبن الذين قتلوا
في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » ، لم نبتغ منكم
بنفوسكم وأموالكم طلبا للربح عليكم ، بل ليظهر أثر الجود والكرم في
قبول المبيع ، والاعطاء عليه أجل الاثمان ، ثم جمعنا لكم بين الثمن
والثمن . . . (٨٦) .

(٨٦) زاد المعاد في هدى خير العباد ج ٢ ص ٥٩ ، ٦٠ .

ثالثاً : الجهاد بالدعوة الى الله شرط اتمام الإيمان :

واذا كان الجهاد بالدعوة الى دين الله عز وجل علامة على صدق الايمان فانه من جهة اخرى شرط لتمام الايمان وكماله ، فقد عرفت انه لا يتم ايمان العبد ما لم يحب الله سبحانه ، فيحبه الله ، ولا يكون ذلك الا باتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما قال عز وجل : (قل : ان كنتم تحبون الله ، فاتبعوني ، يحببكم الله) (٨٧) .

فالله لا يحب عبدا حتى يتبع رسوله عليه الصلاة والسلام ، وقد يقول قائل : اننا نتبع رسول الله ، فنصلي ونصوم ونحج . نعم هذه بداية الطريق الرباني الذي سار فيه صفى الله وخليله .، وهي الزاد الذي يتزود به السائر في هذا الدرب الناجي . وقد أمر الله نبيه من أول الأمر بالتزود بعبادته فقال له : (يا أيها المزمّل قم الليل الا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا انا سنلقي عليك قولا ثقيلا) (٨٨) ، نعم أمر به ليتهيأ لذلك الحمل الثقيل .

فان سأل سائل : كيف نتبعه عليه الصلاة والسلام بعد صلاتنا وصومنا وحجنا ؟ وما ذاك الحمل الثقيل الذي يجب علينا ان نحمله مثلما حمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ اذن فليتدبر ذلك السائل قول الله تعالى لرسوله الكريم : (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) ، فهذه هي سبيله التي تزود للسير فيها بالصلاة ، وهذا هو الحمل الثقيل الذي تجهز لحمله بقيام الليل وذكر الله وتلاوة القرآن .

فخلاصة القول : أننا لن نكون مؤمنين صادقين حتى نحب الله تعالى ولن يكون ذلك حتى نتبع رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولن نتبع رسوله حتى ندعو الى دين الله ونضحى في سبيله .

(٨٧) آل عمران - الآية ٣١ .

(٨٨) المزمّل - الآيات ١ - ٥ .

رابعاً : الجهاد بالدعوة الى الله تعالى وقاية للإيمان :

عرفت فيما تقدم ان الله عز وجل أخبرنا ان عدونا الاول هو الشيطان ، وانه قد نذر نفسه لمهاجمة الناس أجمعين ، وانه لا زال يسدد سهام غوايته لهم وأمرنا سبحانه أن نتخذ الشيطان عدوا بأن نحاربه ونهاجمه ونرد كيده .

فرب العالمين عرفك - أيها الأخ المؤمن - بعدوك ، ورحمة بك عرفك بما عزم عليه ، وخططه وأساليبه ، لتأخذ الحيلة من أمرك ، فتهاجمه قبل أن يهاجمك ، وتغزوه قبل أن يغزوك .

وعلى مر العصور ، وفي كل قوم يتخذ الشيطان لنفسه منهم اولياء يجندهم ويشكل منهم جيشه ، ويأمرهم أن يناضلوا من أجله ، ويقاتلوا في سبيله ، ويوزع عليهم وظائفه ، ويجهزهم بأساليبه ، فيتبعون خططه ، ويقفون من المؤمنين موقفه يقول سبحانه وتعالى : (انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون)^(٨٩) ، ويقول ايضا : (انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله)^(٩٠) ، ويقول (وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم)^(٩١) .

ووالله ان الشيطان وأوليائه لماضون في مجابتهك يا أخي ، وقد جاء دورك بعد أن أضل من أضل ، وهزم من هزم ، وانتصر عليه من انتصر ، جاء دورك ، واصبحت في مواجهته ، وهو اليوم قاعد لك في كل صراط مستقيم : فقعد لك في الشوارع والطرقات والمدارس والجامعات ، والصحف والمجلات . واتخذ له حصونا وقلاعاً في السينمات والمذياعات والتلفزيونات . بل انه غزاك حتى فيما خصصته لعبادة الله من المساجد ، فأذهب خشوعك ومناك وانت واقف امام ربك ، والهاك عن ذكره . بل قعد لك في بيتك وأهلك وولدتك ، وأتاك من جميع الجوانب ، وهو يستفزك في كل لحظة

(٨٩) الاعراف - الآية ٢٧ .

(٩٠) الاعراف - الآية ٣٠ .

(٩١) الانعام - الآية ١٢١ .

وما زال يوحى لاوليائه ليجادلوك ، ويغيروا معتقدك الحق ، وقيمك الكريمة ، وموازينك المنضبطة . واذا كان قائدك الامين ، عليه الصلاة والسلام يقول للمؤمنين : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان) (٩٢) ، فاني بابلّيس اللعين يحث اتباعه ويحرض اوليائه ويقول لهم : من رأى منكم معروفا فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أدنى الكفر وأضعفه . ولقد صدق الله عز وجل في أولياء الشيطان . اذ يقول : (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون ايديهم . نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون) (٩٣) .

فاذا كان هذا هو دأب الشيطان وفريقه ، فكيف يصح لحزب الله وفريق الرحمن ان يقعدوا عن الجهاد في سبيله . والدعوة الى دينه ؟ الا يخشون على انفسهم ، وسنة الله في خلقه انه ما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا ؟ الا يخشون ان يؤثر في قلوبهم معوله الهدام ، مهما كانت قلوبهم صلابة اذا لم يتحركوا ؟ ان الماء مع ميوعته يؤثر في الصفوان مع جموده وصلابته . وهذه هي سنة الله في مخلوقاته . وانه ليخشى ان يضيع ايمان المؤمنين ان لم يبادروا الى غزو الشيطان في الناس ، بتذكيرهم بالحق ، وبيان ما اوقعهم فيه الشيطان من الخسران في دنياهم وأخراهم . وهدم حصون الغشاوات التي بناها ابليس حول قلوبهم من حب الدنيا وتزيين الشهوات .

خامساً : الجهاد بالدعوة الى الله غذاء الايمان :

واذا كانت الدعوة الى الله عز وجل ومجاربة الشيطان امرا ضروريا للحفاظ على بذرة الايمان من الهلاك والضمور ، فانها غذاء لتلك البذرة . ونماء لها وتعميق لجذورها . ولست بذلك متجاوزا لطبيعة

(٩٢) أخرجه الامام مسلم - اطر صحيح - مسلم شرح النوى - ٢ ص ٢٢ .

(٩٣) التوبة - الآية ٦٧ .

النفس البشرية التي فطرها الله عليها . بل انها سنة الله في خلقه : فان اي معنى من المعاني . يدعو اليه الانسان يزد حببه له وارتباطه به . وتتناسب هذه الصلة مع شدة ما يلاقيه الداعية وعظمة التضحيات في سبيل ما يدعو اليه . الا ترى ان الانسان يزداد حبه . وتتوثق صلته بمن يتعب من اجله . ويشقى في سبيله . حتى تراه أكثر حبا لولده وزوجته وارضه . لان صلته بكل هذه الاشياء امتزجت بتضحيات وتعب من أجلها ؟ بل ألا ترى ان الانسان اذا ساقته الظروف للدفاع عن شخص . وان كان لا تربطه به في الاصل علاقة . الا انه يشعر بتحرك قلبي نحوه . حتى اذا ما تكررت هذه الظروف مرة ومرة وجدته احبه . وصار من انصاره .

والمؤمنون بالله أجدر ان يوجهوا هذه الفطرة نحو ربهم . فيدعوا اليه ويجهادوا في سبيله سبحانه . بل انه لا يجوز ان يوجهوا قلوبهم الى غيره سبحانه . ولا يقبل الله منهم أعمالهم ان لم يكن مقصودا بها . فقد قال تبارك وتعالى : (قل : ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها . ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتركبوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين) (٩٤) .

أسلحة الداعية :

قد علمت ان الدعوة الى الله ودينه فرض من فروض الاسلام . ولتعلم انه ان كان نجاح الدعوات مرهونا بصدق طبيعتها وصدق حاملها فان دعوة الاسلام أصدق دعوة . وأرسخها في أعماق النفس البشرية . لانها دعوة الى سنة لا تتبدل . ولا يشك فيها . والى ناموس لا يتخلف . والى بدهية يسندها كل محسوس : انها دعوة الى الايمان بخالق المخلوقات . وموجد الموجودات . فلم يبق الا ان ينظر الدعاة في أنفسهم . ليقيسوا مدى اخلاصها لدعوتها . وايمانها بأحقيتها .

واذا كان ربك الرحمن الرحيم قد حملك هذه الامانة ، وكلفك
بجهاد الشيطان واوليائه ، والدخول في معركة طويلة الاجل مع الجاحدين
فانه لم يدعك أعزل في هذه المعركة ، بل فتح لك خزائنه ومستودعاته ،
تتزود منها بما يكفيك في هذه المواجهة ، وتتقلد من أسلحتها ما يضمن
لك النصر ان عاجلا او آجلا . وجعل باب ذلك كله الايمان العميق به
سبحانه ، والاحساس المتصل بعظمته وجلاله ، والحرص الشديد على
طاعته ورضاه . فاذا استطعت ان تفتح هذا الباب بعقلك وفكرك ،
وقلبك وذكره فتزود بعدها بكل ما يمتحك هذا الايمان من أسلحة ،
ولا تتردد في استيعابها ، وحملها بين جوانحك . واني مذكرك فيما
يلي ببعضها ، ولست بقادر على الاحاطة بها جميعا فان نعمة الله
بمعرفته ، والايمان به تذاق بالقلوب ، وتستشعر بالوجدان ، لا بالعد
والاستقصاء ، ولكنني أحاول بقدر المستطاع أن أنقل اليك بعض ما
يدركه عقلي منها ، وما يحسه وجداني ، وما عرفناه من الصالحين ،
وفوق ذلك كله ما عرفنا به رب العالمين ، في تنزيله الحكيم ، وهو نعم
المولى ونعم الوكيل :

١ - سلاح الثقة :

فاذا كنت مؤمنا بالله القوي العزيز فتسلح بسلاح الثقة التي لا
يأتيها شك ولا يعترئها وهن :

أ - فثق انك تركز الى أعظم قوة ، وتأوي الى حمى ملك لا يضام ،
بيده أعناق الجبابرة ، ومصائر الطغاة ، خالق كل شيء ، وواهب القوة
لمن يشاء وقادر على كل شيء . وثق أن الطغاة وسائل بين يديه سبحانه ،
يستعملها كيف يشاء فيعذب بهم من يشاء ، ويمتحن بهم عباده ليعلم
منهم الصابرين والثابتين .

وثق أن ربك أوفى الاوفياء ، وأصدق الواعدين : وعد الذين
ينصرونه بالنصر ، ووعد المؤمنين به بقسط من عزته ، ووعد العائدين

به بحسن الاستقبال وأكمل الحماية . انظر في قلبك هل يحس بهذين المعنيين العظيمين : الثقة بقوة الله . والثقة بنصره . هل تحمل بين ضلوعك هذا السلاح الرباني ؟ اني أدعوك الى حملة صباح كل يوم . وفي كل لحظة من نهار او ليل . وانظر بعدها كيف تقابل المنكر . وكيف تواجه الطفيان ، وكيف تكافح الضلال . الا تشعر عندما ينزاح الظلام . وتخرج في أول النهار انك ذاهب الى معركة . ومقبل على جهاد مرير : اما مع طاغية مغتر بما أعطي من السلطان . واما مع مغرور بجاهه او ماله او بجاه غيره وماله ، واما مع ضال ركب هواه وعبد غرائزه ؟ أليست تشعر أنك تغذ السير لتلحق بركب ضل الطريق تريد ان ترده الى صراط الله المستقيم ؟

ان هؤلاء قد تقلدوا اسلحتهم : هذا يخوفك بسلاح سلطانه . وهذا بسلاح جاهه ، وهذا بسلاح ماله او مركزه . وذاك بأسلحة الشهوة والغريزة ، وجنود الهوى . هنا تنفعك الثقة بعظمة الله وسلطانه ، وهنا يسهفك اليقين بنصرة الله ومعونته . فلا تهن ولا تيأس ولا تمل ولا تحزن ، لانك واثق من النتيجة وربح المصير .

والا فاعلم انه ان فاتك تقلد هذا السلاح . وخرجت لهم بقلب عار من هذا الاحساس . فأنت مهزوم لا محالة . بل مأسور لهم ولهواك . لانهم اعطوا من الدنيا أكثر مما أعطيت ، ولهم في نفسك جواسيس هواك وشهوتك .

ب - وثق أن دعوتك التي تدعو اليها الناس أصدق دعوة . وأبرك دعوة ، وان نهجها اصح نهج ، وان نظامها احكم نظام . وان دواءها أنجع دواء . بل ثق أن لا سعادة للبشر الا باتباعها . ولا سلامة لهم الا بانتهاجها ، ولا شفاء الا بتجرع دوائها . أليست آمنت بالله وأنه أحكم الحاكمين ؟ فثق اذن ان الحكمة في احكامه . والصواب في منهاجه . والسعادة في نظامه . واخرج على الناس بهذه الروح . فان الانسان

بطبعه يعرف لهجة الواثق ، ويدرك طمأنينته ويحس بها • وان لها من الهيبة عليه ، والوقع في نفسه مالا تحدثه السيوف •

ثق وانت تدعو الناس ان الشريعة التي تدعو اليها اكمل شريعة ، وامثل قول ربك في عقلك وقلبك : (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) (٩٥) • فاذا ذكرت السياسة فثق انك تدعو الناس الى سياسة أحكم الحاكمين ، مسخر كل شيء لما خلق له ، وعالم المصالح والمفاسد ، ومحِب الخير والصالح لعباده ، ومبغض الشر والفساد لهم • واذا ذكر العدل فثق انك تدعوهم الى قضاء أعدل العادلين ، المنزه عن الميل والهوى ، والغرائز والشهوات • واذا ذكرت الحرية فثق انك تدعو الى دين الحرية ، والى رب لا يقبل من العباد الا الخضوع له دون سواه ، ويبغض لهم الخضوع لاي مخلوق • واذا ذكرت القوة والمنعة فثق انك تدعو الى التحالف مع أقوى الاقوياء ، الذي له جنود السموات والارض • واذا ذكرت الوحدة فثق انك تدعو الى دين التوحيد •

ج - ثم ثق بصفات الله التي تعلمتها ووصف بها نفسه • ثق ان ربك قوي تقوى ، وانه عزيز تعز ، وأنه حكيم تسدد ، وانه عظيم ترتفع ، وأنه تواب غفور فلا تيأس ولا تقتط ، وأنه مؤمن تأمن ، وانه رحيم تطمئن • ثق بكل صفة هو أهلها تنل منها خيراً كثيراً •

ان الثقة بالله وقدرته ونصره يجعلك مقداما لا تهاب ، ثابتا لا تتردد • وان الناس لا يستجيبون لجبان ، ولا يمثّلون لمتردد •
ان سلاح الثقة الذي يمنحه لك الايمان له ثمرة تدل عليه ، ونتيجة يقتضيها ومظهر مؤثر في قلوب الناس ، وحد ماض قاطع ، لا يقف امامه أي اغراء ، ولا يثلمه اي تهديد او ترهيب : انه سلاح الصراحة ، والصّدق بالحق ، والوضوح في الدعوة ، وعدم المجاملة في الدين :

فيجب عليك ان تصدع بالحق صدعا ، كما صدع به رسولك الكريم ،
عليه الصلاة والسلام . وقدمه للناس كما تعلمته من ربك ورسوله ،
ولا تتنازل عن شيء منه : صغير او كبير ، قليل او كثير ، وقدم لهم
الدين بجوهرة الرباني ، وثوبه الالهي :

قدم لهم تصورك عن الانسان والكون والحياة وخالقهم كما علمك
ربك في قرآنه ، ولا تلبسه ثوبا جدليا ولا كلاميا .

قدم لهم ما يجب ان تكون عليه علاقتهم بخالقهم ، ولا تلبسها ثوبا
فلسفيا ، قدم لهم احكام ربك في سياسة الدنيا ، ولا تلبسها اي ثوب
من صنع البشر . قدم لهم تعاليم رسولك عليه الصلاة والسلام في الاقتصاد
ولا تلبسها ثوبا اشتراكيا .

اعرض عليهم بضاعة ربك في نظام الاسرة والمرأة ، كما تسلمتها
منه عن طريق رسوله ، ولا تزينها بزي التقدمية والتحررية .

ثم قل للناس : انكم اشقياء ، وبعدكم عن الله سبب شقائكم ، ولن
يخلصكم منه الا اتباع منهج الله ورسوله .

وقل لهم : انكم أذلة ، وعزتكم بالله ودينه ، وقل لهم : انكم فقراء ،
ولن يغنيكم الا فضل الله . وانكم خاسرون ، وتجارة الله لكم أربح ،
وأسمعهم بلهجة الواثق المستيقن قسم ربك ، (والعصر ان الانسان لفي
خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا
بالصبر) . ضع يديك على مواضع الالم من أرواحهم وقلوبهم ، واعلمهم
أن هذه هي أعراض جاهليتهم وبعدهم عن الله ودينه .

نعم ، سوف تجد منهم الاذى ، وسوف يرشقونك بسهام شهواتهم ،
وسوف يضايقونك بقيمهم وموازينهم . وهنا ينفعك ايمانك وثقتك
بربك ، ورجاؤك فيه ، وقد صدق ربك تبارك وتعالى ، اذ يقول : (ولا
تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فأنهم يألمون كما تألمون ، وترجون

من الله مالا يرجون ، وكان الله عليهما حكيما) (٩٦) ، فبالرجاء في الله تجد شفاء صدرك ، وهم لا يجدون . وبالثقة بنصره سبحانه تخفف من آلامك ، وهم في بحر الآلام مفرقون . حتى اذا يؤسوا من امنياتهم وايحاءات شياطينهم فاء العقلاء الى رشدهم ، سواء على يدك او على يدي غيرك من المؤمنين ، ولن يخذل الله اوليائه ، ولكن النصر للصابرين .

فان لم تقف في المعركة هذه الوقفة ، وترددت وتلعثمت ، وجاملت وتنازلت ، فلا تلمهم ان تمادوا في طغيانهم ، او لجوا في ضلالهم ، لانك بترددك تشعرهم بضعف مستندك وبمجاملتك لهم توحى اليهم بحسن ما هم عليه من الباطل ، وجودة بضاعتهم ، وزيف تجارتك ، وبتلعثمك توقع في أنفسهم وهن مرتكزك ، وخوفك من وسائلهم ، فتصدهم بذلك عن دعوتك ، وتدفعهم الى مزيد من التمسك بضلالهم .

٢ - سلاح الصدق والاخلاص :

اذا كنت مؤمنا بالله ، فتقلد - وانت تدعو الناس اليه - سلاح الاخلاص له ، والصدق معه :

فانه اذا كان الدعاة الى آلهة الارض وقيمها لجأوا الى سلطانهم ومالهم وجاههم ومكرهم ، وغير ذلك من اساليبهم ، فانك لا تحارب بشيء من هذا ، ولا تتوكل على بعض هذا ، ولا تستعين بشيء من ذلك ، وانما تستعين بصاحب السلطان كله وتتوكل على من له الامر من قبل ومن بعد ، وتطلب العون ، والنجدة ، ممن له جنود السموات والارض ، وتطلب السداد والتوفيق من أحكم الحاكمين ، وما عليك الا ان ترضيه سبحانه ، وتصدق معه العهد . وهذا هو الاخلاص الذي لا بد لك منه وانت تدعو الى الله ، فانه خلقك ، وانت له : قلبك له ، فلا يقبل منه ان يسعد بغيره ، ولا ان يخشى سواه ، ولا ان يرجو غيره ، ولا ان يحب غيره ، ولا ان يطمئن بغير ذكره . وعقلك من صنعه ، فلا يرضى

بان يشك فيه . ولا ان ينشغل عنه بغيره . ولا ان يتفكر في غير ملكوته .
وجوارحك كلها من فضله ومنته . فلا يقبل منها حركة ولا سكونا
يتقصد بها وجه غيره سبحانه .

هذه هي شروط ربك فالزمها اذا خرجت للدعوة . ولك بعد ذلك
منه تسديد وتوفيق وعون واعزاز واطمئنان وسكينة وهيبة . حتى
تصبح اذا ضربت ضربت بقوة العزيز الجبار . واذا ابصرت ابصرت
بنور الله الهادي . واذا تصرفت تصرفت بالهام العليم الحكيم .

وهذه سنة لا تتخلف . وقانون ليس له استثناء . فدقق النظر في
أحوال الناس تجدهم ينجذبون نحو المخلص لدعوته ، المهتم بها ، حتى
ولو كان يدعو الى آتفه الامور . فكيف اذا اخلصت لدعوة الله . فأسبغ
عليك عونه وتوفيقه .

ولتحذر من الرياء وعدم الاخلاص . فانه يقتل اعمالك ويبطلها .
وقد امرك ربك فقال : (ولا تبطلوا اعمالكم) (٩٧) . ويفوت عليك
معونة الله . فانه سبحانه خصصها لمن يبتغي وجهه ويقصد رضاه .

واعلم ان القلب وعاء للنيات والمقاصد والاهداف . فان لم تملأ هذا
الوعاء بنية تعظيم الله . وقصد رضاه . والنجاة من عقوبته ، فانه
سيمتلئ بنية تعظيم الدنيا ، وقصد الهوى . وهدف تحقيق الشهوات .
وعندئذ يموت قلبك . وتفقد دعوتك ماء حياتها فلا تؤثر في قلب
انسان ، ان لم ترد في وجهك .

وهذا امر ينطبق على جميع اعمال القلوب . فالحب مثلا من أول
هذه الاعمال فانظر ان لم يكن حبك لله ماذا ينتظرك من الخسران .
انك واقع لا محالة في حب الدنيا : في حب مال او جاه او سلطان او
شهوة . وعندئذ خسرت تجارتك ، فالله الذي عصيته لن يحبك ، لانه
جعل حبه لئلا يذيقه ، وسيحرمك امداده ومعونته ويكلك الى نفسك ومن

احببت وما احببت ، وهذه هي القاضية • واما الناس الذين تدعوهم فسوف يسخرون منك ومن دعوتك . لانهم يرونك قاليا للذي تدعوهم اليه ، بدليل انشغالك عنه بما في ايديهم ، بل ان حالك يدعو الى آلهتهم وشهواتهم . وان لسان الحال لمصدق اذا خالفه المقال ، وان هذا المقال لمكذب عند الناس اذا ناقضه لسان الحال • ثم انهم سيمقتونك ، لانهم يرونك تزاحمهم فيما استحوذوا عليه من حطام الدنيا ، وقلوبهم معلقة به . فيزدادون تعلقا به عندما يشتد طلبك لها ، وتمتليء قلوبهم حقدا عليك وكرها لك . لما يرونه من المنافسة لهم • وهكذا يؤول أمرك الى ان يصبح حالك عقبة تعترض سبيل الدعوة •

وخذ عملا آخر من أعمال القلوب : خذ الخوف والخشية والخضوع ، اتتني بقلب لا يخاف ولا يخضع . ولكن الفائز من وطن قلبه على خشية الله . وأمن سواه • واما الذين يأمنون الله ويخشون الناس فقد خسروا خسارانا مبینا . في الدنيا والآخرة . لانهم آمنوا من حقه ان يخشى أشد الخشية . لان وسائل البطش كلها من صنعه وخلقها ، فعرضوا بذلك أنفسهم لغضب الجبار ذي القوة المتين . فحرّمهم من الامن الحقيقي ، وملا قلوبهم رعبا وقلقا وجزعا •

ثم انك لا تقدر على اقناع الناس اذا كنت خائفا منهم ومن اساليبهم ، ومن حطام الدنيا الذي وقع بين أيديهم • انهم سوف يسخرون من حالك : تدعوهم الى أقوى الاقوياء ، فلماذا يرونك منهم خائفا ؟ ومن سلطانهم مرتجفا ؟ اذن ستوقع في حسهم ان ما يملكون خير واقوى مما تدعوهم اليه ، فتكون بذلك صادّا عن سبيل الله ، معوقا عن السير فيها والاهتداء اليها •

هذه بعض اعمال القلوب ، ان لم تخلص لله كانت كلمة صاحبها مردودة غير مقبولة • واعلم ان هذه سنة جارية في كل عمل ، سواء كان للقلب او للجارحة : فصلاتك وصيامك وزكاتك وحجك ، وذهابك واياك وزيارتك للناس ، وتعليمك لهم ، وغير ذلك ، ان خلصت لله كانت خير

دعوة و ابركها . وحظيت كلمتك بالقبول . والا فاعلم انها كما لا تسمن ولا تغني من جوع عند مالك يوم الدين . فكذلك هي في الدنيا لا تؤثر في أحد . فان اغتر مغتر بها لم يطل اغتراره . حتى اذا كشف له الامر كان أشد ضلالا . وأوغل في معاداة الدعوة التي تحملها . وكنت انت السبب في كل ذلك .

علمك - يا اخي المؤمن - أرد به وجه الله . يرفعك عنده وعند الناس ويعلمك الحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) (٩٨) . وما أكثره من خير ! فانك اذا اوتيتها اوتيت معرفة بكل وجوه الخير ، وفرقا بين الحق والباطل وفراصة لا ينطلي معها عليك خداع ، وتأثيرا في الناس ورفعة بينهم . واعلم أن الاخلاص مفجرها . والصدق في القول والعمل والنية مربيها ومنميتها ، لذلك قال أحد العلماء : (الصدق سيف الله ما وضع على شيء الا قطعه) ، وقال آخر : (ما أخلص عبد قط أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) .

ومن جهة أخرى فان اخلاصك لله يورث قلبك الثبات والسكينة والاستقرار ، فلا يتقلب فؤادك بين حب هذا وبغض ذاك ، والخوف من هذا والخوف من ذاك . فان هدفك واحد لا يتغير ، وطريقك واحد لان معبودك الذي تطلب رضاه واحد . وأما الذين يراءون بأعمالهم فما أكثر الهتهم : ترى قلوبهم بالامس متعلقة بشيء . واليوم بشيء . وغدا بشيء ، فلا يثبتون على حال ، ولا يستقرون على مبدأ ، يدعون اليوم الى ما كانوا منه في الامس يحذرون . ويحذرون غدا مما كانوا اليه اليوم يدعون . والناس لا يستجيبون لداعية متلون ولا متقلب .

٣ - سلاح الالتزام :

ان السلاح الثابت الذي يقلدك اياه ايمانك . وينبغي ان تتقلده . ايها الداعية ، هو الالتزام بأوامر ربك ، الذي آمنت به رقيبا عليك .

ومسجلا لاعمالك ، ومجازيك عنها ، وقادرا على نصرتك ان اطعته ،
وخذلائك ان عصيته • والالتزام بدعوتك التي تدعو اليها الناس •
الست تدعو الناس الى طريقها ، فكيف تلومهم اذا خالفوا مقالك
واتبعوا حالك ؟ تقول لهم : اذهبوا من هنا ، وانت ذاهب من هناك
فكيف يصدقونك وانت تكذب نفسك ، وتأتي على حجتك بالنقض
والابطال ؟ ان لسان الحال أقوى من المقال ، لان التطبيق العملي أوقع
في النفس من النظريات والادعاءات •

ألست تقول لهم : ان دعوتك أحسن دعوة ؟ فكيف يوافقونك وأنت
مخالف لها ؟ ألست تقول لهم : ان تجارتك اربح تجارة ؟ فكيف يتاجرون
بها وانت متاجر بسواها ؟ ألست تقول لهم : ان شجرتك ابرك شجرة ؟
فكيف يزرعونها وانت لم تزرعها ان لم تكن تقلمها ؟

ان رسولك الكريم ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم عرف بوحي
ربه وتعليمه كنه هذه النفس البشرية ، فعرف فيها اعجابا بالمثال ،
وانبهارا بالتجربة ، وامثالاً للعمل ، فكان عليه الصلاة والسلام أول
عامل أمام اصحابه ، وأول مقاتل أمام جنده ، وأول منقذ أمام أتباعه
فصدقه قولاً وعملاً •

ان من أهم أسباب ما نراه من عزوف الناس عن هدى ربهم ، سلوك
كثير ممن تقلدوا الدعوة ، ولم يمثلوها ، وحملوها على ألسنتهم ، ولم
يحملوها في قلوبهم وعلى جوارحهم •

وان اول ما يجب عليك أن تلتزم به علمك الذي تعلمته ، فانك به
قد أشهدت على نفسك انك عرفت الحق ، وبلغت الرسالة ، فان لم
تلتزمه ولم تعمل به كان حجة عليك أكد ، وبرهانا على تقصيرك يوم
الحساب • وفي هذه الدنيا لا يبارك الله فيه ، ولا يظهر له أثرا في خلقه ،
بل سيهجر كما هجرته ، فتنسأه ويضيع منك ، بعد ان تكون الحجة

قد قامت عليك • ولقد قال بعض العلماء : (ان العالم اذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب ، كما يزل القطر عن الصفا) (٩٩) •

ان الالتزام بما تدعو اليه من الاسلام فرع من فروع الدعوة في حد ذاته وصنف من أصنافها ، وطريقة مؤثرة من طرقها • وان أقل أحوال المسلم في الدعوة الى الله هو الدعوة بلسان الحال من الالتزام بما يدعو اليه ، مع انكار المنكر بقلبه •

٤ - سلاح التميز :

ان من أهم الاسلحة التي يسلحك بها ايمانك ، أيها الاخ الداعية ، والتي لا غنى لك عن تقلدها في معركتك مع الباطل ، تميزك الحاسم عن أهل الجهل والضلال ، والمفاصلة التامة بينك وبينهم ، والافتراق عنهم : في تصورك ، وفي مقاييسك وموازينك ، وفي أهدافك ومقاصدك ، وفي مشاعرك وأحاسيسك ، وفي اهتمامك وفي اصطلاحاتك وتعبيراتك ، وفي جوهرك ومظهرك •

ان هذه المفاصلة وهذا التميز هو الذي ربى عليه أحكم المرين سبحانه وتعالى . رسوله الكريم ، عليه الصلاة والسلام ، من أول الامر ، فقال عز وجل له وللمؤمنين : (قل : يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين) (١٠٠) ، أي فاصلهم يا محمد في كل عبادتك ، واعلم وأعلمهم أن طريقك غير طريقهم ، ومنهجك غير منهجهم ، وتصورك غير تصورهم ، فان العبادة في اصطلاح الله شاملة لكل انقياد ، وكل خضوع ، وكل استسلام ، وكل تقديس ، وليست مجرد ركوع وسجود (١٠١) •

(٩٩) انظر كتاب اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ، مطبوعة مع عدة رسائل ص ١٩٢ •

(١٠٠) سورة الكافرون •

(١٠١) انظر تفسير سورة الكافرون لسيد قطب رحمه الله في « في ظلال القرآن » - المجلد ٨ ، ٦٨٦ - ٦٩٠ •

ان مجرد دخولك في دين الله يلزمك بهذا التميز . وهذه المفاصلة ، فانك بالشهادتين انتسبت الى جيش الله ورسوله عليه الصلاة والسلام . ودخلت تحت قيادتهما ، وتسلمت شارათهما وأعلامهما ، وظيفتك ان تهاجم جيش الشيطان من غير اختلاط معه . ولا اقتباس منه . ولا انخراط فيه .

أحكامك التي تلتزمها ، ومقاييسك التي تقيس بها ، وتصوراتك عن الحياة والوجود ، وأخلاقك التي تتخلق بها ، كلها يجب أن تتلقاها من الله عن طريق رسوله . عليه الصلاة والسلام : فلا تحتكم الا الى حكم الله . ولا ترفع الا ما رفع الله . ولا تحتقر الا ما احتقر ومن احتقر ، ولا تحب الا ما أحب ومن أحب . ولا تبغض الا ما أبغض . وتكون هكذا في جميع احوالك واعمالك . فقد أعلمك ربك ان الطرق اثنتان لا ثالث لهما ، فقال معلما لك : (فماذا بعد الحق الا الضلال) (١٠٢) ، ففي الكون كله دينان ، لا ثالث لهما : دين الله الذي دخلت فيه السموات والارض ، وكل مخلوق سوى الكافرين ، وخرج منه الكافرون من الانس والجن . ودين الهوى الذي دخل فيه الكافرون من الانس والجن وخرج منه المؤمنون منهم وجميع المخلوقات الاخرى .

وهذه المفاصلة تعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه ، ثم علمها للمؤمنين ، حتى غرسها في قلوبهم وأرواحهم ، فظهرت على جوارحهم . فقد علمهم ان المسلم لا يقبل منه أن يقف على الحياد في معركة الحق مع الباطل ، وانما يجب عليه ان يدخل فيها بجانب الحق ، وبأي سلاح شرعه الله ، ولو كان انكارا قلبيا .

الا ترى كيف دعاك الرسول عليه الصلاة والسلام — ان لم تستطع مجابهة المنكر — الى ان تملأ قلبك بالحق عليه والانكار له ، حتى لا يتميع هذا القلب ، ويركن الى أساليب الشيطان ، فقال صلى الله عليه

وسلم : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان) (١٠٣) ، فهذه هي مدينة الايمان والمؤمنين ، آخر حدودها مع الكفر والجاحدين الانكار بالقلب والكره بالمشاعر لكل منكر ، فمن جاوزها ، فاطمأن قلبه للمنكرات ، ولو لم يفعلها بنفسه ، فقد خرج من مدينة الله ، ودخل حظيرة الشيطان وأوليائه ، أعاذنا الله منه ومن جنوده .

ولهذا السبب وجدنا الزسول عليه الصلاة والسلام يحشر في زمرة المنافقين من مات ولم يقاتل الكفار ، ولم يحدث نفسه بقتالهم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : (من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق) (١٠٤) ، فانه عليه الصلاة والسلام يطالب الذين لم تتح لهم الفرصة بمواجهة الكفار ان يجهزوا قلوبهم ببغضهم ، والحقدهم على كفرهم ، حتى اذا ما حانت لهم الفرصة نازلوهم وقتلوهم . فانه عليه الصلاة والسلام يكلف اتباعه بالمخالفة القلبية لاهل المنكر والضلال اذا اعييتهم المخالفة الفعلية ، حتى يكونوا مؤهلين لها عندما تحين الفرصة .

ولذلك كانت الهجرة الى الله ورسوله ضرورة لتحقيق هذا التميز للمؤمنين فانها اول مظاهر الانخراط في جيش الله ، والعلامة المميزة لقبول الجهاد في صفه ضد الشيطان وجنده .

والهجرة لها درجات ومراتب : اولها واوجبها على المؤمنين تلك الهجرة الشعورية لكل ما عليه اهل الجهل والغفلة من تصورات واهتمامات وأعراف وتقاليد وقيم . ثم الهجرة الفعلية والاعتزال الحقيقي لاهل الباطل . والاولى ضرورة للمؤمنين في كل ظرف وعلى كل حال . والثانية يكلفون بها عندما يمن الله عليهم بالقدره عليها ، ولا يكون في اظهارها فناء الفئة المؤمنة .

(١٠٣) تقدم تخريجه في ص ٩٤ .

(١٠٤) أخرجه مسلم - انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٣ ص ٥٦ .

وقد عرفت فيما تقدم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه أصحابه فاصل كفار قريش في مكة في جميع معبوداتهم ، وثبت على دين الله عز وجل ، وحقر من تصوراتهم وعاداتهم وتقاليدهم كل مالم يأذن به الله ، ورفض بشدة ووضوح وقوة كل مساومة دخلوا فيها معه ، وثبت على الحق الذي من الله به عليه ، حتى بارك سبحانه في اتباعه ، ويسر له من عباده من يحمل معه الدعوة بنفس الطريقة التي علمهم اياها . وعندئذ هاجر الى المدينة المباركة . وفاصل الكفار مفاصلة حاسمة ، حتى أصبح الامر ، وليس في الدنيا سوى دارين : دار اسلام يحكم فيها رب العباد ، وأخرى دار كفر يحكم فيها الهوى والشيطان .

وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام في كل زمن مكلفون باتباع منهجه ، لانه منهج رباني من عند الذي أرسله للناس أجمعين ، فانه لا ينطق عن الهوى ، ولا يتصرف الا بتخطيط الله وتسديده .

٥ - سلاح الاخوة :

فان الايمان الصادق يثمر شعورا بالاخوة لجميع المؤمنين ، فيربط بينهم برباط قوي لا يفصم عراه اي مؤثر من المؤثرات ، كما قال تعالى (انما المؤمنون اخوة) (١٠٥) .

فكل عبد شهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله يصبح أخا لجميع من قالها قبله ، وكل من يقولها بعده ، ويكون له بها جميع حقوق الاخوة وواجباتها تجاه اخوته .

وهذه العلاقة التي بينها الايمان بين المؤمنين تزيد من قوتهم أفرادا وجماعة أضعافا مضاعفة . فكل فرد يكتسب بهذه الاخوة قوة في نفسه ترفدها قوة اخوانه المسلمين . وقد أشار الى هذا المعنى قول الله تعالى : (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) (١٠٦) . وقول الرسول

(١٠٥) الحجرات - الآية ١٠ .

(١٠٦) الانفال - الآية ٦٢ .

صلى الله عليه وسلم ، (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) (١٠٧) .

وجماعة المؤمنين تصبح بهذه العلاقة الربانية قوة متماسكة في وجه الشر والباطل ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم مثل الجسد : اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) (١٠٨) .

ذلك أن الاخوة التي يثمرها الايمان ليست مجرد شعار او عنوان ليس له مضمون ، وانما هي علاقة يعقدها الله سبحانه بين عباده المؤمنين ، ويكلفهم بالقيام بحقوقها تجاه بعضهم بعضا ، وبذلك تمت هذه العلاقة المؤمن ، في الجماعة المؤمنة ، والجماعة بمجموع أفرادها المؤمنين ، بأسلحة مؤثرة في مواجهة الكفر والطغيان .

وهذه الحقوق التي تولدها الاخوة الايمانية هي في حقيقتها وسائل تقوية للجماعة المؤمنة ، وهي كثيرة ، فصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من الاحاديث ، منها ما هو وقائي حافظ للجماعة من اي عامل من عوامل الضعف والوهن . ومنها ما هو ايجابي يزيد في قوة الجماعة وتأثيرها .

ومن الاول ما ورد في قوله عليه الصلاة والسلام : (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله اخوانا . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله ، التقوى ههنا ، ويشير الى صدره ثلاث مرات . بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه) (١٠٩) فانظر يا أخي الداعية كم تكون قوة الدعاة اذا وقفوا

(١٠٧) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري في كتاب الادب . باب فصل تعاون المؤمنين ج ١٠ ص ٣٦٩ ، كما

اخرج هذا الحديث الامام مسلم والترمذي - انظر هداية الباري ج ٢ ص ١٦١ .

(١٠٨) متفق عليه . واللفظ للبخاري - انظر صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١ ص ٣٦٠ .

(١٠٩) رواه مسلم - انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ ص ١٢٠ .

عند هذه الحدود التي حددها لهم الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومن الثاني قوله عليه الصلاة والسلام : (حق المسلم على المسلم ست : اذا لقيته فسلم عليه واذا دعاك فأجبه ، واذا استنصحك فانصح له ، واذا عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعده ، واذا مات فاتبعه) (١١٠) ، وقوله عليه الصلاة والسلام (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (١١١) .

ومما جمع النوعين في كلمات بليغة موجزة قوله عليه الصلاة والسلام : (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنصره ، اذا كان مظلوما أ رأيت ان كان ظالما كيف أنصره ؟ قال تحجزه او تمنعه من للظلم فان ذلك نصره) (١١٢) .

وفي هذا المقام أذكر الاخ المسلم بان مضمون الاخوة اليمانية لا يتحقق بين المؤمنين الا بولاية بعضهم بعضا ، وقطع كل ولاية لعدوهم . ولذلك فان الله عز وجل قرر في كتابه الكريم أن من أهم صفات الجماعة المؤمنة التي تدعو الى الله ، وتأمّر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ان بعضهم اولياء بعض ، قال عز وجل في سورة التوبة : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، اولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم) (١١٣) ، فانظر أيها الاخ القاريء كيف قدم الله تعالى هذه الصفة على الوظائف الاخرى التي كلف الفئة المؤمنة ان تقوم بها ، فالنص يطلب من المؤمنين ان يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ويعبدوا الله عز وجل ويطيعوا رسوله ، ولكنه يطلب ذلك كله منهم من منطلق تولي بعضهم بعضا .

(١١٠) متفق عليه واللفظ لمسلم . انظر : رياض الصالحين ص ١١٧ .

(١١١) متفق عليه - المرجع السابق .

(١١٢) رواه البخاري - المرجع السابق .

(١١٣) براءة - الآية ٧١ .

فعلى الاخ الداعية ، اذا أراد ان يكون مؤثرا في دعوته الى الله عز وجل ودينه ان ينضم الى جماعة المؤمنين . ويخطط معهم من اجل انقاذ الناس من الضلال ، وينظم حركاته وأعماله بما يتفق مع حركة تلك الجماعة . ولا يناقضها سواء كان ذلك في تربية نفسه وفق منهج الله عز وجل . او في وسائله العملية في دعوة الناس الى دين الله . او في محاربة الكفر والجهل واهلهما .

كما يجب على المؤمنين في بقاع الارض ان يبحثوا عن بعضهم بعضا ويتجمعوا ، ويؤمروا لانفسهم اميرا ، لان حقيقة الولاية لا تتحقق الا بهذا . وخاصة أن أعداءهم لا يواجهونهم متفرقين ، وانما من خلال جماعات منظمة لها أمراء وخطط جماعية ، مصداقا لقوله تعالى : (والذين كفروا بعضهم اولياء بعض) (١١٤) وقوله تعالى : (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم . ان المنافقين هم الفاسقون) (١١٥) .

فيا أيها الاخ الداعية ، عليك باخوانك المسلمين . ابحث عنهم ، وانضم الى ركبهم . حتى يكون جهدك في الدعوة مثمرا ومباركا . والزم قول رسولك الكريم عليه الصلاة والسلام : (عليكم بالجماعة . فان الشيطان مع الواحد . وهو من الاثنين أبعد . من أراد بحبوة من الجنة فليلزم الجماعة) (١١٦) . وليست الجماعة التي يدعوك اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى الجماعة التي تسير على دربه وتظهر عليها وعلى أفرادها سمات الاسلام . من الطاعة والالتزام بأوامر الله وسنة رسوله . وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله : (انما وليكم الله ورسوله

(١١٤) الانفال - الآية ٧٣ .

(١١٥) براءة - الآية ٦٧ .

(١١٦) رواء الترمذي : وقال . حسن صحيح عريب من هذا الوجه - انظر : عارضة الاحودي ج ٩ ص ١٠ .

والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون .
ومن يقول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) (١١٧) .

ولا تقولن : ان الامر في اكتشاف هذه الجماعة صعب ، فان الله سبحانه عندما يكلفك بالعمل مع جماعة المؤمنين لا يكلفك بأمر لا يمكن تنفيذه ، فقد تقدم قوله سبحانه : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسيرون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله) . وقوله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) . ومن يتتبع الآيات الكريمة التي تحدثت عن صفات المؤمنين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر يستطيع أن يتبين ملامح هذه الجماعة التي يجب على كل مؤمن ان يقف منها موقفا ايجابيا بالعون والنصرة . ويجمع هذه الصفات والملامح لهذه الجماعة انها تدعو الى تحقيق مضمون الشهادتين في حياة الناس ، بما في هذا المضمون من عموم وشمول . كما انه يظهر على افرادها الالتزام بهذا المضمون في أنفسهم وفيمن يتولون أمرهم من أهل وولد وغيرهم ، والفهم العميق الشامل لدين الله عز وجل ، والسعي الجاد لتحكيم شريعة الله في الارض ، والتربية المطابقة لها في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

المبحث الرابع في جهاد المنافقين

ان من أخطر أعداء الدعوة الاسلامية ، وأشد المعوقات لسيرتها وتقدمها ، حركة النفاق التي تبتلى بها الفئة المؤمنة ، بمجرد أن تظهر لها فاعلية في الارض ، فيحسب لها الكفار كل الحساب ، ويخشون امتداد أثرها بين العباد ، فيتظاهروا بعضهم بالاسلام والايمان ، مبطنين الكفر في أعماقهم ، ليجدوا لهم مكانا مناسباً بين جماعة المسلمين ، يوجهون منه ضرباتهم لدعوة الاسلام ، ويسترون به مكائدهم وخططهم ومؤامراتهم ضدها ، ويدفعون عن انفسهم ما يستحقون من العقاب . وينتهزون الفرص المواتية لنيل المكاسب الدنيوية . يبتغون من كل ذلك الامعان في محاربة الاسلام ، من غير أن يعرفوا أو توجه لهم الانظار ، لتكون حربهم على المسلمين أدوم ، وأخطر ، وأشد أثراً في التعطيل والتخريب من حرب الكفار المجاهدين ، الذين يحسب حسابهم ، ويمكن الوقوف أمامهم والحد من ضررهم ، لوضوحهم أمام المؤمنين ، ووضوح اماكنهم وأساليبهم .

من هنا كان هذا الصنف من الاعداء أخطر من غيرهم على دعوة الاسلام ، ودولة المسلمين ، لخبث أساليبهم ، وكمون عداوتهم ووصولهم الى مواقع بين المسلمين ، لا يصل اليها غيرهم من الكفار ، ويكفيك في ادراك مدى خطورتهم أن تعلم أنهم قاعدة الكفر المستترة في ديار الاسلام ، ومنفذ الكفار الى قلب الأمة المسلمة ، فهم أعوان كل عدو للمسلمين وأولياؤه (١) .

لذا كان جهادهم من ألزم الجهاد على المؤمنين ، واتخاذ الحيطة منهم أوجب من اتخاذها من غيرهم . ولا ادل على هذا من ذلك الحيز الكبير

(١) الحضارة الاسلامية لابي الاعلى المودودي ص ٢٩٤ .

الذي شغله الحديث عنهم في كتاب الله العزيز ، فانه لا تكاد سورة مدنية تخلو من القاء الأضواء الكاشفة على هذا الصنف من أعداء الاسلام ، حتى بلغ ما خصص للحديث عنهم وعن أحوالهم ، وأساليبهم في معارضة الدعوة الاسلامية وصفاتهم الخبيثة ، ما يقارب عشر القرآن الكريم ، ونزلت سورة بكاملها فيهم سميت باسمهم (٢) .

من أجل ذلك حذر الله عباده منهم ، وأمرهم بالحذر منهم ، وجهادهم قال تعالى عنهم في سورة «المنافقون» (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مستندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون) (٣) ، اي هم العدو الحقيقي العدو الكامن داخل المعسكر ، المختبيء في الصف ، فهو أخطر من العدو الخارجي ، فهم العدو الاول للمسلمين ، يجب أن يحتاط لهم ، وأن يحذروا أكثر من غيرهم (٤) .

هذا وأن أعظم الحديث فائدة في جهاد المنافقين ، وأنفعه للمؤمنين في مواجهة هذا الصنف الخطير من أعدائهم هو ما ورد في كتاب الله عنهم ، وهو كثير كما علمت ، ولا يترك زيادة لمستزيد . ونقتبس منه في هذا المقام ما يكشف لنا عن أمرين مهمين :

الأمر الأول : صفات المنافقين وأساليبهم .

الأمر الثاني : وسائل جهادهم .

أولا : صفات المنافقين وأساليبهم :

عرفت فيما تقدم أن خطورة المنافقين في الدعوة الاسلامية تكمن في استتارهم عن المؤمنين ، وخفاء أساليبهم في المكر والكيد ، وتظاهرهم بالايمان ، والتلبيس على عباد الله بالمظهر المزيف الذي يخفي وراءه حقدا وعداء .

(٢) في ظلال القرآن - المجلد الثامن ص ١٠٤ ، آيات الجهاد ص ٣١٧ .

(٣) المنافقون - الآية ٤

(٤) في ظلال القرآن - المجلد الثامن ص ١٠٨ .

ولكن الله ، بفضلته ، قد كشف لجنده سترهم ، وأزاح عنهم الغطاء الذي نسجوه بنفاقهم ، وبين صفاتهم وخصائصهم وأساليبهم ، وما يستتر وراء أفاعيلهم من النوايا الخبيثة . والكفر الاصيل ، والعقد الدفين ، ليكون المؤمنون على حذر منهم في كل زمان ، لان ما تنزل فيهم من الآيات الكاشفة عنهم لا تختص بأولئك الذين نزلت فيهم ، وانما تشملهم وتشمل غيرهم في كل جيل وهي تحليل صادق من العليم الخبير للنفس الانسانية التي يغزوها النفاق في كل عصر (٥) .

وهذه الصفات بعضها يدل على غياب الايمان من قلوب أصحابها ومن ارتكس في شيء منها كان من الكافرين المخلدين في جهنم . اذا مات عليها ولم يتب ، ومنها ما يتعلق بالعمل ، ويدل على ضعف الايمان وان لم يكن قرينه قاطعة على غيابه بالكلية ، وهو بمفرده من أكبر الذنوب . فان كان ضمن حد لا يدل على خلل في العقيدة لم يخرج صاحبه من دائرة الايمان ، وان عد كبيرة من الكبائر . ولكن قد يكثر نفاق العمل ويصبح صفة ملازمة لصاحبه ، بحيث يكون قرينة قوية تدل على وجود خلل في الاعتقاد ، أو يكون العمل مما لا يمكن تأويله الا بحمله على سوء الاعتقاد بالله أو برسوله أو باليوم الآخر ، فيكون صاحبه من الصنف الأول (٦)

(٥) انظر : في ظلال القرآن - المجلد الاول ص ٢٥ رجال الدعوة والفكر في الاسلام ص ٦٢ .

(٦) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٧ ، الصارم المسلول ص ٣٤ . الفرقان بين اولياء الرحمن واولياء الشيطان ص ١٤ ، تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، احكام القرآن لابن العربي ج ٢ ص ٩٧٥ . ويقول العماد ابن كثير في بيان تعدد درجات الايمان والكفر والنفاق مانحه : (فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمة - يعني أوائل سورة البقرة - أن المؤمنين صنفان : مقربون وأبرار . وأن الكافرين صنفان : دعاة ومقلدون ، وأن المنافقين أيضا صنفان : منافق خالص ، ومنافق فيه شعبة من نفاق ، كما جاء في الصحيحين عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه واحدة منهم كانت فيه خصلته من النفاق حتى يدعها : من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا أؤتمن خان » استدلو به على أن الانسان قد تكون فيه شعبة من نفاق : اما عملي لهذا الحديث ، واما اعتقادي كما دلت عليه آيات سورة البقرة ... ثم ساق حديثا أخرجه الامام احمد عن ابي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن ، فسراج فيه نوره . وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص ، عرف ثم انكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه ايمان ونفاق ، ومثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم ، فاي المادتين غلبت على الاخرى غلبت عليه » وهذا اسناد جيد انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٦ .

واليك فيما يلي طائفة من هذه الصفات والاساليب ، وما دل عليها من الآيات الكريمة :

١ - ابطان الكفر والتظاهر بالايمان :

وهذه الصفة هي أصل النفاق في قلوب المنافقين . وكل ثمرة بعدها وكل شر يصدر عنهم متفرع عن هذا الأصل . ويدل عليها قول الله تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) (٧) . وهؤلاء الذين تحدث عنهم هذه الآيات وما بعدها هم المنافقون ، كما اتفق عليه السلف والخلف من المفسرين (٨) . ومثل هذا قوله عز وجل : (اذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) (٩) .

فهذا الصنف من الناس يدعون الايمان ، وهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين (١٠) ولكنهم منافقون لا يجرؤون على التصريح بحقيقة شعورهم في مواجهة المؤمنين ، فهم كما قال الله عنهم : (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا : انا معكم انما نحن مستهزؤون) (١١) .

٢ - صفة المخادعة :

ذلك ان المنافقين لما اتخذوا لانفسهم تلك الصورة الملونة ، وذلك المركز المذبذب ، لم يتمكنوا من الحفاظ عليه الا بالمخادعة ، فصارت هذه الصفة طبيعة فيهم ، ولاصقة بهم . قال الله عز وجل عنهم :

(٧) البقرة - الآيات ٨ - ١٠ .

(٨) انظر : تفسير مجاهد ص ٦٩ . وتفسير الطبري ج ١ ص ٢٦٨ وما بعدها ، وتفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٧ . وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٥٤ ، وأحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ١١ .

(٩) المنافقون - الآية ١ .

(١٠) الحضارة الاسلامية ص ٢٩٥ ، سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، محمد عزة دروزه ص ١٨٥ .

(١١) البقرة - الآية ١٤ .

(يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون) ،
اي انهم يخادعون الله والمؤمنين باظهارهم ما أظهروه ، مع اسرارهم
الكفر ، ويعتقدون بجهلهم انهم يخدعون الله بذلك وان ذلك نافعهم
عنده ، وانه يروج عليه كما قد يروج على بعض العباد ، وما يدرون
أنهم يخدعون انفسهم . حين يظنون انهم بفعلهم ذاك ينالون أمانهم
وهم في الوقت ذاته يوردونها موارد التهلكة بالكفر الذي يضمرونه
والنفاق الذي يظهرونه (١٢) .

ويستبيح المنافقون في مخادعة المؤمنين كل وسيلة تستر حقدهم ،
وعداوتهم من الأيمان المغلظة ، والآقوال المنمقة ، المثيرة للاعجاب ،
قال سبحانه وتعالى : (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ،
ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام . واذا تولى سعى في الارض
ليفسد فيها و يهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد) (١٣) ، وفيهم
نزل قوله تعالى : (وليلحن ان اردنا الا الحسنى ، والله يشهد انهم
لكاذبون) (١٤) . وقوله تعالى (ويحلفون بالله انهم لمنكم وماهم منكم
ولكنهم قوم يفرقون) (١٥) ، وقوله تعالى : (يحلفون بالله لكم ليرضوكم
والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين) (١٦) ، وقوله تعالى :
(اذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك
لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون . اتخذوا ايمانهم جنة ،
فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون) (١٧) .

٣ - العزوف عن التحاكم الى الله ورسوله ، وعدم الرضا بحكمهما :

وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى : (ألم تر الى الذين يزعمون انهم
آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، يريدون ان يتحاكموا الى

(١٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٨ ، في ظلال القرآن ، مجلد ١ ص ٤٦ .

(١٣) البقرة - الآيات ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(١٤) التوبة - الآية ١٠٧ .

(١٥) التوبة - الآية ٥٦ .

(١٦) التوبة - الآية ٦٢ .

(١٧) المنافقون - الآيات ١ ، ٢ .

الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا (١٨) ، ويقول سبحانه : (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ، اذا فريق منهم معرضون . وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين . افي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون . انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا : سمعنا وأطعنا) (١٩) .

وهذه صفة من ابرز صفات المنافقين ، فهم يرغبون عن حكم الله تعالى الى حكم اهل الجاهلية من الطواغيت (٢٠) . وخاصة اذا كانوا يخشون ان يظهر حكم الله باطلهم وظلمهم ، ويلزمهم بالحق . هكذا كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم كذلك في كل زمان . وقد قيل في سبب نزول آيات سورة النساء السابقة ، انها نزلت في رجل من المنافقين ورجل من اليهود ، كان بينهما خصومة ، الحق فيها لليهودي . فكان اليهودي يريد التحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما يعلمه من عدله ، وعدم قبول الرشوة . وكان المنافق يريد التحاكم الى بعض طواغيت الجاهلية (قيل الى كعب بن الاشرف ، وقيل الى كاهن من الكهان) . فأنزل الله تعالى تلك الآيات تبين كفر من لا يرضى بحكم الله وحكم رسوله ، وتفضح المنافقين الى يوم الساعة (٢١) .

والناظر في أسباب نزول تلك الآيات السابقة يجد أن الله عز وجل قد حكم بكفر ونفاق أناس كرهوا التحاكم الى شرعه في جزئية من الجزئيات ، وأرادوا أن يتحاكموا الى الطاغوت فيها ، فكيف بمن يدعي

(١٨) النساء - الآيتان ٦٠ ، ٦١ .

(١٩) النور - الآيات ٤٧ - ٥١ .

(٢٠) الحضارة الاسلامية لليهودي ص ٢٩٦ ، سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ص ١٩٦ .

(٢١) انظر أسباب نزول تلك الآيات في : تفسير الطبري ج ٨ ص ٥٠٧ - ٥١٣ وتفسير ابن كثير ج ١ ص

٥١٩ . والصارم المسلول لابن تيمية ص ٣٨ ، ٣٩ .

الى التحاكم الى شرع الله في شؤون الحياة كلها ، فيرفض ذلك ، وهو يتظاهر بالاسلام ، ويرغب عن شريعة الاسلام جملة واحدة ، ويهرع الى استيراد الشرائع من الكفار وأهل الكتاب في الشرق والغرب ، فيحكم بحكمهم في الناس : في السياسة والاقتصاد ، والعقوبات وغيرها ، ويترك حكم الله في كل ذلك ؟ فلعمري الحق ان نفاق هؤلاء وكفرهم لأشد من نفاق اولئك وكفرهم أضعافا مضاعفة ، لان من رفض نظام الله المنزل لعباده جملة واحدة أعرق في الكفر ممن رغب عنه في قضية معينة تخصه دون غيره ، وكلاهما كافر منافق في حكم الله عز وجل ، وان ادعى انه مسلم .

٤ - موالة الكفار وممالأتهم على المسلمين :

وذلك أن المنافقين أقرب ، في حقيقة الامر ، الى الكفار منهم الى المؤمنين . بل لا صلة تربطهم بالمؤمنين الا من حيث الظاهر ، وما أقاموا هذه الصلة مع المؤمنين الا لخدم أوليائهم وشياطينهم من الكفار ، فهم صنائع الكفار بين المسلمين ، وهم مع الكفار عليهم (٢٢) ، كما أخبر الله عز وجل عنهم فقال : (واذا لقوا الذين آمنوا ، قالوا : آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا : انا معكم انما نحن مستهزؤون) (٢٣) .

وقد بين الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة ، وهذه العلاقة بين المنافقين والكفار في عدة آيات كريمة منها قوله تعالى : (وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم : تعالوا قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون) (٢٤) .

بل قرر سبحانه أن المنافقين يرتبطون مع الكفار برباط اخوة الكفر ، فقال عز وجل : (ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لآخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع

(٢٢) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٦٦ ، الحضارة الاسلامية للمودودي ، ص ٢٩٧ ، سيرة الرسول ص ٢٠٤ .

(٢٣) البقرة - الآية ١٤ .

(٢٤) آل عمران - الآية ١٦٧ .

فيكم أحدا أبدا ، وان قوتلتهم لننصرنكم ، والله يشهد انهم
لكاذبون (٢٥) ، وقال تعالى : (ألم تر الى الذين تولوا قوما غضب الله
عليهم ، ما هم منكم ولا منهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) (٢٦) .
وقال أيضا : (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ، الذين يتخذون
الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ايبتغون عندهم العزة ، فان العزة
لله جميعا) (٢٧) .

وتثمر هذه الاخوة المعقودة بين المنافقين والكفار مؤامرات وخططا
وكيدا للمؤمنين ، واغراء بهم . ومعظم المصائب التي تحل بديار الاسلام
انما تأتي عن طريق خيانة المنافقين ، اذا لم يجاهدوهم المخلصون ،
ويوقفوهم عند حدهم ، ويبعدوهم عن ثغورهم ، وعن مراكز القوة
فيهم ، ومراكز الحكم والتوجيه لعباد الله عز وجل .

وهكذا كانت مواقف المنافقين من دعوة الاسلام على مر العصور ،
ونذكر فيما يلي أمثلة لهذه المواقف التي وقفوها من المسلمين في عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أ - فبعد غزوة بدر نقض بنو قينقاع من اليهود العهد الذي كان
بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام وإعتدوا على بعض المسلمين
وعلى حرمة الاسلام فسار اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومكنه
الله منهم ، فقام يتشفع فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ،
وقال : يا محمد احسن في موالي ، فأعرض عنه الرسول صلى الله عليه
وسلم ، وظل يلح عليه فيهم ، ويقول له : انهم موالي وعترتي وانا
امرؤ أخشى الدوائر ، الى أن خلاهم الرسول عليه الصلاة والسلام
ولم يقتلهم ، واكتفى باجلائهم عن المدينة .

(٢٥) الحشر - الآية ١١

(٢٦) المجادلة - الآية ١٤ .

(٢٧) النساء - الآيتان ١٢٨ - ١٢٩

وتذكر كتب السيرة ان ابن ابي لم يرضه حكم الرسول باجلانهم بل ذهب الى منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسأله في اقرارهم ، فحجب عنه ، فأراد الدخول فدفعه بعض الصحابة ، فصدم وجهه الحائط ، فشجه ، فانصرف مغضبا ، فقال بنو قينقاع : لا نمكث في بلد يفعل فيه بأبي الحباب هذا ولا نتصر له ، وتأهبوا للجلاء (٢٨) .

هذا وقد نزل في عبد الله بن ابي بن سلول ، وموالاته لليهود قول الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منهم فانه منهم ، ان الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي بالفتح او أمر من عنده ، فيصيحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم انهم لمعكم . حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين .) الى قوله تعالى : (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) (٢٩) .

ب - وفي غزوة أحد كان لهم موقف معروف في موالة المشركين وتخاذيل المسلمين ، حيث انسحبوا من جيش المسلمين ، ورجعوا بثلاث الناس قبل وصول أحد ، مبتغين بذلك اضعاف الجيش المسلم أمام الكافرين . ويستشف من الاحداث ان هذا التخاذيل الذي قام به المنافقون كان باتفاق بينهم وبين اليهود ، فقد لوحظ قبل المعركة انه اجتمع تحت زعامة عبد الله بن ابي بن سلول اكثر من ثلاثمائة منافق ، وعدد كبير من اليهود يزيد على ستمائة ، رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستعين بهم في جيشه ، مما يشير الى مؤامرة دبرت من اليهود والمنافقين كانت تستهدف الميل على المسلمين والكيد لهم ، ولكن الله

(٢٨) انظر : سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٢٨ ، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٧٨ ، وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٩

وتفسير الطبري ج ١٠ ص ٣٩٦ ، دراسة في السيرة - الدكتور عماد الدين خليل ص ٣٧٢ .

(٢٩) المائدة - الآيات ٥١ - ٥٦ .

سبحانه وتعالى نصر جنده . وخذل اليهود والمنافقين ورد مكرهم الى نحورهم (٢٠) .

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى في صنيع المنافقين في احد آيات فضحهم فيها ، وبين أنهم أقرب الى الكفار منهم الى المسلمين فقال عز وجل : (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم : تعالوا قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتبون) (٢١) .

ج - وعندما نقض بنو النضير العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بمحاولتهم قتله ، أمرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بالجلء عن المدينة ، وأجلهم عشرة أيام ، لا يرى أحدهم بعد ذلك الا ضرب عنقه . ولما هموا بالجلء أرسل اليهم المنافقون بزعامة عبد الله بن ابي يقولون لهم : لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم ، ان قوتلتم فلکم علينا النصر وان اخرجتم لن نتخلف عنكم . وأرسل اليهم ابن ابي يقول : لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم ، فان معي الفين من قومي وغيرهم من العرب ، يدخلون حصونكم ، ويموتون عن آخرهم قبل ان يوصل اليكم وتمدكم قريظة وحلفاءكم من غطفان . وكان هذا التحريض من المنافقين سببا في احجام بني النضير عن الجلاء ، وتجهزوا للقتال ، ولم يف لهم ابن ابي والمنافقون بما أخذوه على أنفسهم ، ولم يخفوا لنجدتهم (٢٢) .

وفي هذا الموقف الذي وقفه المنافقون من الرسول عليه الصلاة والسلام نزل قوله تبارك وتعالى : (ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لآخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع

(٢٠) انظر : آيات الجهاد ص ٢٢٠ .

(٢١) آل عمران - الآيتان ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٦١ .

فيكم احدا أبدا ، وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون ،
لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن
نصروهم ليوطن الأديار ثم لا ينصرون ، لانتم أشد رهبة في صدورهم من
الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون (٣٣) .

د - ومن مواقفهم في الاستعانة بأهل الكتاب على المسلمين ما اشار
اليه الله سبحانه وتعالى في قوله : (والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا
وتفريقا بين المؤمنين ، وارضادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن
ان أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون) (٣٤) .

وسبب نزول هذه الآية أنه كان بالمدينة قبل مقدم الرسول عليه
الصلاة والسلام اليها رجل من الخزرج يقال له ابو عامر الراهب ،
وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ على أهل الكتاب ، فلما قدم رسول الله
صلى الله عليه وسلم الى المدينة واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للاسلام
كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز
بالعداوة وظاهر بها ، وخرج فارا الى كفار مكة ، ومالاهم على حرب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان معهم في أحد ، وكان له دور كبير
في ايداء الرسول والمسلمين ولما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمر
الرسول في ارتفاع وظهور ذهب الى هرقل ملك الروم ، يستنصره على
النبي صلى الله عليه وسلم ، فوعده ومناه وأقام عنده ، وكتب الى جماعة
من قومه من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم إنه
سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويفليه ويرده
عما هو فيه . وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم
من عنده لاداء كتبه ، ويكون مرصدا له اذا قدم عليهم بعد ذلك . فشرعوا
في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء . ولكن الله عز وجل أطلع رسوله على
حقيقة المسجد الذي أقاموه ، وانه قاعدة اتخذها المنافقون للضرار

(٣٣) الحشر - الآيات ١١ - ١٣ .

(٣٤) التوبة - الآية ١٠٧ .

والتفريق والتخطيط مع الكفار ضد المسلمين • فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك بادر بهدمه (٣٥) • فانظر كيف لا يجد اعداء الاسلام من يعينهم على حربهم مع المسلمين سوى المنافقين • وهكذا هم في كل عصر ، اليد الخفية لاهل الكفر في ديار المسلمين •

٥ - الدس والوقيعة ، واشعال نار الفتنة ، واستغلال الخلافات بين المسلمين ومحاولة توسيع شقتها :

وهذه أساليب الكفار عامة في محاولة تفتيت الصف المسلم ، والتفريق بينهم ، وتمزيق وحدتهم وتآلفهم ، وأكثر من يتقنها منهم اليهود • ويستعملون لتنفيذها اولياءهم من المنافقين الذين يقيمون بين أظهر المسلمين ، فيوحدون اليهم باثارة الفتن ، وايقاد نار العصبية ، واثارة دعاوى الجاهلية ، ويستجيب المنافقون لاوليائهم ، لاشتراكهم معهم في الكفر وبغض المسلمين ، ولذلك وصفهم الله عز وجل بالفساد في الارض ، قال سبحانه : (واذا قيل لهم : لا تفسدوا في الارض قالوا : انما نحن مصلحون ، الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) (٣٦) • ومن جملة افسادهم محاولاتهم في الايقاع بين المؤمنين •

ولقد كانت هذه هي سيرة المنافقين مع المسلمين ، منذ ان قامت لهم دولة في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام • ولكن المؤمنين بقيادة رسول الله وبأخوة الايمان ، وبالاتمسك بالعروة الوثقى ، كانوا يطفئون كل نار يوقدونها وكل فتنة يثيرونها ، الى ان اشتد ساعد الدعوة وقويت دولة الاسلام ، وانتصرت على اولئك الذين كانوا يمدون المنافقين من أهل الكتاب والمشركين ، ووضعت بذلك حدا لمؤامرات المنافقين وأوليائهم •

ومن أمثلة مواقف الفساد التي كان المنافقون يقفونها من دعوة الاسلام الفتية :

(٣٥) انظر : تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، زاد المعاد ج ٣ ص ٩ ، ١٠ : السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٢٢ •
(٣٦) البقرة - الآيتان ١١ ، ١٢ •

أ - موقفهم في غزوة أحد عندما حاول زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول الايقاع بين المسلمين بانسحابه من الجيش ، وانخذل بثلاث الناس ، وصار يلقي بسهام فتنه بين الناس ويقول : عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأي له ، ارجعوا ايها الناس ، فرجع معه ثلث الجيش . وتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر رضي الله عنه ، يقول لهم : يا قوم ، اذكركم الله الا تخذلوا قومكم ونييكم ، فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكن لا نرى انه يكون قتال وابوا الا الانصراف ، فقال لهم : أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغني الله عنكم نبيه .

وكان لفعلة المنافقين هذه أثر سيء في وحدة الصف المسلم ، وهزة نفسية عند بعض المسلمين ، حتى همت طائفتان من المسلمين أن تفعلوا مثلما فعل المنافقون ، ثم عصمهما الله تعالى (٣٧) ، وفيهما نزل قوله عز وجل : (اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٣٨) .

ب - وفي غزوة بني المصطلق حدث خلاف بسيط بين أجير لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقال له : جهجاه بن مسعود ، مع رجل من حلفاء الخزرج هو سنان بن فروة ، فازدحما على الماء ، وتدافعا ، فنادى حليف الخزرج : يا معشر الانصار ، ونادى أجير عمر : يا معشر المهاجرين . فاغتنم هذه الفرصة رأس المنافقين ، وأخذ يلقي بسهامه بين القوم ، ليصدهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مما قاله : والله ما رأيت كاليوم مذلة ، أوقد فعلوها ؟ نافرونا (أي غلبونا) ، وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا (أي أظننا معشر الانصار) وجلابيب قريش (يعني معشر المهاجرين) ، الا كما قال الأول (اي الاقدمون) : سمن كلبك يأكلك ، والله لقد ظننت اني سأموت قبل أن أسمع هاتفا يهتف بها سمعت ، اما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضر

(٣٧) انظر : السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٩٤ ، وآيات الجهاد ص ٣٢٨ . ٣٢٩ .

(٣٨) آل عمران - الآية ١٢٢ .

من قومه ، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم ، احللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم . ثم لم تبرضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضا للمنايا ، فقتلتهم دونه (يعني النبي صلى الله عليه وسلم) ، فأيتتمت أولادكم ، وقللتهم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد . وكاد ابن ابي يشعلها فتنة عظيمة ، لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على الناس فقال : ما بال دعوى الجاهلية ؟ فأخبر بالحال ، فقال صلى الله عليه وسلم : دعوها فانها منتنة ، فسكنت الفتنة وانطفأت ثائرة الحرب (٣٩) .

ونزل في ابن ابي واتباعه من المنافقين سورة كاملة ، سميت باسمهم لانها كلها فيهم ، وهي سورة (المنافقون) .

ج - وكان من جملة اهداف المنافقين من تشييد مسجد الضرار التفريق بين المؤمنين كما ذكر الله تعالى في قوله : (والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين) بالاضافة الى ما تقدم من اتخاذهم اياه قاعدة للتآمر والتخطيط ضد المسلمين ، فقد ورد عنهم انهم قالوا : نبني مسجدا ونرسل الى رسول الله يصلي فيه ، ويصلي فيه ابو عامر الراهب اذا قدم من الشام ، فيثبت لنا الفضل والزيادة . وكان المسلمون في تلك الناحية يصلون في مسجد قباء جماعة ، فلما بني هذا المسجد ، صرف عن مسجد قباء جماعة ، وصلوا بذلك المسجد ، فكان به تفريق المؤمنين . وكان المنافقون يجتمعون فيه ، ويعيبون النبي صلى الله عليه وسلم ويستهزئون به ، الى ان أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بتحريقه وهدمه عن آخره (٤٠) .

د - ومن أمثلة دسهم ووقيعتهم في غزوة تبوك ، أنه لما خلف الرسول صلى الله عليه وسلم عليا رضي الله عنه في المدينة ، ارجف المنافقون ،

(٣٩) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٩٥ . صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ١٢ ص ٢٠٥ ، وقال الترمذي :

حسن صحيح .

(٤٠) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

وقالوا : ما خلفه الا استثقالا له • وحين قيل فيه ذلك أخذ علي سلاحه ، ثم خرج حتى لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف ، فقال : يا نبي الله ، زعم المنافقون انك ما خلفتني الا استثقلتني ، وتخفت مني ، فقال : كذبوا ، ولكني خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع ، فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى ، الا انه لا نبي بعدي ، فرجع علي الى المدينة (٤١) •

هكذا كانت سيرة المنافقين مع المسلمين : محاولات لتمزيق الصف ، وتشيت الشمل ، وازعاج الرابطة • وهي كذلك اليوم ، وما الدعوات القومية ، والنزعات الاقليمية والعصبية ، والتشكيلات الحزبية الموالية لكفار الشرق او لكفار الغرب ، والدعوة الى اللهجات العامية ، وترك لغة القرآن العظيم ، الا محاولات لاهل النفاق وأوليائهم من اليهود والنصارى وأعداء الاسلام ، تستهدف تمزيق المسلمين وازعاج البدائل من الروابط الارضية الواهية للرابطة القوية الجامعة التي يصنعها الاسلام فيما بينهم فلينتبه المخلصون من ابناء المسلمين لكيد المنافقين وأوليائهم

٦ - الجبن الشديد والتخلف عن الجهاد :

وذلك ان الشجاعة والاقدام والثبات انما هي ثمرات للايمان بالله عز وجل ، والايمان باليوم الآخر ، والمنافقون ليس لهم نصيب حقيقي من الايمان ، فليس عندهم روح الجهاد ، ولا دافع التضحية ، ولا ثقة بالله ووعدده ، ولا ايمان بقضاء الله وقدره •

فلما فرغت قلوبهم وأرواحهم من كل هذا الزاد كانوا اجبن الناس واكثرهم تقاعسا عن العمل ، وثاقلا عن الجهاد بالنفس والمال ، والتصاقا بالدنيا وشهواتها (٤٢) ، قال الله عز وجل مقررًا هذه الحقيقة : (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا بأموالهم وانفسهم ،

(٤١) السيرة العلية ج ٣ ص ١٠٤ •

(٤٢) الحضارة الاسلامية للمودودي ص ٢٩٦ . سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٢٠٩ ، ٢١٣ •

والله عليم بالمتقين • انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ،
وارتابت قلوبهم ، فهم في ريبيهم يترددون (٤٣) •

ولقد تحدثت الآيات القرآنية ، باستفاضة ، عن هذه الخبيصة في
المنافقين حتى انك لتشعر انها من اخص خصائصهم ، واظهر صفاتهم ،
يعرفون بها في كل زمان • من هذه الآيات :

قوله تبارك وتعالى : (واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم ، وان يقولوا
تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو
فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون) (٤٤) • فانظر الى قوله تعالى « يحسبون
كل صيحة عليهم » في تصوير ضعفهم وخورهم وهلعهم وجزعهم وجبنهم •

وقوله تعالى : (ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم
يفرقون) (٤٥) • وقوله أيضا : (لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلا
لولوا اليه وهم يجمعون) (٤٦) •

وقوله تبارك وتعالى في وصف شدة جبنهم وشحهم على الخير والعمل
الصالح : (أشعة عليكم ، فاذا جاء خوف رأيته ينظرون اليك ، تدور
أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت • فاذا ذهب خوف سلقوكم بالسنة
حداد ، أشعة على الخير ، اولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان
ذلك على الله يسيرا) (٤٧) • يقول قتادة رحمه الله تعالى في وصف حالهم :
(اما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأ مقاسمة : أعطونا أعطونا ، قد
شهدنا معكم • واما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق ، وهم مع ذلك
أشعة على الخير ، اي ليس فيهم خير • قد جمعوا الجبن والكذب وقلة
الخير ...) (٤٨) •

(٤٣) التوبة - الآيتان ٤٤ ، ٤٥ •

(٤٤) المنافقون - الآية ٤ •

(٤٥) التوبة - الآية ٥٦ •

(٤٦) التوبة - الآية ٥٧ •

(٤٧) الاحزاب - الآية ١٩ •

(٤٨) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٧٤ •

ومما جاء في وصف خوفهم وكرههم للقتال ، وخشيتهم الناس أكثر من الله ، قوله عز وجل : (ألم تر الى الذين قيل لهم : كفوا ايديكم واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله او أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ، لولا اخرتنا الى اجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتىلا • اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) (٤٩) ، فهذه الآيات نزلت في المنافقين تبين انهم أجبن الناس في ساعة الجد ، وان اكثروا من التبجح في أوقات الرخاء ، كما قال الله عنهم في سورة محمد : (ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة ، فاذا أنزلت سورة محكمة ، وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر الغشي عليه من الموت) (٥٠) •

وكما قال عنهم في سورة براءة : (واذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا : ذرنا نكن مع القاعدين ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) (٥١) •

هذه بعض آيات الله التي تبين عراقة صفة الجبن والتخلف عن الجهاد في المنافقين ، ويوجد غيرها كثير ، واليك فيما يلي بعض مواقف التخاذل التي وقفها المنافقون من المؤمنين عندما كانوا يدعون الى الجهاد :

أ - ففي غزوة أحد رجعوا من الطريق كما تقدم ذكره ، ولم يكن خروجهم الى القتال في بداية الامر الا لتنفيذ خطة مأكرة استهدفت تثبيط المسلمين وتمزيق صفهم ، ولولا ذلك ما خرجوا كعادتهم في معظم الغزوات •

ب - وفي غزوة الاحزاب ، يوم ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، ظهر النفاق على أشده ، وانكشف حالهم ، بما فيه من الهلع

(٤٩) النساء - الآيتان ٧٧ ، ٧٨ •

(٥٠) محمد - الآية ٢٠ •

(٥١) التوبة - الآيتان ٨٦ ، ٨٧ •

والجزع ، وانعدام الرابطة بينهم وبين المسلمين : فمن أول الامر تخلفوا عن الحضر في الخندق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن حضر منهم تلهى في البداية بالضعيف من العمل ، وانسل كثير منهم الى بيوتهم ، من غير أن يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذه صفة اخرى في المنافقين ، اذا اضطروا للعمل تمسكوا بالهين السهل منه ، وتركوا الصعب والمهم ، واذا وجدوا فرصة ، انسحبوا منه ، ولا يقيمون وزنا لاذن القائد المسلم وامره ، لان الطاعة للقائد فرع الايمان ، وعبادة من العبادات . والمنافقون اكثر الناس كسلا في عبادة الله وطاعة امره .

وفي صنيع المنافقين في أول غزوة الاحزاب نزل قول الله عز وجل : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، واذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه . ان الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ، ان الله غفور رحيم ، لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا . قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن امره أن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم) (٥٢) ، وحتى الذين يستأذنون القائد من اهل النفاق فانما يختلقون أعذارا لا وجود لها في الواقع ، ليتهربوا من العمل والجهاد . وهكذا كان المنافقون في غزوة الاحزاب ومن اعتذر منهم ، فقد اعتذر بعضهم بان بيوتهم عورة ومكشوفة للعدو ، فكشف الله حقيقة هؤلاء المختلقين للاعذار وقال عز وجل : (واذا قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون : ان بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، ان يريدون الا فرارا) (٥٣) . فقد ورد في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في أوس بن قيظي من منافقي الاوس ، الذي قال : يا رسول الله ، ان بيوتنا عورة من العدو ، وليس دار من دور الانصار مثل دارنا ، وليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا فلنرجع الى

(٥٢) النور - الآيتان ٦٢ ، ٦٣ .

(٥٣) الاحزاب - ١٣ .

دورنا ، فتمنع ذرارينا ونساءنا ، فبلغ ذلك سعد بن معاذ ، فقال : يا رسول الله لا تأذن لهم ، انه والله ما اصابنا واياهم شدة قط الا صنعوا ذلك (٥٤) .

فانظر الى قول سعد بن معاذ فيهم ، فان اختلاق الاعذار ، كان ديدنهم ، وليس امرا طارئا . وهذا هو الفرق بين المنافقين وغيرهم من المؤمنين ، فان المنافقين لا يكلفون بعمل الا اعتذروا عنه ، فالاعتذار عادة فيهم وخلق ، بينما قد يعتذر الصادقون في بعض الاحيان بأعذار حقيقية مقبولة ، ولكن لا يكون الاعتذار خلقا لهم وعادة فيهم (٥٥) .

وهكذا فقد كان المنافقون في غزوة الخندق ثلاث طوائف ، كل واحدة منها مثال للجبن والهلع والتخاذل : جماعة انسحبوا بغير اعتذار، وتسلبوا تسلا من غير استئذان ، وآخرون اختلقوا الاعذار الكاذبة ليفروا من المعركة ، وآخرون كانوا اكثر وقاحة ، يدعون غيرهم الى الفرار من غير ان يتعذروا ولو بأعذار كاذبة ، ومن الآيات التي نقلت صورتهم للمؤمنين ، وما فيها من الخور والضعف ، قوله عز وجل : (يحسبون الاحزاب لم يذهبوا ، وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب ، يسألون عن انبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا) (٥٦) . فهم من شدة خوفهم كانوا يظنون ان الاحزاب لم ينهزموا ، وقد انهزموا ، وهم يودون اذا جاءت الاحزاب انهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة ، بل في البداية يسألون عن اخباركم مع عدوكم ولو كانوا بين اظهركم لما قاتلوا معكم الا قليلا ، لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم (٥٧) .

ج - وفي عمرة الحديبية ، حيث خرج الرسول ، عليه الصلاة والسلام وصحابته زائرين للبيت ومعظمين له ، لا يريدون قتالا ، استنفر العرب

(٥٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٤٥ ، تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٧٣ .
(٥٥) واذا أردت - أيها الاخ القارىء - أن تعرف ان كان اعتذارك عن العمل صادرا عن نفاق ، او كان له مبرر حقيقي ، ولا دخل للنفاق فيه ، فانظر الى نفسك فان كنت لو خلوت بنفسك وحاسبتها مقتنعا بما اعتذرت به ، فلا بأس عليك . والا فيجب عليك أن تعالج قلبك قبل أن يستقر فيه النفاق ، وينمو بتزيين الشيطان وتسويله .

(٥٦) الاحزاب - الآية ٢٠ .

(٥٧) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٧٤ .

ومن حول المدينة من الاعراب ، من اسلم منهم ، كغفار ومزينة وجهينة واسلم (٥٨) ، خشية ان تحاربه قريش ، وتصده عن البيت الحرام . فتثاقل المنافقون من هذه القبائل ، وقالوا أنذهب الى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة ، فنقاتلهم ، وظنوا انه لن تقوم له قائمة بعد هذه المرة ، فاعتذروا بالانشغال بأهليهم وأموالهم ، وانه ليس لهم من يقوم بذلك عنهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى فضحهم وفضح نواياهم ، وبين ما يعتلج في نفوسهم من ضعف الايمان ، وقلة اليقين وسوء الظن بالله تعالى (٥٩) . فقال عز وجل : (سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلنا أموالنا وأهلونا ، فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ، بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا) (٦٠) .

ويذكر في هذا المقام انه خرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم في عمرة الحديبية أحد المنافقين يقال له الجد بن قيس . فلما دعي المؤمنون الى مبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، تحت الشجرة ، بايعوه جميعا الا هذا المنافق ، فحرمه الله من نعم هذه البيعة جزاء نفاقه الذي كان في قلبه ، هذه النعم التي يمثلها قول الله تعالى : (لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) (٦١) . وقول رسوله صلى الله عليه وسلم لمن بايعه تحت الشجرة : (أنتم خير أهل الارض) (٦٢) ، وقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه الامام احمد : (لا يدخل النار احد ممن بايع تحت الشجرة) (٦٣) . وفي تخلف هذا المنافق عن البيعة ورد من حديث جابر

(٥٨) احكام القرآن لابن العربي ج ٤ ص ١٦٩٣ .

(٥٩) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٨٩ .

(٦٠) الفتح - الآيات ١١ ، ١٢ .

(٦١) الفتح - الآية ١٨ .

(٦٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٨٨ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ٧٠٢ .

(٦٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٨٨ .

رضي الله عنه قال : (لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى
البيعة وجدنا رجلا منا يقال له الجد بن قيس مختبئا تحت أبط
بعيره) (٦٤) .

د - وفي غزوة تبوك ، حيث استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم
جميع المؤمنين لقتال أهل الكتاب ، فتخلف عنه عليه الصلاة والسلام معظم
أهل النفاق بزعماء عبد الله بن أبي بن سلول ، واعتذروا بجهد الحال ،
والحر الشديد . وبعد الهدف ، وقوة العدو . ومن غريب أعذارهم ما
اعتذر به المنافق الذي رفض مبايعة الرسول عليه الصلاة والسلام تحت
الشجرة وهو الجد بن قيس ، الذي قال له الرسول عليه الصلاة والسلام :
يا جد هل لك في جلاد بني الاصر ؟ فقال : يا رسول الله ، او تأذن لي
(اي في التخلف والقيود) ، ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي انه ما من
رجل أشد عجبا بالنساء مني ، واني أخشى ان رأيت نساء بني الاصر
أن لا أصبر . فأعرض عنه رسول الله ، وقال له : قد أذنت لك (٦٥) ،
فأنزل الله تعالى فيه : (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ، الآ في الفتنة
سقطوا ، وان جهنم لمحيطة بالكافرين) (٦٦) .

وفي سورة التوبة بيان مستفيض لمواقف المنافقين من الجهاد في غزوة
تبوك ، وتجلية لنوازعهم ونفسياتهم ، التي تكمن وراء هذه المواقف ،
ومن آياتها فيهم :

قوله عز وجل : (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن
بعدت عليهم الشقة . وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون
انفسهم ، والله يعلم انهم لكاذبون . عفا الله عنك لم أذنت لهم ، حتى
يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) (٦٧) .

(٦٤) المرجع السابق .

(٦٥) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٥٨ .

(٦٦) التوبة - الآية ٤٩ .

(٦٧) التوبة - الآيتان ٤٢ ، ٤٣ .

وقوله تعالى : (ولو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل : اقعدوا مع القاعدين) (٦٨) .

وقوله سبحانه في بخلهم وشحهم وتخلفهم عن الجهاد بالمال فضلا عن قعودهم في القتال : (ومنهم من عاهد الله : لئن آتانا من فضله ، لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم معرضون . فاعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون) (٦٩) .

وقوله تعالى : (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا في الحر قل : نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون) (٧٠) .

وقوله تعالى : (وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم) (٧١) .

وقوله تعالى : (انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ، رضوا بان يكونوا مع الخوالف ، وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) (٧٢) .

٧ - التذليل والتثبيط والارجاف :

وهذه خصيصة أخرى من خصائص أهل النفاق ، فانهم لا يكتفون بالقعود والتخلف عن العمل والجهاد ، ولكنهم يبذلون قصارى جهدهم لتثبيط غيرهم من المؤمنين ، والحاقهم بفئتهم . وللمنافقين في هذا الصنيع جملة أهداف أهمها أنهم أقرب للكفار منهم الى المؤمنين ، كما تقدم ، فهم

(٦٨) التوبة - الآية ٤٦ .

(٦٩) التوبة - الآيات ٧٥ - ٧٧ .

(٧٠) التوبة - الآيتان ٨١ ، ٨٢ .

(٧١) التوبة - الآية ٩٠ .

(٧٢) التوبة - الآية ٩٣ .

بتثبيط المؤمنين عن القتال يخذلون عن اوليائهم ، واهل مودتهم ، وكذلك يريدون تكثير حزبهم ، واظهار أحقيتهم بتخلفهم ، لانهم لا ينظرون الى حقيقة الامور ، وانما ينظرون الى الكثرة والقلة والمظاهر والشكليات ، فكلما كثر حزبهم ازدادوا كبرا وعنادا وتمسكا بالباطل ، وظنوا انهم هم الغالبون ، ولا يدرون أن حزب الشيطان هو الخاسر ، مهما كثر وتضخم وانتفش كما قال الله عز وجل : (الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون) (٧٣) .

ولقد أكدت الآيات الكريمة هذه الصفة في المنافقين ، كما أكدها واقعهم وسيرتهم مع المسلمين :

فما نزل في بيان هذه الصفة فيهم قوله عز وجل : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين) (٧٤) . وقوله تعالى : (وان منكم لمن ليبطئن ، فان أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله علي اذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن اصابكم فضل من الله ليقولن ، كأن لم تكن بينكم وبينه مودة : يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) (٧٥) .

هذا وقد كان للمنافقين في سيرتهم مع الدعوة الاسلامية مواقف تخذيلية كثيرة سجلها الله عليهم في كثير من الآيات الكريمة . ومن هذه المواقف :

أ - ففي غزوة بدر ، وعندما خرج الصحابة بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام لملاقاة كفار قريش ، أخذ المنافقون يشككون في قدرة المسلمين على الوقوف امام عدوهم ، وصاروا يلقون العبارات المثبطة للعزائم ، والمزعزعة للنفوس ، ومن هذه العبارات ما سجله القرآن الكريم من قولهم « غر هؤلاء دينهم » ، فقال سبحانه وتعالى في سورة

(٧٣) المجادلة - الآية ١٩ .

(٧٤) التوبة - الآية ٤٧ ، والغبال هو الفساد والنميمة وايقاع الاختلاف والاراجيف - انظر تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٥٦ .

(٧٥) النساء - الآيتان ٧٢ ، ٧٣ .

الانفال : (اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : غر هؤلاء دينهم ، ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم) (٧٦) .

ولم يكتف المنافقون بما كانوا يقولونه قبل المعركة ، وانما اخذوا يرجفون في المدينة قبل رجوع الركب المؤمن المنتصر ، ويشيعون هزيمة المسلمين وتفرقهم . فقد روت كتب السير والمغازي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ارسل عبد الله بن رواحة بشيرا لاهل العالية ، وزيد بن حارثة بشيرا لاهل السافلة ، وأركب زيد بن حارثة ناقته القصواء . فلما وصلا المدينة ، وأخذا يبشران الناس بما فتح الله على المسلمين ، كذبهما زعماء المنافقين واليهود . واخترع بعضهم روايات ملفقة حول هزيمة المسلمين ، فلقي احدهم ابا لبابة رضي الله عنه وقال له : لقد تفرق اصحابكم تفرقا لا يجتمعون معه ابدا ، فقد قتل محمد واصحابه ، وهذه ناقته عليها زيد ابن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب ، قال اسامة بن زيد رضي الله عنهما : فبلغني ذلك فجئت ابي حتى خلوت وسألته عما يقول الرجل وقلت : احق ما تقول ؟ قال : اي والله وانه لحق ما اقول يا بني ، فقويت نفسي ورجعت الى ذلك المنافق ، فقلت : انت المرجف برسول الله ، لنقدمك الى رسول الله اذا قدم ، فليضربن عنقك ، فقال : انما هو شيء سمعته من الناس يقولونه (٧٧) .

ب - وفي غزوة احد وجد المنافقون اكثر من فرصة لممارسة اسلوبهم في التشبيط والارجاف والاشاعات الكاذبة :

- فقد عرفت ما كان من زعيمهم عبد الله بن ابي بن سلول عندما انخذل بثلاث الجيش وهو يقول : لو نعلم انكم تقاتلون لما اسلمناكم ، وما كان لهذا الصنيع الخبيث من أثر في نفوس المؤمنين .

- ومن امثلة محاولاتهم في تعطيل المؤمنين وعرقلتهم ما روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عندما كان في طريقه الى أحد ، للملاقاة

(٧٦) الانفال - الآية ٤٩ .
(٧٧) آيات الجهاد ص ٣٢٦ نقلا عن كتاب « النفاق والمنافقون » .

الكفار ، سلك في حائط (اي بستان) لبعض المنافقين ، وكان أعمى ، فقام يحثو التراب في وجوه المسلمين ويقول : لا أحل لك أن تدخل حائطي ان كنت رسول الله ، فابتدره القوم ليقتلوه فقال : لا تقتلوه ، فهذا اعمى القلب اعمى البصر (٢٨) .

— وعندما دارت الدائرة على المسلمين في الجولة الثانية من معركة أحد ، بسبب ما كان من مخالفة الرماة لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندما قام خالد بن الوليد ونفر من المشركين بحركة التفاف على المسلمين ، وقتلوا منهم كثيرا ، واضطرب المسلمون اضطرابا شديدا ، وصرخ أحد الكفار بانه قد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهب المنافقون هذه الفرصة ، وصاروا يرجفون بين المسلمين ، ويرمون بالكلمات المثبطة للعزائم والمزعزعة للقلوب . من ذلك أن أحدهم لما سمع بأشاعة قتل الرسول عليه الصلاة والسلام قال : لو كان نبيا ما قتل ، فارجعوا الى دينكم الاول (٢٩) .

وقال رجال آخرون من المنافقين : لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا ، وقد كان قائل هذا المنافق معتب بن قشير ، فقد روي عن الزبير ابن العوام رضي الله عنه انه قال : لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين اشتد علينا الخوف وارسل علينا النوم ، فما منا من أحد الا وذقنه في صدره ، فوالله اني لاسمع كالحلم قول معتب بن قشير ، وكان ممن شهد العقبة : لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا ، فحفظتها (٨٠) .

(٧٨) زاد المعاد ج ٢ ص ٩٢ .

(٧٩) انظر تفسير الطبري ج ٧ ص ٢٥٨ ، ٢٥٧ . وقارن مقالة هذا المنافق الخبيثة بقوله ثابت بن الدحاح لما بلغته الاشاعة : يا معشر الانصار ان كان محمد قد قتل فان الله حي لا يموت ، قاتلوا على دينكم فان الله مظفركم وناصركم ، وقارنها بصنيع أنس بن النضر رضي الله عنه عندما مر بقوم من المسلمين قد القوا بأيديهم ، فسألهم : ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله ، فقال : ما تصنعون بالحياة من بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم قاتل حتى قتل ووجد به سبعون ضربة . قارن بين هذين الموقفين لترى الفرق بين النفاق والاخلاص ، وبين الشك واليقين ، فان المواقف هي التي تكشف عن هذه الامور . انظر : زاد المعاد ج ٢ ص ٩٣ ، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٠٤ .

(٨٠) تفسير الطبري ج ٧ ص ٣٢٣ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٠٥ .

وروى ابن جرير بسنده عن ابن جريح قال : قيل لعبد الله بن ابي :
قتل بنو الخزرج اليوم . قال : وهل لنا من الامر شيء (٨١) .

وقد انزل الله تبارك وتعالى فيما تقدم من أقوال المنافقين قوله
سبحانه : (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات او
قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه ، فلن يضر الله شيئا ،
وسيجزى الله الشاكرين) (٨٢) ، ونزل ، ايضا ، في قول ابن ابي ومعتب
ابن قشير ، قوله تعالى : (وطائفة قد أهمتهم انفسهم يظنون بالله غير
الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الامر شيء ، قل : ان الامر كله
لله يخفون في انفسهم ما لا يبodon لك) (٨٣) .

ج - وفي غزوة الاحزاب كان من المنافقين مثل ما كان منهم يوم
أحد ، بل أكثر مما كان هناك ، لانهم ظنوا ان النصر سيكون للكفار ،
وانها ستكون القاضية بالنسبة للمسلمين ، اذ رأوا تجمع الكفار واتفاقهم
على استئصال المسلمين . فكشّر المنافقون عن انيابهم واظهروا من حقدهم
اكثر مما كانوا يفعلون . ومن أمثلة ما وقع منهم من الارجاف والتخذيل
في هذه الغزوة :

- ما ورد في كتب السيرة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان
أثناء حفر الخندق يشجع المسلمين ، ويبشرهم بالنصر المبين ، وبما
سيفتح الله عليهم من بلاد الروم والفرس واليمن . وفي الوقت الذي
استبشر فيه المسلمون أخذ المنافقون يرجفون ويقولون : الا تعجبون من
محمد ، يمنيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم انه يبصر من يشرب قصور
الحيرة ومدائن كسرى ، وانها تفتح لكم ، وانتم انما تحفرون الخندق
من الفرق ، لا تستطيعون ان تبرزوا (٨٤) .

(٨١) انظر : تفسير الطبري ج ٧ ص ٣٢٢ .

(٨٢) آل عمران - الآية ١٤٤ .

(٨٣) آل عمران - الآية ١٥٤ .

(٨٤) السيرة المحلية ج ٢ ص ٦٣٥ ، السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٢ .

— وعندما نقض بنو قريظة العهد ، وعظم عند ذلك البلاء على المسلمين لما وصلهم خبر هذا النقض ، واشتد عليهم الحال الذي يصوره قول الله تعالى : (اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، واذ زاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا)^(٨٥) ، عند ذلك ظهر النفاق من المنافقين ، واشتد ارجافهم وتثبيطهم حتى قال بعضهم : كان محمد يعدنا ان نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط ، ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا^(٨٦) .

فأنزل الله عز وجل : (واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ، واذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا)^(٨٧) .

د — وفي غزوة تبوك لم يكتف المنافقون بتخلفهم عن القتال ، وانما عمدوا الى تحريض المؤمنين على القعود ، وتخويفهم من أعدائهم ، وتهويل المشاق والمصاعب التي ستلاقيهم وهم في طريقهم الى العدو .

فقد تخلف عن هذه الغزوة رأس المنافقين عبد الله بن ابي بن سلول وجماعته وكان مما قاله عند تخلفه : يغزو محمد بنى الاصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ، يحسب محمد ان قتال بنى الاصفر معه اللعب ، والله لكأنني أنظر الى اصحابه مقرنين في الحبال^(٨٨) .

وقال بعض المنافقين عند التجهز للخروج الى تبوك : لا تنفروا في الحر ، ونزل في قولهم هذا قرآن ، هو قوله تعالى : (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا في الحر قل : نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون)^(٨٩) .

(٨٥) الاحزاب — الآيتان ١٠ ، ١١ .

(٨٦) السيرة الخلبية ج ٢ ص ٦٤٠ ، سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٦ ، مطبوع على حاشية زاد المعاد (المطبعة اليمنية) .

(٨٧) الاحزاب — الآيتان ١٢ ، ١٣ .

(٨٨) السيرة الخلبية ج ٢ ص ١٠٢ .

(٨٩) التوبة — الآية ٨١ .

٨ - الصد عن سبيل الله ، وتضليل العباد والامر بالمنكر والنهي عن المعروف :

فقد أخبر الله عنهم انهم كذلك ، قال عز وجل : (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون ايديهم ، نسوا الله فنسيهم ، ان المنافقين هم الفاسقون) (٩٠) ، فأخبر الله سبحانه وتعالى ان المنافقين من طينة واحدة يجمعهم النفاق ، رسالتهم في الحياة الصد عن سبيل الله عز وجل ، والامر بالمنكر والانفاق على الشر ، والنهي عن المعروف والبخل على كل خير (٩١) .

٩ - يحبون ويحاولون ان تشيع الفاحشة في المؤمنين :

فان الذين جاءوا بالافك ، ورمي السيدة الطاهرة ام المؤمنين عائشة بنت الصديق ، بالفاحشة ، انما كانوا من المنافقين ، وكان قائدهم في هذه المكيدة عبد الله بن ابي بن سلول (٩٢) . وقد نزل في هذه الحادثة وصنيع المنافقين وتبرئة السيدة عائشة رضي الله عنها آيات كريمات في سورة النور ، منها قوله تعالى : (ان الذين جاءوا بالافك عصابة منكم لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امريء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) (٩٣) . ومنها قوله تعالى : (ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعملون) (٩٤) .

ويستهدف المنافقون من وراء هذا الاسلوب تلطيخ الصورة النظيفة الطاهرة لمجتمع الايمان ، ليصدوا الناس عنه وليستروا على فواحشهم وذنوبهم ، واختلاقا ، لبواث الفتنة بين المؤمنين ، وبذر بذور الشك في نفوسهم ، وازعاف رابطة الاخوة بينهم ، وقد عرفت فيما تقدم ان الفساد بين الناس هو من خصائصهم اللاصقة بهم .

(٩٠) التوبة - الآية ٦٧ .

(٩١) انظر : تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٦٨ ، وفي ظلال القرآن ج ٤ ص ٢٤٩ . والحضارة الاسلامية ص ٢٩٦ .

(٩٢) انظر : صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ١٢ ص ٥٥ .

(٩٣) النور - الآية ١١ .

(٩٤) النور - الآية ١٩ .

١٠ - انتقاد المؤمنين ، والتهوين من شأنهم ، ومن أعمالهم ، والاستهزاء بهم :

فهم الذين قال الله عنهم : (واذا خلوا الى شياطينهم قالوا : انا معكم انما نحن مستهزؤون . الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) (٩٥) .

وهم الذين قال فيهم ايضا : (ومنهم من يلمزك في الصدقات ، فان اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) (٩٦) .

وهم الذين نزل فيهم قوله تبارك وتعالى : (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ، والذين لا يجدون الا جهدهم ، فيسخرون منهم ، سخر الله منهم ، ولهم عذاب أليم) (٩٧) . وسبب نزول هذه الآية ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة بالفاظ مختلفة قال : حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة في غزوة تبوك فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف فقال : يا رسول الله ، مالي ثمانية آلاف ، جئتك بنصفها وامسكت نصفها ، فقال صلى الله عليه وسلم : (بارك الله لك فيما امسكت وفيما أعطيت) وجاء ابو عقيل بصاع من تمر ، فقال : يا رسول الله ، أصبت صاعين من تمر ، صاع اقرضته الله وصاع لعيالي ، قال : فلمزوه وقالوا : ما الذي أعطى ابن عوف الارياء ، وقالوا : ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا) (٩٨) .

وقد جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا (٩٩) ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير ، فقالوا : أمرائي ؟ وجاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : ان الله لغني عن صدقة هذا (١٠٠) .

(٩٥) البقرة - الآية ١٤ .

(٩٦) التوبة - الآية ٥٨ .

(٩٧) التوبة - الآية ٧٩ .

(٩٨) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٧٥ ، في ظلال القرآن المجلد ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٩٩) أي نؤاجر انفسنا في الحمل .

(١٠٠) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٧٥ .

ويقول ابن كثير عند تفسير الآية السابقة : (وهذا ايضا من صفات المنافقين ، لا يسلم أحد من لزمهم وعيبتهم في جميع الاحوال ، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم ، ان جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا : هذا مراء ، وان جاء بشيء يسير قالوا : ان الله لغني عن صدقة هذا) (١٠١) .

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسيرها : (وهكذا تقولوا على المؤمنين الذين انبعثوا الى الصدقة عن طواعية نفس ورضا قلب واطمئنان ضمير ، ورغبة في المساهمة في الجهاد ، كل على قدر طاقته ، وكل على غاية جهده ، ذلك انهم لا يدركون بواعث هذا التطوع في النفوس المؤمنة ، ولا يدركون حساسية الضمير التي لا تهدأ الا بالبذل عن طيب خاطر ، ولا يدركون المشاعر الرفرافة التي تنبعث انبعاثا ذاتيا لتلبي دواعي الايمان والتضحية والمشاركة - من اجل هذا يقولون عن المكثري : انه يبذل رياء ، وعن المقل : انه يذكر بنفسه ، يجرحون صاحب الكثير لانه يبذل كثيرا ، ويحتقرون صاحب القليل لانه يبذل القليل ، فلا يسلم من تجريحهم وعيبتهم احد من الخيرين . ذلك وهم قاعدون متخلفون ، منقبضو الايدي ، شحيحو الانفس ، لا ينفقون الا رياء ، ولا يدركون من بواعث النفوس الا مثل هذا الباعث الصغير الحقير) (١٠٢) .

١١ - الكذب وخيانة العهد والامانة :

فقد ورد في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : (آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا أوتمن خان) (١٠٣) ، وهم الذين قال فيهم الله عز وجل : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من

(١٠١) المرجع السابق .

(١٠٢) في ظلال القرآن - المجلد الرابع ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(١٠٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ٢ ص ٤٦ ، وسنن النسائي ج ٨ ص ١١٧ .

فضله بخلوا به ، وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون (١٠٤) .

١٢ - الكسل في عبادة الله عز وجل (١٠٥) :

فقد قال الله عنهم في سورة النساء : (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) (١٠٦) . وقال فيهم في سورة براءة : (ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون) (١٠٧) ، فهم لا يقومون الى الصلاة بحرارة الشوق الى الله عز وجل ، والوقف بين يديه ، انما يدفعهم الى ذلك الرياء ، ومن ثم يقومون كسالى ، كالذي يؤدي عملا ثقيلًا ، وكذلك لا ينفقون الا كارهين مكرهين ، لانهم يعتبرون النفقة مغرما ، والخلاص منها مغنما . يقول ابن عباس عن المنافق : (ان كان في جماعة صلى وان انفرد لم يصل ، وهو الذي لا يرجو على الصلاة ثوابا ، ولا يخشى في تركها عقابا) (١٠٨) .

١٣ - الذبذبة وعدم الاستقرار والثبات في احد الصفتين : الصف المؤمن ، او الصف الكافر (١٠٩) :

وذلك لانهم ضعفاء في ذواتهم . وهذا الضعف يجعلهم غير قادرين على اتخاذ موقف حاسم هنا او هناك ، ولا على المصارحة برأي وعقيدة وموقف مع هؤلاء او هؤلاء . وفي تقرير هذه الصفة للمنافقين يقول الله عز وجل : (الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ، وان كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله

(١٠٤) التوبة - الآيات ٧٥ - ٧٧ .

(١٠٥) انظر : تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٦٣ ، والحضارة الاسلامية ص ٢٩٥ .

(١٠٦) النساء - الآيتان ١٤٢ ، ١٤٣ .

(١٠٧) التوبة - الآية ٥٤ .

(١٠٨) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٦٣ .

(١٠٩) انظر : سيرة الرسول - محمد عزة دروزه ص ١٨٨ .

للكافرين على المؤمنين سبيلا • ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ،
واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا
قليلا • مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ومن يضلل الله
فلن تجد له سبيلا) (١١٠) •

١٤ - الفرح بما يصيب المسلمين من الضراء ، والاستياء بما يجعل الله
لهم من النصر والتمكين :

فقد أخبر الله تعالى ذلك عنهم بقوله عز وجل : (ان تصبك حسنة
تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا
رهم فرحون) (١١١) •

١٥ - العناد والاستكبار وعدم الاقتناع مع وضوح الحجة ونصاعة
البراهين التي يواجهون بها :

فقد عاصر الفريق الاول من المنافقين عهد التنزيل ، وكانوا يرون
كثيرا من معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان يخبرهم بما
يقولون ويكيّدون ، وما يدور في أنفسهم وما يكتمون عليه ، ويظهر
لهم من أحواله عليه الصلاة والسلام ما يدل على نبوته وصدقه ، ولكن
معظمهم استمر على نفاقه ، ولم تؤثر فيهم الحجج الواضحة •

وهذه هي صفتهم في كل زمان ، تراهم يعيشون بين المؤمنين الصادقين
ويرون صدقهم واخلاصهم ، ، واخلاقهم الربانية ، ولا يؤثر ذلك فيهم •

١٦ - شراستهم على المسلمين في الازمات :

فقد رأيت كيف كان موقفهم من المسلمين في غزوة أحد ، وخاصة
بعدما دارت الدائرة عليهم • وفي غزوة الخندق عندما رأوا الاحزاب
مصدقين بهم • وهكذا هم في كل وقت يجاملون في أوقات الرخاء والسراء

(١١٠) النساء - الآيات ١٤١ - ١٤٣ •
(١١١) التوبة - الآية ٥٠ •

التي ينعم الله بها على المسلمين ، ويشتدور عيهم . ويكشّرون عن اذياهم
اذا اصاب المسلمين ضراء (١١٢) .

ثانيا : أساليب جهاد المنافقين :

مما تقدم يظهر لك ان المنافقين من أخطر أعداء الدعوة الاسلامية ،
وأكثر المعوقين لركب المؤمنين عن تحقيق أهدافها . بل ذهب العلماء الى
ان المنافقين الذين يبطنون الكفر ويظهرون الاسلام أشد خطرا من
الكفار المجاهرين بكفرهم وعداوتهم ، وانهم أخبث الكفرة وابعضهم
الى الله تعالى (١١٣) . لذلك جعل الله سبحانه عذابهم أشد العذاب في
الآخرة ، فقال عز وجل : (ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن
تجد لهم نصيرا) (١١٤) .

وفي الحياة الدنيا أمر الله تعالى نبيه والمؤمنين بجهادهم والحذر منهم ،
فقال تبارك وتعالى : (هم العدو فاحذرهم) (١١٥) ، وقال أيضا : (يا
ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس
المصير) (١١٦) .

فجاهدهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما امره ربه ، وكان له
خط رباني سار عليه في جهادهم ، مجمله الصبر عليهم مع الحذر منهم ،
وبيان احوالهم للمؤمنين في مبدأ قيام دولة الاسلام ، حيث كان المسلمون
في حال ضعف ، ثم الغلظة عليهم وجهادهم وتهديدهم ومعاقتهم ماديا
ومعنويا ، بعد التمكين في الارض وقوة المسلمين .

هذا وقد لخص ابن تيمية كيفية معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم
للمنافقين بقوله : (كان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع من الكفار
والمنافقين في أول الاسلام أذى كثيرا ، وكان يصبر عليه امتثالا لقوله

(١١٢) انظر : الصارم المسلمون ص ٢٢٣ ٢٢٤ .

(١١٣) آيات الجهاد ص ٣١٩ .

(١١٤) النساء - الآية ١٤٥ .

(١١٥) المنافقون - الآية ٤ .

(١١٦) التوبة - الآية ٧٣ .

تعالى : « ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم » (١١٧) ، لان اقامة الحدود عليهم كان يفضي الى فتنة عظيمة ومفسدة أعظم من مفسدة الصبر على كلماتهم . فلما فتح الله مكة ، ودخل الناس في دين الله افواجا وانزل الله براءة قال فيها : « جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » (١١٨) . وقال تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ، ملعونين اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » (١١٩) ، فلما رأى من بقي من المنافقين ما صار الامر اليه من عز الاسلام ، وقيام الرسول صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين أضمرُوا النفاق ، فلم يكن يسمع من أحد من المنافقين بعد غزوة تبوك كلمة سوء ، وماتوا بغيظهم ، حتى بقي منهم اناس بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، يعرفهم صاحب السر حذيفة ، فلم يكن يصلي عليهم هو ، ولا يصلي عليهم من عرفهم بسبب آخر مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فهذا يفيد ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحتمل من الكفار والمنافقين قبل براءة مالم يكن يحتمل منهم بعد ذلك ، كما كان يحتمل من أذى الكفار وهو بمكة مالم يكن يحتمل بدار الهجرة والنصرة (١٢٠) .

وهكذا فان الميزان في معاملة المنافقين ان ينظر (١٢١) الى حال المسلمين من الضعف أو القوة ، والى حال المنافقين وروابطهم وعلاقاتهم : فان كان المسلمون في ضعف ، واهل النفاق في مركز قوي بمالهم من الصلات والدعم من اوليائهم والروابط مع بعض المؤمنين ، او كان بين الفئة المؤمنة افراد لم تكتمل تربيتهم ولم تتضح رؤيتهم بالرغم من حسن نواياهم وصدقهم ، فينبغي في هذه الحالة ان تجتنب الممارك مع اهل النفاق بقدر الامكان ، وان يصبر عليهم ويعرض عنهم وان يجادلوا

(١١٧) الاحزاب - الآية ٤٨ .

(١١٨) التوبة - الآية ٧٣ .

(١١٩) الاحزاب - الآيتان ٦٠ ، ٦١ .

(١٢٠) الصارم المسلول ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(١٢١) الذي يقوم بتقدير هذه الامور هو القائد المسلم واهل الحل والعقد في الجماعة الاسلامية .

بالحسنى ، مع الحذر الشديد منهم ، والاحتياط لاساليبهم • وان كان الامر على عكس ما تقدم ، ولم يكن التشديد يجز على المسلمين فتنة عظيمة ، وجب جهادهم بأساليب الشدة والغلظة •

هذا وقبل ان نذكر للأخ القارىء طائفة من وسائل جهاد المنافقين نذكره بأن القرآن الكريم ، وسيرة الرسول عليه أفضل الصلاة واتم التسليم ، فيهما بيان واف لهذه الوسائل : فكما اطال الله عز وجل في بيان صفاتهم واحوالهم واساليب كيدهم بعباده المؤمنين ، فقد بين ما ينبغى للفئة المؤمنة ان تواجههم به ، وعرفهم بالوسائل المجدية في ابطال كيدهم ومكرهم ، وانك لتكاد تجد هذا بعد كل آية او مجموعة من الآيات التي تحدثت عن مواقف المنافقين من المؤمنين واساليبهم معهم • كذلك فانك تجد التطبيق لما أمر به القرآن من تلك الوسائل ، في مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم من اهل النفاق طوال فترة البناء التي قضاها بعد هجرته الى المدينة المنورة •

وفيما يلي نذكر طائفة من الاساليب والوسائل النافعة – باذن الله تعالى – في مواجهة كيد المنافقين ، وابطال فاعليتهم واثارهم في المجتمع المسلم ، ونصنفها الى طائفتين :

الاولى : طائفة الاساليب الوقائية ، والثانية : طائفة الاساليب العلاجية (١٢٢) •

الاساليب الوقائية :

١ – معرفتهم ودراسة صفاتهم من كتاب الله عز وجل وتبينها من واقع مواقفهم مع المسلمين :

ذلك أن أمضى سلاح يعتمدون عليه في مواجهة المسلمين ، هو استتارهم وخفاء سمومهم ، وتدليسهم ، وخبث أساليبهم •

(١٢٢) الملاحظ لمن يتدبر الآيات التي نزلت في أهل النفاق وجهادهم ان احسن ما يجدي في مواجهتهم وجهادهم هو الوقاية منهم ، والاحتياط لهم ، من غير أن يقطع الامل في اصلاحهم او اصلاح بعضهم •

ومن هنا كان الجهل بأحوالهم خير بيئة لهم ، يحققون فيها مآربهم ، واحسن العوامل المساعدة على نجاح مخططاتهم ومكائدهم . ولذلك يجب على كل مؤمن صادق في جماعة المسلمين ان يكون لنفسه وعيا كافيا بهذا الصنف من الاعداء ، حتى لا تنطلي عليه وسائلهم . فلا يقف الى جانبهم ، أو يقف موقفا سلبيا منهم . ومصدره في ذلك كتاب ربه تبارك وتعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وعلى القادة والعلماء في المجتمع المسلم ان ينشروا هذا الوعي بين اخوانهم .

فاذا تحصل هذا الوعي الشامل كان هذا سدا منيعا امام المنافقين ، وذهبت جهودهم من غير أن تترك أثرا في المؤمنين ، ذلك ان من المسلمات ان معرفة العدو واحواله واسلحته ووسائله هي مبدأ الطريق في جهاده والانتصار عليه ، وكذلك معرفة اعراض المرض اول الطريق في علاجه . وهذا امر واضح ومفهوم مما عرفت من اطالة القرآن في بيان أحوال المنافقين ، فان المقصود بهذه الاطالة هو تنبيه الجماعة المسلمة الى ذلك العدو الخطير ، فيجب على المؤمنين ان يرجعوا الى كتاب ربهم ليعرفوا عدوهم .

٢ - ترك موالاتهم والتقرب اليهم :

فمن بدت عليه مظاهر النفاق ، وصدرت عنه أعمال المنافقين واقوالهم ، وجب على المسلمين ان لا يتخذوه وليا ولا نصيرا .

ويدل على ذلك قوله تعالى في سورة النساء : (فما لكم في المنافقين فئتين ، والله أركسهم بما كسبوا ، أتريدون أن تهدوا من أضل الله ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ، ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ، فلا تتخذوا منهم اولياء حتى يهاجروا في سبيل الله) (١٢٣) ، فقد نزلت هذه الآيات عندما اختلف المسلمون في المنافقين الذين رجعوا من أحد مع عبد الله بن ابي بن سلول ، فقالت طائفة من المسلمين : نقتلهم

(١٢٣) النساء - الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .

وقالت أخرى : هم مؤمنون • فأنزل الله الآيات السابقة تبين ان المنافقين ليسوا مؤمنين ، وانه لا يصح للمؤمنين ان يوالوهم ويدافعوا عنهم ويحموهم • وقيل : نزلت في قوم كانوا بمكة قد تكلموا بالاسلام ، وكانوا يظاهرون المشركين ، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم ، فقالوا : ان لقينا اصحاب محمد ، فليس علينا منهم بأس • وان المؤمنين لما اخبروا انهم خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين : اركبوا الى الجبناء فاقتلوهم فانهم يظاهرون عليكم عدوكم • وقالت فئة اخرى من المؤمنين : سبحان الله أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به ، من اجل انهم لم يهاجروا ، ولم يتركوا ديارهم نستحل دماءهم واموالهم ! فكانوا كذلك فئتين ، والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شيء ، فنزلت (١٢٤) •

ومهما يكن سبب النزول فالآيات تنهى المؤمنين عن الدفاع عن المنافقين الذين يوالون الكفار ، لان من مد يد العون للكفار ، وساعدهم على المسلمين ، وتآمر معهم عليهم ، فقد بدا منه من عداوة المسلمين مالا يجوز معه ان ينصر او يوالى او يدفع عنه بالقول او بالعمل •

٣ - مقاطعتهم واجتناب مجالسهم التي يخوضون فيها فيما لا يرضي الله عز وجل :

فقد قال تعالى : (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبغون عندهم العزة ، فان العزة لله جميعا • وقد نزل عليكم في الكتاب ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، انكم اذا مثلهم ، ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) (١٢٥) •

ويدخل في ذلك ان لا يستجاب لهم ، وان لا يشاركوا فيما يتخذونه من مراكز الضرار التي يضارون بها المسلمين الصادقين • هذا اذا لم يكن للجماعة المسلمة سلطان يخولها القضاء على تلك المراكز • اما اذا

(١٢٤) انظر : تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٣٢ •
(١٢٥) النساء - الآيات ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ •

كان لهم قوة وسلطان ، فيجب أن لا يسمحوا للمنافقين بانشاء تلك المراكز ، واذا انشأوها وجب هدمها والقضاء عليها . ويؤخذ هذا الاسلوب من موقف الرسول عليه الصلاة والسلام من مسجد الضرار ومن شيده من المنافقين ، فقد امره ربه تبارك وتعالى ان لا يقوم فيه ابدا ، ثم أوحى اليه بهدمه ، فهدمه وحرقه . وقد نزل في ذلك قوله تعالى : (والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن ان اردنا الا الحسنى ، والله يشهد انهم لكاذبون . لا تقم فيه ابدا لمسجد أسس على التقوى من اول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ، الا ان تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم) (١٢٦) .

ولتعلم - ايها الاخ القاريء - ان الضرار الذي يقوم به أهل النفاق لا يقتصر على بناء المساجد ، بل يشمل جميع الوسائل والاعمال ، فكما يضارون الصادقين ببناء المساجد ، يضارونهم بجميع أنواع المؤسسات التي يستعملها المخلصون للدعوة الى الله ، ويستعملها المنافقون لتحريف الدين والصد عن سبيل الله تعالى . فخير وسيلة لابطال مفعول ما يشيدون وما يعملون من مراكز الضرار هو مقاطعتها ومقاطعة اهله ، والانحياز الى مراكز الصادقين المخلصين ، وهم لا ينقطع منهم زمان ، وان انتابتهم فترات من الضعف والنسيان .

٤ - وضعهم في موضع الشك ، وعدم الثقة بأقوالهم واشاعاتهم وأراجيفهم :

فقد عرفت انهم يفسدون ويرجفون ويشبطون ويرمون المسلمين بالافك والفاحشة وانهم يبطنون كل ذلك ويسترونه بالمظهر الكاذب ،

ويستعينون عليه بالحلف والحديث الحسن في ظاهره ، المنمق ، وينقلون الاخبار الكاذبة عن المسلمين وأحوالهم . فيجب أن لا يسلم لهم فيما يقولون ويشيعون ويرجفون . وان لا يسمع منهم وان توضع اخبارهم موضع التهمة ، لانهم وضعوا انفسهم في مركز العداء لعباد الله ، بما ظهر منهم من النفاق ، فالاصل فيهم الاساءة والافساد حتى يثبت خلاف ذلك ، فقد نعى الله عز وجل على من يسمع من المنافقين ، قال سبحانه : (لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين) (١٢٧) . واذا كان الله عز وجل قد أمر المؤمنين ان يضعوا اقوال الفاسقين موضع الاختبار والتبين في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) (١٢٨) ، فان اقوال المنافقين واشاعاتهم اولى بان لا تصدق ولا يسمع لها ، لانهم اشد خطرا واخبث طوية من كل فاسق .

٥ - الحيلولة بينهم وبين المراكز الخطرة الهامة واخراجهم من صفوف المسلمين عند العزم على القيام بأعمال خطيرة ، وخاصة عند الجهاد :

فقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، اذا رجع من غزوة تبوك ، ان لا يسمح للمنافقين الذين تخلفوا عنه بالخروج معه الى الجهاد مرة أخرى ، فقال عز وجل : (فان رجعت الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل : لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا ، انكم رضيتم بالعود اول مرة فاقعدوا مع الخالفين) (١٢٩) .

فالمنافقون لا يستأمنون على ثغور المسلمين ، لان لهم مع العدو هوى ، وفي هزيمة المسلمين تحقيق لمآربهم ، فلا ينبغي أن يمكنوا من ذلك . هذا بالاضافة الى ما عرفت انهم يشبطون ويرجفون ويخذلون ، وخطر ذلك في أوقات الملهمات يزيد على خطره في الاحوال العادية اضعافا مضاعفة (١٣٠) .

(١٢٧) التوبة - الآية ٤٧ .

(١٢٨) الحجرات - الآية ٦ .

(١٢٩) التوبة - الآية ٨٣ .

(١٣٠) انظر : احكام القرآن للشافعي ج ٢ ص ٢٨ .

وقد نص الفقهاء على انه يجب على القائد اذا هم بالخروج الى الجهاد ان يتعرف على أحوال جنده وسيرتهم ، فيطهر الجيش من كل فاسد مفسد ، عرف بضرره اكثر من نفعه ، فلا يستصحب معه مخذلا ، وهو الذي يشبث هم الناس عن الغزو كأن يقول : الحر شديد او البرد شديد . وان يرد كل مرجف ، وهو من يكثر الاراجيف كان يقول : هلكت سرية المسلمين ، أو يقول : ليس للمسلمين مدد ، أو يقول : لا طاقة للمسلمين بالكفار ، ونحو ذلك (١٣١) ، والمنافقون فيهم جميع ذلك وزيادة . فيجب على المسلمين ان لا يسمحوا لهم بالجهاد معهم ، فضلا عن انه لا يجوز ان يكون لهم مراكز في دولتهم او في جيوشهم . وقبل أن تكون دولة للمسلمين ، يجب على الدعاة الى الله أن يخرجوا كل منافق من بين صفوفهم وان لا يسمحوا له بالاستمرار في العمل معهم ، حتى لا يؤخر مسيرتهم . ويشبثهم عن العمل . روي في كتب السيرة ان نفرا من المنافقين كانوا يحضرون بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسمعون احاديث المسلمين ويسخرون منهم ، فاجتمع يوما في المسجد منهم ناس ، فرأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتحدثون بينهم ، خافضي أصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخرجوا من المسجد اخراجا عنيفا (١٣٢) .

٦ - صيانة الصف المسلم من التنازع والتدابير والتقاطع :

وذلك حتى لا يجد المنافقون جوا مناسبا وارضا خصبة يلقون فيها الفتنة والفساد ، ويوسعون فيها الشقة بين المؤمنين ، قال سبحانه وتعالى : (وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) (١٣٣) .

فاذا وقع شيء من الخلاف بين فئتين من المؤمنين وجب عليهما رده الى الله تعالى والى رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالرجوع الى القرآن وسنة الرسول ، ووجب في هذه الحالة احكام اللجام على الاهواء ، فلا يترك لها

(١٣١) انظر : المغني لابن قدامة ج ٩ ص ٢٠١ ، ومغني المحتاج ج ٤ ص ٢٢١ .

(١٣٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٥٠ .

(١٣٣) الانفال - الآية ٤٦ .

مجال في التدخل ، فقد قال الله تعالى : (فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير واحسن تأويلا) (١٣٤) .

٧ - الحرص على رباط الاخوة الایمانية بين المؤمنين ، ورفعہ وتقديمه على كل علاقة أخرى مهما كانت :

فقد عرفت فيما تقدم ان اهل النفاق ينطلقون في افسادهم وفتنتهم بين المسلمين ، من منطلق العصبية النتنه ، واثارة النزعات القبليّة والقومية والاقليمية . وهذا سهم لا يردّه الا استمسك المؤمنين باخوتهم التي يربطهم الله بها ، وتفضيلها على كل رابطة دنيوية ، سواء كانت قرابة او صداقة او تجارة او غير ذلك .

ولهم في اولئك الصحابة الكرام ، رضوان الله عليهم خير اسوة ، واحسن قدوة : كانوا يضحون بكل رابطة اذا تعارضت مع ما تقتضيه اخوة الايمان . فكم حاول اهل النفاق اثارة العصبيات بين الاوس والخزرج ، وبين الانصار والمهاجرين ، فكان مصير محاولاتهم الفشل الذريع أمام اخوة الايمان : فقد مر معك ما كان من رأس المنافقين في غزوة بني المصطلق ، ويحسن في هذا المقام ان نذكر موقف ابنه المؤمن الصادق عبد الله ، رضي الله عنه ، فانه لما بلغه ما كان من امر ابيه اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، انه بلغني انك تريد قتل عبد الله بن ابي فيما بلغك عنه ، فان كنت فاعلا فمرني به ، فأنا أحمل اليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل ابر بوالديه مني ، اني أخشى أن تأمر به غيري ، فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر الى قاتل عبد الله بن ابي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل تترفق به وتحسن صحبته ما بقي معنا .

(١٣٤) النساء - الآية ٥٩ .

وذكر عكرمة وابن زيد ان الناس لما قفلوا راجعين الى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن ابي قال له ابنه : ورائك ، فقال : مالك ويلك ، فقال : والله لا تجوز من ههنا حتى ياذن بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانه العزيز وانت الذليل . وفي رواية انه قال لابي : والله لا تدخل المدينة ابدا حتى تقول : رسول الله الاعز وانا الاذل . وظل يحتجز والده حتى أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر عبد الله بالسماح لوالده (١٣٥) .

٨ - حسن الظن بالاخوة المؤمنين ، وعدم الالتفات الى ما ينسبه المنافقون اليهم من التهم والفواحش :

فان هذا احسن وقاية وانجمها امام ما عرفت من أسلوب المنافقين في نقد المسلمين ، واشاعة الفاحشة بينهم ، ولذلك فان الله سبحانه عاتب من استمع الى ما أثاره المنافقون من الكلام حول السيدة عائشة رضي الله عنها ، بعد الرجوع من غزوة بني المصطلق ، وأمرهم بحسن الظن باخوانهم وأخواتهم ، ونهاهم عن اتباع الاشاعات التي يثيرها المنافقون ، والرجوع الى البيانات الواضحات ، ومصادر العلم الموثوق بها للحكم على الناس (١٣٦) . فقال تبارك وتعالى في سورة النور : (ان الذين جاءوا بالافك عصابة منك ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امريء منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ، وقالوا : هذا افك مبين) (١٣٧) .

٩ - الاحتياط والحذر من أهل النفاق عند العزم على اتخاذ اجراءات مهمة ، والقيام بأعمال خطيرة :

وذلك بالكتمان واللجوء الى السرية وتعمية الاخبار على المنافقين

(١٣٥) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٧٢ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٠٢ .

(١٣٦) انظر : أحكام القرآن لابن العربي ج ٣ ص ١٣٤٣ .

(١٣٧) النور - الآيتان ١١ ، ١٢ .

والجهلة ، حتى لا ينقلها هؤلاء المنافقون الى أوليائهم من الكفار ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اراد الجهاد يوري عن العامة بغير ما يريد ، فقد روى كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان اذا اراد غزوة ورى بغيرها (١٣٨) • ولم يكن عليه الصلاة والسلام يفعل ذلك الا احتياطا من أهل النفاق والذين في قلوبهم مرض •

الاساليب العلاجية :

وبالاضافة الى ما تقدم من اساليب الوقاية من كيد المنافقين ، يجب على المؤمنين أن يجاهدوهم بما قد ينفعهم او ينفع بعضهم ، ويردهم عن غفلتهم وغيهم ، رجاء هدايتهم الى الحق ، وصددهم عن الباطل وانقاذهم من النار •

وقد عرفت مما تقدم عند ذكر صفاتهم أنهم أناس داؤهم حب الدنيا ، والتماس شهواتها عند العباد ، وان هذا نتيجة عدم يقينهم او ضعفه في الله عز وجل ، وفي صدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي وجود يوم أخير ، فيه الحساب والجزاء والثواب والعقاب •

لذلك فقد كان أسلوب القرآن الكريم في مواجهة قلوب المنافقين المريضة هو التركيز على مواضع غفلتهم ، بما يلي :

١ - تذكيرهم بما سيكون لهم من العذاب الشديد في اليوم الآخر الذي يربو على عذاب الكفار المجاهرين ، مع التبيين لهم ان باب التوبة مفتوح لهم قبل انتهاء اجلهم في هذه الحياة الدنيا ، قال عز وجل : (ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا • الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما • ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكرا عليما) (١٣٩) •

(١٣٨) متفق عليه ، انظر : صحيح البخاري مع فتح الباري ج ٦ ص ٨٥ •
(١٣٩) النساء - الآيات ١٤٥ - ١٤٧ •

وقال سبحانه في تهديد المنافقين وبيان ما ينتظرهم من الذل والهوان والعذاب : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الاماني ، حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار ، هي مولاكم وبئس المصير) (١٤٠) .

٢ - تذكيرهم بعلم الله الشامل المحيط بما تكنه صدورهم من النفاق وانهم وان استطاعوا ستره عن المؤمنين ، فان الله علام الغيوب مطلع على سرائرهم وما يخفون في قلوبهم من الكيد والمكر والخبث ، فقد قال سبحانه وتعالى في المنافقين : (ألم يعلموا ان الله يعلم سرهم ونجواتهم وان الله علام الغيوب) (١٤١) .

٣ - تذكيرهم بقضاء الله وقدره ، وان الامر بيده سبحانه ، لا بأيديهم ، وان خططهم ومكائدهم ومكرهم لن ينجيهم من قدر الله عز وجل ، ولن يثمر الا ما يأذن به الله ، وان ما كتب عليهم لن يدفعه عنهم ذلك المكر والكيد ، فقد قال لهم الله عز وجل ردا على ما قالوه بعد غزوة أحد : (قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم ، والله عليهم بذات الصدور) (١٤٢) . وقال للذين تخلفوا منهم عن عمرة المدينة ، واعتذروا بانشغالهم بأموالهم وأهليهم : (قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان اراد بكم ضرا او اراد بكم نفعا ، بل كان الله بما تعملون خبيرا) (١٤٣) .

(١٤٠) الحديد - الآيات ١٣ - ١٥ .

(١٤١) التوبة - الآية ٧٨ .

(١٤٢) آل عمران - الآية ١٥٤ .

(١٤٣) الفتح - الآية ١١ .

وقال سبحانه للذين يفرحون بما يحل بالمسلمين من المكروه ،
ويستأثرون مما يقع لهم من الحسنة : (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا
هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (١٤٤) .

٤ - الغلظة عليهم في معاملتهم في الحياة الدنيا ، وعدم التساهل
معهم ، وزجرهم بشدة في كل مرة تظهر عليهم علامة من علامات النفاق ،
واقامة الحدود عليهم ، واظهار عدم الرضى منهم ، فقد قال الله عز وجل :
(يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) (١٤٥) .

وقال سبحانه وتعالى : (يحلفون لكم لترضوا عنهم ، فان رضوا عنهم
فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) (١٤٦) ، ومن لا يرضى عنه ربه
لا ينبغي أن يكون محل رضى المؤمنين .

وقد روي عن قتادة في معنى قوله تعالى : (جاهد الكفار والمنافقين
واغلظ عليهم) انه قال : جهاد المنافقين باقامة الحدود عليهم ، وكانوا
اكثر ما يصيب الحدود . وكذلك قال الحسن وابن عباس رضي الله
عنهما ، ولكن مع شدة الزجر والتغليظ . روي عن ابن مسعود رضي
الله عنه انه قال فيها : جاهد المنافقين بيدك ، فان لم تستطع فبلسانك
فان لم تستطع فاكفهر في وجوههم . وروي عن الضحاك انه قال في معناها
جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام ، وهو مجاهدتهم (١٤٧) .

ويرى ابن جرير الطبري والعماد ابن كثير ان المنافقين يجاهدون
بالسيوف اذا اظهروا النفاق . واعتمدوا في ذلك على ما ورد عن علي بن
ابي طالب رضي الله عنه انه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
بأربعة أسياف : سيف للمشركين وهو قوله تعالى : (فاذا انسلخ الاشهر
الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) (١٤٨) ، وسيف لاهل الكتاب وهو

(١٤٤) التوبة - الآية ٥١ .

(١٤٥) التوبة - الآية ٧٣ .

(١٤٦) التوبة - الآية ٩٦ .

(١٤٧) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٠٤ ، تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٧١ ، وانظر : حياة الصحابة ج ٢ ص ٧٢٠ .

(١٤٨) التوبة - الآية ٥ .

قوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (١٤٩) ، وسيف للمنافقين ، وهو قوله تعالى : (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) ، وسيف للبغاة وهو قوله تعالى : (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله) (١٥٠) .
فقد جعل جهاد المنافقين كجهاد المشركين وأهل الكتاب والبغاة ، وجهادهم يكون بالسيف (١٥١) .

ولا شك أن جهاد المنافقين بالسيف لا يكون الا بعد قيام دولة الاسلام ولما ظهرت عليه علامات واضحة تدل على نفاقه وكفره .

٥ - ومن أساليب تأديب المنافقين والضغط عليهم ، التي أشار اليها القرآن الكريم حرمانهم من الفرص التي يحققون بها شهواتهم ويشبعون بها نزعاتهم المادية ، وعدم الاكتفاء بتكليفهم بما يطلبون من الامور السهلة التي يكون غنمها اكبر من غرمها بكثير ، فقد قال سبحانه في الاعراب المتخلفين عن عمرة الحديبية : (سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم ، يريدون ان يبدلوا كلام الله ، قل لن تتبعوننا ، كذلكم قال الله من قبل ، فسيقولون : بل تحسدوننا ، بل كانوا لا يفقهون الا قليلا) (١٥٢) ، فقد قالوا ذلك يطلبون الاشتراك مع المؤمنين في غزوة خيبر ، بعدما سمعوا ما وعد الله عباده الصادقين من المغانم ، فامر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يفوت عليهم هذه الفرصة ، وان يدعوهم الى تقديم البرهان الواضح على صدقهم ، بالاشتراك في قتال قوم أولي بأس ، يكون فيه توضيح بالمال والنفس ، فقال عز وجل : (قل للمخلفين من الاعراب استدعون الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم او

(١٤٩) التوبة - الآية ٢٩ .

(١٥٠) الحجرات - الآية ٩ .

(١٥١) انظر : تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٧١ .

(١٥٢) الفتح - الآية ١٥ .

يسلمون ، فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ، وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما (١٥٣) .

وهكذا ينبغي ان لا يمد المؤمنون الحبل للمنافقين ، وان لا يداروهم ولا يمكنوهم من تحقيق مآربهم بأسهل التكليف ، بل ينبغي أن يزجروهم في الامتحانات الكاشفة فانها هي التي تعرف على صدقهم او على كذبهم ونفاقهم .

٦ - ومن العقوبات المعنوية للمنافقين التي أشارت اليها آيات سورة التوبة أنهم اذا عرفوا لا يجوز الاستغفار لهم ، كما قال تعالى : (استغفر لهم او لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين) (١٥٤) .

وكذلك عدم الصلاة على من يموت منهم ، كما قال سبحانه وتعالى : (ولا تصل على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره ، انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) (١٥٥) .

وكذلك رد نفقاتهم وعدم قبولها ، كما قال الله عز وجل : (قل : انفقوا طوعا او كرها ، لن يتقبل منكم ، انكم كنتم قوما فاسقين ، وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله ورسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ، ولا ينفقون الا وهم كارهون) (١٥٦) .

(١٥٣) الفتح - الآية ١٦ .

(١٥٤) التوبة - الآية ٨٠ .

(١٥٥) التوبة - الآية ٨٤ .

(١٥٦) التوبة - الآيتان ٥٣ ، ٥٤ .

المبحث الخامس

في

جهاد الظالمين والفاستقن

(الامر بالمعروف والنهي عن المنكر)

عندما يأذن الله عز وجل بقيام دولة الاسلام ، فتجتمع الامة المسلمة على عبادته سبحانه ، وتحكيم شرعه ، وطاعته والتزام امره ، واجتناب نهيه ، وتسيير شؤونها كلها وفق ارادته عز وجل ، يغدو من اول واجبات هذه الامة ان تحافظ على هذا الوضع الذي يرضي الله عز وجل ، وان تصد كل منحرف عن طريق الله تعالى ، حتى لا يتسع الانحراف ويزداد ، فيصير الناس الى جاهلية جهلاء ويخرجوا عن منهج الله سبحانه .

وهذا الواجب العظيم هو واجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهو الوظيفة الربانية التي جعلها الله لجماعة المسلمين بين أهل الارض جميعا . فان قامت به على الوجه الذي يرضي ربها ، حازت على شهادة الخيرية على كل الامم ، وتأهلت بذلك لقيادة البشرية كلها في طريق الايمان (١) .

قال الله تعالى في بيان وظيفة هذه الجماعة : (الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) (٢) ، فهذا هو المطلوب من الجماعة المسلمة عندما يمكنها الله في الارض : ان تعبدته حق عبادته وتقيم شرائعه وتصون الحياة من الشر والفساد بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله تعالى .

وقال تعالى مبينا أن الايمان والامر بالمعروف والنهي عن المنكر هي مؤهلات الامة التي تصلح لقيادة الناس في هذه الحياة : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (٣) .

(١) في ظلال القرآن - المجلد الثاني ص ٢٧ ، ٢٢ ، الحسبة لابن تيمية ص ٦١ .

(٢) الحج - الآية ٤١ .

(٣) آل عمران - الآية ١١٠ .

فهذا المنصب العظيم لا يوصل اليه بمجرد الادعاء ، ولا بالوراثة ، ولا بمجرد الترقى في علوم المادة ، وانما بالايان بالله عز وجل ، واستمداد المعارف وتلقي المناهج والاحكام منه سبحانه ، ثم الدعوة الى الخير ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤) .

وجهاد الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، اذا أخذ بمعناه الشامل دخل فيه جميع انواع الجهاد (٥) التي سبق الكلام عنها في المباحث السابقة : فجهاد النفس أمر لها بالمعروف ، ونهي لها عن المنكر ، وجهاد الشيطان كذلك نهى للناس عن اتباع منكروه الذي يدعو اليه ، والابتعاد عن حبائله ومكائده . وجهاد الكفار بدعوتهم الى الله ، وبالسيف أمر لهم بالمعروف الاكبر ، وهو الايمان ونهي لهم عن المنكر الاكبر وهو الكفر والشرك ، وكذلك جهاد المنافقين .

الا اننا سنخصص هذا المبحث لتوضيح جانب من جوانب هذا المعنى الشامل للامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهو الجانب الذي تبقى من ذلك الشمول ، ولم يتناوله الحديث ، وهو جهاد الفاسقين والعصاة والظالمين ممن يعيشون بين اظهر المسلمين ، ولم يصدر عنهم ما يستوجب الحكم بردتهم وكفرهم ، ولكنهم استجابوا لداعي الهوى ، والشيطان في بعض الامور ، وخرجوا عن امر الله تعالى فيها .

ويفيدنا في هذا الموضوع أن نعرف معنى المعروف الذي يجب الامر به والمنكر الذي يجب النهي عنه ، ثم ضرورة هذا النوع من الجهاد ، وخطورته ، وتأکید الشارع عليه . ثم نذكر أهم المبادئ والآداب التي يجب مراعاتها عند القيام بهذه الفريضة . ونختم هذا المطلب بذكر امثلة من مواقف علماء السلف في أمر الحكام بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

(٤) انظر : في ظلال القرآن ، المجلد الثاني ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٥) انظر : الحسبة في الاسلام ص ٦٣ .

المعروف والمنكر :

الأصل في معنى المعروف انه اسم لكل خير ، والمنكر اسم لكل أمر قبيح (٦) . ولكن ما الميزان الصحيح والضابط في تمييز الخير من الشر ، والحسن من القبيح ؟ ومن المرجع في ذلك ؟

يقول ابن منظور في لسان العرب : (وقد تكرر ذكر المعروف في الحديث ، وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب اليه والاحسان الى الناس ، وكل ما ندب اليه الشرع . . . والمنكر ضد المعروف ، وهو كل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر) (٧) .

وهذا الذي قاله ابن منظور هو الحق الذي لا مرأى فيه . فانه ليس من شك في انه لا يصح ولا يعقل ان يرجع في معرفة الميزان في ذلك الى من يعتوره الجهل والنقص والهوى والشهوة وعدم النزاهة ، وغير ذلك من النقائص . ومن هنا لا يجوز ان يرجع في وضع هذا الميزان الى الانسان مهما كان ، سواء كان حاكما او محكوما ، غنيا او فقيرا ، فردا او جماعة او امة او جيلا ، فان الفساد والشر قد يعم وينتشر حتى يصبح الخير غريبا ، وأهله غرباء ، وفي هذه الحال تنتكس الاذواق وتنعكس ، وتقلب الطعوم عندها ، حتى يغدو المر حلوا ، والحلو مرا ، والخير شرا والشر خيرا ، والحق باطلا ، والباطل حقا ، وذلك بفعل تزيين الشياطين من الانس والجن . والى هذا يشير قوله تعالى : (وان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون) (٨) ، فانه ليس لابن آدم عندما يقطع صلته بربه من مصادر المعرفة سوى الظن والخرص ، ومن دوافع السلوك سوى الهوى ، وثن تكون احكامه ومناهجه واتجاهاته سوى ثمرات لهذا الظن وهذا الهوى .

(٦) انظر : المصباح المنير في مادتي عرف ونكر ، وتاج العروس في فصل النون من باب الراء ، وتفسير الطبري ج ٧ ص ١٠٥ .

(٧) لسان العرب في مادتي عرف ونكر .

(٨) الانعام - الآية ١١٦ .

من هنا كان لا بد للانسان من الرجوع الى ربه ليحدد له المعروف والمنكر ، ويضع له الميزان ، للتمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل فانه تعالى وحده المنزه عن كل نقص ، والمتصف بصفات الجلال والكمال هو الذي خلق كل شيء ، وهو العليم الخبير الحكيم ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء . وليس بحاجة الى احد ، امره اذا اراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فهو منزّه عن التحيز للبشر ، وعن ظلمهم . فهو وحده الذي يجب على البشر ان يرجعوا اليه ، ليعرفهم على القيم الرفيعة ، والاخلاق السليمة والشرائع الحكيمة ، لانه وحده القادر على ان يدلهم على الخير ، وان يعرفهم بالشر ، اذ هو الذي خلقهم وخلق كل شيء : (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)^(٩) . وغيره لا يستطيع أن يهدي الى الخير الا اذا كان يستمد ويتلقى منه سبحانه ، كما قال عز وجل : (ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين)^(١٠) . فانه وحده هو مصدر الهدى ومرجعه ، واول الطريق في الهدى واصله هو الاستسلام لله وطاعته والانقياد لأمره .

مما تقدم يوقن المؤمنون ان المعروف هو كل ما امر الله به ، ورسوله ، وان المنكر كل ما نهى عنه الله ورسوله^(١١) .

(٩) الملك - الآية ١٤

(١٠) الانعام - الآية ٧١

(١١) انظر : في طلال القرآن ، المجلد الثاني ص ٣٣ ، وتفسير الطبري ج ٧ ص ١٠٥ والامر بالمعروف والنهي عن المنكر لابي بكر الخلال ص ١٤ ، والحسبة لابن نسيمة ص ١٠٣ ودليل الفالحين ج ١ ص ٤٦٠ ، وتنبيه الغافلين ص ٣٣ ، والعلاقات الدولية في الاسلام ص ٤٩ . هذا وليس هنا مقام تفصيل الامور التي تدخل في مفهوم المعروف ، والامور التي هي من المنكرات ، فان ذلك يطول جدا ، ويحتاج الى مؤلف مستقل . وقد عمد بعض العلماء الى ذكر تقسيمات اجمالية للمعروف والمنكر ، من هؤلاء ابو الحسن الماوردي والقاضي ابو يعلى في كتاب « الاحكام السلطانية » فقدم جملا للمعروف في ثلاثة اصناف : ما يتعلق بحقوق الله تعالى ، وما يتعلق بحقوق الآدميين وما كان مشتركا بينهما ، وجعلا المنكر في ثلاثة اقسام مشابهة لاقسام المعروف من حيث التعلق بحق الله او بحق الآدمي - انظر الاحكام السلطانية لابي يعلى ص ٢٨٧ وما بعدها ، والاحكام السلطانية للماوردي ص ٢٤٣ وما بعدها ، ومن صنف المنكرات ابن تيمية في كتابه « الحسبة في الاسلام » فقد قسم الذنوب الى ثلاثة اقسام : أحدها ما فيه ظلم الناس كالظلم باخذ الاموال ومنع الحقوق والحسد ونحو ذلك ، والثاني ما فيه ظلم النفس فقط كشرب الخمر والزنا ، اذا لم يتعد ضررها . والثالث ما يجتمع فيه الامران - انظر الحسبة في الاسلام ص ٨١ . وانظر ايضا كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لابي بكر الخلال ودراسته لعبد القادر احمد عطا . وانظر تقسيم الغزالي للمنكرات في احياء علوم الدين ج ٢ الباب الثالث من كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وليس المعروف والمنكر ما اصطلح عليه الناس او امة من الامم ، اللهم
الا اذا كانت هذه الأمة هي الأمة الاسلامية ، لانها تستمد مقاييسها من
كتاب ربها وسنه رسوله صلى الله عليه وسلم .

ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى في بيان الحاجة الى القيام بهذه
الفريضة : (وكل بشر على وجه الارض فلا بد له من أمر ونهي ، ولا بد
أن يأمر وينهى حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها ، اما بمعروف
أو بمنكر ، كما قال تعالى : « ان النفس لأمارة بالسوء » (١٢) .

فان الأمر هو طلب الفعل وارادته ، والنهي طلب الترك وارادته ،
ولا بد لكل حي من ارادة وطلب في نفسه ، يقتضي بهما فعل نفسه ويقتضي
بهما فعل غيره . اذا امكن ذلك ، فان الانسان حي يتحرك بارادته . وبنو
آدم لا يعيشون الا باجتماع بعضهم مع بعض ، واذا اجتمع اثنان فصاعدا
فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر وتناه عن أمر واذا كان الامر
والنهي من لوازم وجود بني آدم ، فمن لم يأمر بالمعروف الذي أمر الله
به ورسوله ، وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله ، ويؤمر
بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه
ورسوله ، والا فلا بد أن يأمر وينهى ويؤمر وينهى ، اما بما يضاد ذلك ،
واما بما يشترك فيه الحق الذي أنزله الله بالباطل الذي لم ينزله
الله) (١٣) .

ولزيادة توضيح ما ذكره ابن تيمية نذكر الاخ القاريء بما تقدم من
وجود اعداء كثيرين لابن آدم ، من الشياطين والكفار والمنافقين ، وان
لهؤلاء الاعداء أعوانا في الانسان نفسه من الاهواء والشهوات . ولتعلم
أن هؤلاء الاعداء لا يفترون عن محاربة المؤمن . ومحاولة اخراجه عن

(١٢) يوسف - الآية ٥٣ .
(١٣) الحسبة في الاسلام ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

طاعة ربه • واهل الايمان ، في مواجهة هؤلاء الاعداء اصناف ، فمنهم من يستجيب لهم في الكفر والارتداد عن طريق الايمان بالكلية والعياذ بالله تعالى ، ومنهم من يستجيب لهم في معصية الله في بعض الامور ، وان لم يستجب لهم في الخروج عن دين الله عز وجل ، وهؤلاء هم اهل المعاصي والمنكرات ، ومنهم من لا يستجيب للاعداء لا في الكفر ولا في المعصية ، وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون •

واذا كان اعداء المؤمن دائبين في حربه وصدّه عن سبيل الله ، فان أعظم الخطر ان لا يجد هؤلاء الاعداء من يقف أمامهم من المؤمنين الصادقين ، لان حصيلة هذا الوضع ستكون نقصانا مستمرا في جانب اهل الايمان ، وزيادة مستمرة في جانب اهل المعاصي ، حتى يصبح الصادقون من المؤمنين أنفسهم على خطر عظيم •

غير أن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوقوف امام المستجيبين للشياطين من الظالمين والفساقين ، واعادتهم الى حظيرة الطاعة لله بوسائل اللين والشدّة • كل ذلك يوقف من المد الشيطاني ، ويقلل من معصية الله وأهلها في مجتمع الايمان • وينجي هذا المجتمع من غضب الله والفتن العامة الطامة التي لا ينجو منها الا الذين ينهون عن السوء ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب) (١٤) • وفي المقابل يقول عز وجل : (فلما نسوا ما ذكروا به أنجيناهم الذين ينهون عن السوء ، واخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) (١٥) • فمن لا ينهى عن السوء لا ينجيه مجرد ايمانه ، وقيامه ببعض الطاعات عند حلول الفتن والمصائب • ولكن الذي ينجيه هو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر بعد ايمانه وطاعته لربه •

(١٤) الانفال - الآية ٢٥ •

(١٥) الاعراف - الآية ١٦٥ •

وقد ذكر الامام أحمد اثرا فيه ان الله سبحانه اوحى الى ملك من الملائكة ان اخسف بقرية كذا وكذا ، فقال : يا رب كيف وفيهم فلان العابد ؟ فقال : به فابدأ فانه لم يتمعر وجهه في يوما قط (١٦) .

وذكر ابو عمر في كتاب التمهيد ان الله سبحانه اوحى الى نبي من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد : اما زهدك في الدنيا فقد تعجلت به الراحة ، واما انقطاعك الي فقد اكتسبت به العز ، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك ؟ فقال : يا رب وأي شيء لك علي ؟ قال : هل واليت في وليا او عاديت في عدوا (١٧) .

ويقول ابن القيم في بيان خطر من يعطل فريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل التفرغ لأنواع العبادات من الذكر والقراءة والصيام : (وقد غر ابليس اكثر الخلق بان حسن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع ، وعطلوا هذه العبوديات (١٨) ، فلم يحدثوا قلوبهم بالقيام بها ، وهؤلاء عند ورثة الانبياء من أقل الناس ديناً ، فان الدين هو القيام لله بما امر به ، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالا عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وبما كان عليه هو واصحابه رأى ان اكثر من يشار اليهم بالدين هم أقل الناس ديناً ، والله المستعان . وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك وحدوده تضاع ، ودينه يترك ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يرغب عنها ، وهو بارد القلب ، ساكت اللسان ؟ شيطان أخرس ، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق . وهل بلية الدين الا من هؤلاء الذين اذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين ؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه او ماله بذل وتبذل وجد واجتهد ، واستعمل مراتب الانكار الثلاث

(١٦) انظر : اعلام الموقعين ج ٢ ص ١٧٧ ، جمع الفوائد من جامع الاصول ومجمع الزوائد ج ٢ ص ٣٧ .

(١٧) انظر : اعلام الموقعين ج ٢ ص ١٧٧ .

(١٨) المقصود عبادة الله بالجهاد والدعوة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر

بحسب وسعه ، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ، ومقت الله لهم ، قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون ، وهو موت القلوب ، فان القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى ، وانتصاره للدين أكمل (١٩) .

فهذا النوع من الجهاد تقوية لجبهة اهل الايمان الداخلية ، وتنقية لها من كل فاسد ، مفسد ، وتضييق على أهل النفاق ، وقصم لظهورهم : يروي ابو بكر الخلال عن سفيان انه قال : (اذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن ، واذا نهيت عن المنكر ارغمت انف المنافق) (٢٠) .

واما العزوف عن هذا الجهاد فيكون فيه تقوية للمنافقين ، واعلاء لشأنهم وامداد لشركهم وفسادهم : روى الخلال عن احمد بن حنبل انه قال : يأتي على الانسان زمان يكون المؤمن فيه بينهم مثل الجيفة ، ويكون المنافق يشار اليه بالاصابع ، قيل : وكيف يشار الى المنافق بالاصابع ؟ فقال : صيروا أمر الله فضولا : المؤمن اذا رأى امرا بالمعروف او نهيا عن المنكر لم يصبر حتى يأمر وينهى ، فيقولون : هذا فضول . والمنافق كل شيء يراه قال بيده على فمه (٢١) ، فيقولون : نعم الرجل ليس بينه وبين الفضول عمل (٢٢) .

وعندما يغدو حال المجتمع الاسلامي كما وصفه ابن حنبل رحمه الله تعالى ، تتبدل القيم ، وتنتكس النظرة الانسانية الى الامور ، فيصير الأمر بالمعروف فضوليا ، والمنافق المداهن مهذبا ومؤدبا ، فيؤول الامر الى انتشار المعاصي ، والمعاصي كما قال بعض علماء السلف يريد الكفر (٢٣) ، فاذا كثرت ولم يجد العصاة من يحد من فسوقهم عن أمر الله عز وجل ، كثر بالتالي المرتدون عن دين الله ، والداخلون في ولاية الشيطان والكفار ، الى ان ترجع الحال الى ما كانت عليه في الجاهلية

(١٩) اعلام الموقعين ج ٢ ص ١٧٧ .

(٢٠) انظر كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لابي بكر الخلال ص ١١٣ ، وتنبيه الغافلين ، ص ٣٣ .

(٢١) اي اغلق فمه فلم ينه عن منكر ولم يأمر بمعروف .

(٢٢) كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ١١٤ .

(٢٣) انظر : كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي ج ١ ص ١٢ .

الاولى ، فيعطل شرع الله ، ويتخذ ظهريا ، ويهجر كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتتحكم الاهواء في العباد ، ويكون ذلك كله ثمرة التقاعس عن فريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

يقول الامام النووي رحمه الله تعالى في بيان قدر هذه الفريضة ، وخطورة هذا النوع من الجهاد ووجوبه على المؤمنين : (واعلم ان هذا الباب ، أعني باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع اكثره من أزمان متطاولة ، ولم يبق منه في هذه الازمان الا رسوم قليلة جدا ، وهو باب عظيم به قوام الامر وملاكه . واذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح . واذا لم يأخذوا على الظالم اوشك ان يعمهم الله تعالى بعقابه ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ، فينبغي لطالب الآخرة، والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل ان يعتني بهذا الباب ، فان نفعه عظيم ، لا سيما وقد ذهب معظمه ، ويخلص نيته ، ولا يهابن من ينكر عليه لارتفاع مرتبته ، فان الله تعالى قال : « ولينصرن الله من ينصره » (٢٤) وقال تعالى : « ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم » (٢٥) ، وقال تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » (٢٦) ، وقال تعالى : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (٢٧) . واعلم أن الاجر على قدر النصب . ولا يتاركة ايضا لصداقته ومودته ومداهنته وطلب الوجاهة عنده ، ودوام المنزلة لديه ، فان صداقته ومودته توجب له حرمة وحقا ، ومن حقه أن ينصحه ويهديه الى مصالح آخرته ، وينقذه من مضارها ، وصديق الانسان ومجبه من سعى في عمارة آخرته ، وان ادى ذلك الى نقص في دنياه ، وعدوه من يسعى في ذهاب أو نقص آخرته وان حصل

(٢٤) الحج - الآية ٤٠ .

(٢٥) آل عمران - الآية ١٠١ .

(٢٦) المنكوت - الآية ٦٩ .

(٢٧) المنكوت - الآيتان ٢ ، ٣ .

بسبب ذلك صورة نفع في دنياه • وانما كان ابليس عدوا لنا لهذا (٢٨)،
وكانت الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أولياء للمؤمنين ،
لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم اليها (٢٩) •

ويقول ابن العربي المالكي : (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل
في الدين وعمدة من عمد المسلمين وخلافة رب العالمين ، والمقصود الاكبر
من بعث النبيين ، وهو فرض على جميع الناس مثني وفرادى بشرط
القدرة عليه) (٣٠) •

هذا ونسوق اليك حديثا يبين ضرورة هذا النوع من الجهاد ،
والضرر العظيم الذي يترتب على اهماله ، فقد روى النعمان
ابن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (مثل
القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار
بعضهم اعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين في أسفلها اذا استقوا من
الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو انا خرقتنا في نصيبنا خرقا ، ولم
نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما ارادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على
أيديهم نجوا ونجوا جميعا) (٣١) •

فانظر كيف بين الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا المثل أن
هلاك المجتمع انما هو نتيجة محتومة لترك اصحاب المنكر والفساد
يعيشون في الارض فسادا ، وعدم الاخذ على أيديهم • وان المنكر قد يرى
في أول الامر هينا وبسيطا ، كالخرق في السفينة ، فان ترك مع بساطته
وعدم اتساعه ، فشا في المجتمع المسلم وازداد حتى يؤول في آخر

(٢٨) أي لانه يسمى في خراب آخرتنا وان أدى صنيعه الى زيادة في شهواتنا •

(٢٩) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٤ •

(٣٠) عارضة الاحوذى ج ٢ ص ١٣ • وانظر أيضا تفسير القاسمي ج ٤ ص ١٠٤ •

(٣١) رواء البخاري في كتاب الشركة باب « هل يقرع في القسم » ، وانظر صحيح الترمذي بشرح ابن العربي
ج ٩ ص ١٩ ، وقد قال عنه الترمذي حسن صحيح • والقائم في حدود الله معناه المنكر لها ، القائم في
دفعها وازالتها ، والمراد بالحدود ما نهى الله عنه - انظر : رياض الصالحين ص ٩٧ ، ودليل الفالحين
ج ١ ص ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ونزعة المتقين ج ١ ص ٢١١ ، وقال في دليل الفالحين في بيان وجود الفرق
الثلاث في المثل المضروب : ان الذين ارادوا غرق السفينة بمنزلة الواقع في حدود الله ، ثم من عداهم :
اما منكر وهو القائم ، واما ساكت وهو المداخن - دليل الفالحين ج ١ ص ٤٧٠ ، ٤٧١ •

المطاف الى بلاء عظيم . وقد يؤدي الى القضاء عليه . وهذه سنة من سنن الله عز وجل اشار اليها في قوله تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) . وروت زينب بنت جحش رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول : (لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بين اصبعيه الابهام والتي تليها . فقلت : يا رسول الله . انهلك وفينا الصالحون ؟ . قال : نعم اذا كثر الخبث) (٣٢) . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : (ان الله تعالى لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، ولكنه اذا اظهرت المعاصي فلم يذكرها فقد استحق القوم جميعا العقوبة) (٣٣) .

أدلة مشروعيته وتأكيده الشارع عليه :

لهذا كله كان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم قواعد الاسلام . ومن اكثر ما تناوله القرآن والسنة من الواجبات بالحث عليه والوعد لمن قام به بخير الجزاء . والوعيد لمن تركه وتهاون فيه .

ولقد اشارت الآيات والاحاديث الى أنه خصلة من أعظم خصال الايمان . قال تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، اولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم) (٣٤) ، فهذه صفتهم : يأمرون بالخير ويقاومون الفساد ، ولا يسكتون عن الباطل ولا يخافون لومة لائم .

كذلك بين رسول الله صلى الله عليه وسلم انه لا ايمان لمن لا ينكر المنكر بصورة من الصور ، ولا يجاهد أهل المنكر بأي نوع من الجهاد ، وان جهاد المنكر مهما استكثر منه المؤمن ، فانه يدل على زيادة ايمانه ، ومهما تقاعس عنه كان دليلا على ضعف ايمانه ويقينه ، حتى اذا انعدم

(٣٢) انظر ، صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١٣ ص ٩١ وما بعدها .

(٣٣) تنبيه الغافلين ص ٣٢ .

(٣٤) التوبة - الآية ٧١ .

انكار المنكر بجميع صوره ، كان دليلا على ذهاب الايمان ، والعياذ بالله تعالى ، فقد روى مسلم والترمذي عن طارق بن شهاب قال : اول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان ، فقام اليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة ، فقال : قد ترك ما هنالك ، فقال ابو سعيد : اما هذا فقد قضى ما عليه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان) (٣٥) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي الا كان له من امته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم انها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدكم ببيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل) (٣٦) . فانظر كيف ربط عليه الصلاة والسلام بين الايمان وهذا النوع من الجهاد زيادة ونقصا ، وهو صريح في ذهاب الايمان عمن لا ينكر المنكر بقلبه ، وقد روى عن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال : هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر (٣٧) .

واذا كان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم خصال الايمان ، فقد جاء ايجابه والحث عليه وتهديد المتقاعسين عنه ، وترغيب القائمين به في كثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة . من ذلك :

قوله عز وجل : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، واولئك هم المفلحون) (٣٨) ، فالآية واضحة الدلالة على الايجاب ، كما بينت ان الفلاح منوط بالقيام بهذه الفريضة .

(٣٥) رواه مسلم والترمذي وابو داود وابن ماجه واحمد - انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ج ٢ ص ٢٢ وما بعدها ، وصحيح الترمذي بشرح ابن العربي المالكي ج ٩ ص ١٨ ، ودليل القالين ج ١ ص ٤٦٦ .

(٣٦) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ج ٢ ص ٢٧ .

(٣٧) دليل القالين ج ١ ص ٤٦٦ .

(٣٨) آل عمران - الآية ١٠٤ .

وقوله عز وجل : (ليسوا سواء ، من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات واولئك من الصالحين) (٢٩) ، فيظهر من هذه الآية الكريمة ان شهادة الله عز وجل بالصالح لا يستحقها الا من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بعد ايمانه بالله واليوم الآخر وعبادة الله عز وجل (٤٠) .

ولقد لعن الله كفار بني اسرائيل ولعنهم انبياءهم لتركهم هذه الفريضة ، فقال سبحانه وتعالى : (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون) (٤١) .

كما امر الله سبحانه عباده المؤمنين على التعاون على البر والتقوى ، ونهاهم عن التعاون على الاثم والعدوان ، فقال : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) (٤٢) ، وأمرهم بالتواصي بالحق والصبر ، كما قال تعالى : (والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) (٤٣) ، وهذا التعاون ، وهذا التواصي يدخل فيه بصورة مباشرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال عز وجل : (فلو لا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الارض) (٤٤) ، فبين سبحانه انه اهلكهم جميعا الا قليلا منهم كانوا ينهون عن الفساد (٤٥) . وقال تعالى : (لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه اجرا عظيما) (٤٦) .

(٣٩) آل عمران - الآيتان ١١٣ ، ١١٤ .

(٤٠) احياء علوم الدين - المجلد الثاني ص ١١٨٧ .

(٤١) المائدة - الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

(٤٢) المائدة - الآية ٢ .

(٤٣) سورة العصر .

(٤٤) هود - الآية ١١٦ .

(٤٥) احياء علوم الدين - المجلد الثاني ص ١١٨٧ .

(٤٦) النساء - الآية ١١٤ .

وقد ذكر الله تعالى ان من صفات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة ، انه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فقال سبحانه : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم) (٧) .

كما عرفت ان الله سبحانه اشترط في الأمة التي تستلم قيادة البشرية أن تكون أمرة بالمعروف وناهية عن المنكر ، ومن لا يفعل ذلك من الأمم فلا يستحق ان يكون في هذا المركز (٤٨) .

وأما الاحاديث الواردة في الحث على هذا الجهاد :

فقد تقدم حديث ابي سعيد الخدري الذي رواه الامام مسلم وغيره ، وفيه ايجاب انكار المنكر على كل مسلم ، وعدم سقوطه عن احد من المسلمين .

ومنها ما ورد عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه انه قال : ايها الناس انكم تقرأون هذه الآية : (يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) (٤٩) . واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه اوشك ان يعمهم الله بعقاب منه) (٥٠) ، فليس في الآية ما يدل على عدم وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانما اراد الله سبحانه أن يعلم عباده بأنه لا يطلب منهم هداية العباد ، وتحقيق نتائج أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وانما واجبهم هو جهاد المنكر . واما تحقيق النتائج فهو أمر يختص به رب الناس ، فلا يجوز اذن أن يعتذر أحد عن تقاعسه عن هذا الواجب بصدود الناس وعدم استجابتهم ، اذ ليس عليه هداهم

(٤٧) الاعراف - الآية ١٥٧ .

(٤٨) في ظلال القرآن - المجلد ٢ ص ٣٣ .

(٤٩) المائدة - الآية ١٠٥ .

(٥٠) أخرجه الترمذي وقال ، عنه صحيح - انظر صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ٩ ص ١٥ .

ولكن عليه نهيه عن المنكر وأمرهم بالمعروف ، يقول ابن تيمية :
(والاهتداء انما يتم باداء الواجب ، فاذا قام المسلم بما يجب عليه من
الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره
ضلال الضلال) (٥١) .

ومنها ما ورد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : (والذي نفسي بيده ، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن
المنكر او ليوشكن الله ان يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب
لكم) (٥٢) ، فبين الرسول عليه الصلاة والسلام أن التخلف عن القيام
بفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يجلب سخط الله وعقابه ،
كما يحول دون استجابة الدعاء ، ولو كان صادرا من أناس مؤمنين ، ما
داموا لا يأمرن بمعروف ولا ينهون عن منكر .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبائع اصحابه على رؤوس
الفرائض وأهم الواجبات ، وكان مما بايعهم عليه قول الحق ، وعدم
خشية الناس فيه ، فقد قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : (بايعنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر ،
والمتشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى الا ننازع الامر أهله ، الا
أن تروا كفرا مباحا عندكم من الله تعالى فيه برهان ، وعلى أن نقول الحق
أيما كنا لا نخاف في الله لومة لائم) (٥٣) .

وبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الامر بالمعروف والنهي عن
المنكر من حق الطريق ، فقد جاء عن ابي سعيد الخدري رضي الله
عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : (اياكم والجلوس في الطرقات ،
فقالوا : يا رسول الله ، ما لنا من مجالسنا بد ، نتحدث فيها ، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : فاذا أبيتم الا المجلس فأعطوا الطريق حقه ،

(٥١) الحسبة في الاسلام ص ٦٤ .

(٥٢) أخرجه الترمذي وقال عنه حسن ، انظر صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ٩ ص ١٧ .

(٥٣) متفق عليه - انظر صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١٣ ص ٥ ، وصحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢
ص ٢٢٨ .

قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الاذى
ورد السلام ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر (٥٤) .

كذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحث على جهاد الحكام
من اهل الجور والفسوق ، وبين عليه الصلاة والسلام ان جهادهم هو
أفضل الجهاد ، وان الشهادة التي تنال به هي من أعلى وأرفع أنواع
الشهادة ، فقد روى ابو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال : (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر) (٥٥) .

وروى النسائي باسناد صحيح ان رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم
وقد وضع رجله في الفرز (٥٦) : اي الجهاد افضل ؟ قال : كلمة حق عند
سلطان جائر (٥٧) .

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (سيد
الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه
فقتله) (٥٨) .

وفي التهريب من اهمال هذه الفريضة روى ابن مسعود رضي الله
عنه عن الرسول عليه الصلاة والسلام انه قال : (ان اول ما دخل النقص
على بني اسرائيل انه كان الرجل يلقي الرجل فيقول : يا هذا ، اتق الله
ودع ما تصنع فانه لا يحل لك ، ثم يلقيه من الغد وهو على حاله ، فلا
يمنعه ذلك ان يكون اكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله
قلوب بعضهم ببعض ثم قال : « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على
لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا
يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيرا منهم يتولون

(٥٤) متفق عليه - أخرجه البخاري في كتاب المظالم « باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصدقات »
ورواه مسلم في اللباس .

(٥٥) رواه ابو داود والترمذي وقال عنه : هذا حديث حسن عريب - انظر صحيح الترمذي بشرح ابن العربي
المالكي ج ٩ ص ٢٠ ، ونزعة المتقين ج ١ ص ٢١٦ .

(٥٦) اي الركاب .

(٥٧) رياض الصالحين باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وانظر جمع الفوائد ج ٢ ص ٣٦٩ .

(٥٨) رواه الترمذي والحاكم وقال : صحيح الاسناد - انظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٢٥ .

الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم « الى قوله تعالى « فاسقون » ، ثم قال : كلا والله ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، او ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم) (٥٩) •

وفي بيان ضرورة الانكار القلبي للمنكر ، وخطورة الاطمئنان القلبي لما يرى المؤمن من المنكرات ، روى حذيفة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والارض ، والآخر أسود مربادا (٦٠) كالكوز مجنيا (٦١) لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا الا ما أشرب من هواه) (٦٢) • ويقول المنذري في بيان معنى هذا الحديث : (ومعنى الحديث ان القلب اذا افتتن ، وخرجت منه حرمة المعاصي والمنكرات ، خرج منه نور الايمان كما يخرج الماء من الكوز اذا مال او انتكس) (٦٣) •

هذه الآيات والأحاديث الكثيرة تبين لك مركز هذا النوع من الجهاد من الدعوة الاسلامية بصورة عامة ، وبين أنواع الجهاد المختلفة بصورة خاصة • وتذكر على انه ركن من اركان الاسلام ، ودعامة من دعائمه ، وقاعدة عظيمة من قواعده • وقد روى الحاكم والبخاري ما يدل على أن هذا الركن لا يقل في أهميته عن أركان الاسلام الاخرى ، فقد روى الحاكم عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الاسلام أن تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم

(٥٩) رواه ابو داود والترمذي وقال : حديث حسن ، وهذا لفظ ابي داود - انظر رياض الصالحين في باب

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر •

(٦٠) متغيرا الى الغيرة مائلا الى الرمادي •

(٦١) أي مائلا •

(٦٢) رواه مسلم وغيره - انظر الترغيب والترهيب للمنذري ج ٣ ص ٢٣١ •

(٦٣) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٣٢ •

رمضان ، والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتسليمك على أهلك ، فمن انتقص شيئا منهن ، فهو سهم من الاسلام يدعه ، ومن تركهن فقد ولى الاسلام ظهره) (٦٤) . وروى البزار من حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الاسلام ثمانية أسهم : الاسلام سهم ، والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، والصوم سهم ، وحج البيت سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهي عن المنكر سهم ، والجihad في سبيل الله سهم ، وقد خاب من لا سهم له) (٦٥) .

ومع أن هذين الحديثين ليسا في قوة الأحاديث السابقة ، إلا أن ما سبق ذكره من الآيات والأحاديث الكثيرة التي أمرت بهذا الجهاد ، وحثت عليه وتوعدت من تركه ، ووعدت بحسن الجزاء من قام به ، يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة من فرائض الاسلام ، يترتب على إهماله من الخطر على المجتمع الاسلامي ما يترتب على إهمال أي ركن آخر من أركان الاسلام .

وبذلك تكون محصلة تلك النصوص أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب من الواجبات الشرعية على كل مسلم ، بقدر استطاعته ، وضمن شروط وآداب وسنن سنشير إلى كثير منها قريباً إن شاء الله تعالى .

وعلى وجوب هذا النوع من الجهاد قام إجماع علماء المسلمين في كل عصر (٦٦) . ومع أن جمهور العلماء ذهبوا إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض من فروض الكفاية على جماعة المسلمين ، وليس فرضاً عينياً على كل مسلم (٦٧) ، إلا أن بعض العلماء ذهبوا إلى أن هذا الجهاد فرض عين على كل مسلم ، على قدر استطاعته ، ومن هؤلاء ابن حزم الظاهري رحمه الله تعالى فقد قال : (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(٦٤) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٢٢ .

(٦٥) المرجع السابق .

(٦٦) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٢ ، والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج ٥

ص ١١ ، والإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرمين ص ٣٦٨ ، وبستان العارفين ص ٥٢ .

(٦٧) انظر : أحياء علوم الدين - المجلد الثاني ص ١١٨٧ ، وشرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٢ ،

والحسبة في الاسلام ص ٦٣ .

فرضان على كل أحد ، على قدر استطاعته : باليد ، فمن لم يقدر فبلسانه ،
فمن لم يقدر فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان ، ليس وراء ذلك من الايمان
من شيء) (٦٨) .

ودليل الجمهور قوله عز وجل : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير
ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون) (٦٩) ،
فالمطلوب شرعا ان تقوم أمة من المسلمين بهذا الواجب .

كذلك قاسوه على الجهاد بالسيف الذي هو في حقيقته نوع من أنواع
الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٠) ، فقاسوا العام وهو الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر على الخاص وهو القتال بالسيف ، ومن المعلوم ان هذا
الاخير فرض كفاية على المسلمين عندما لا يكون نفير عام يعلنه الامام
او تقتضيه الظروف .

وأما الذين قالوا بوجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل
مسلم بحسب استطاعته ، فقد استدلوا بالحديث الذي رواه ابو سعيد
الخدري رضي الله عنه عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو قوله :
(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم
يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان) ، فهذا أمر صريح لكل من يرى
منكرا ، وهو يقتضي وجوب الانكار على كل مسلم بقدر ما يستطيع .
ومن هذا الفريق من تأول قوله تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون الى
الخير . . .) بان (من) للبيان ، وليست للتبويض ، فيكون المعنى :
أريد منكم أن تكونوا أمة داعية الى الخير وأمة بالمعروف وناهية عن
المنكر (٧١) ، كما تقول : أريد منك رجلا شجاعا ، أي أريد أن تكون
شجاعا .

(٦٨) انظر : المحلى طبع دار الاتحاد العربي للطباعة لعام ١٩٦٧ م - ١٣٨٧ هـ ج ١ ص ٢٢ . وتفسير المنار

ج ٤ ص ٢٦ ، ودليل الفالحين ج ١ ص ٤٦٢ ، زاد المسير لابن الجوزي ج ١ ص ٤٣٤ .

(٦٩) آل عمران - الآية ١٠٤ .

(٧٠) الحسبة لابن تيمية ص ٦٣ .

(٧١) انظر : دليل الفالحين ج ١ ص ٤٦٢ ، تفسير المنار ج ٤ ص ٢٧ ، زاد المسير ج ١ ص ٤٣٤ .

وعلى أية حال فالشقة ليست بعيدة بين الفريقين ، فانهم أجمعوا على وجوب الحد الأدنى من انكار المنكر ، وهو الانكار بالقلب ، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام (وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل) (٧٢) .

ولعل الراجح هو القول بوجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوبا عينيا على كل مسلم ، بقدر استطاعته :

ذلك ان سكوت المسلم عن اشاعة المعروف الذي يعرفه ، وتعليم أمور الدين للناس الجاهلين ، اعتمادا على أن غيره قد يقوم بذلك قد يؤدي الى تفويت كثير من الخير على جماعة المسلمين ، وكتمان هدى الله عز وجل ، والله تبارك وتعالى يقول : (ان الذين يكتُمون ما انزلنا من البيانات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب ، اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) (٧٣) ، وقد نص العلماء على ان كتمان العلم والهدى من الكبائر (٧٤) .

وأما المنكر فالمطلوب ازالته اذا وقع ، والحيلولة دون وقوعه اذا علم العزم عليه . وهنا يجب على كل من رآه أو علم به أن يسارع الى محاولة ازالته او منع وقوعه ، ولا يجوز التقاعس عن ذلك ركونا الى الآخرين ، اذ قد يؤدي ذلك الى عدم الانكار بالكلية ، وفوات الامر على غير وجه شرعي . ولكن تترتب مسؤولية محاولة الحيلولة دون وقوع المنكر او استمراره ، بمجرد رؤيته او العلم به على الرائي له او العالم به ، وعليه ان يشرع في محاولة الانكار ، فاذا توجه غيره للنهي عن هذا المنكر ، فلا يسقط عنه وجوب النهي عنه حتى يرى ان غيره قد تمكن من ازالته ، او حال دون وقوعه ، فان لم يجد نهى غيره عن المنكر ، فيجب عليه هو ان ينهى . وهكذا يجب على كل من يعلم ويسمع ما دام المنكر موجودا وان قام بالنهي كثير من المسلمين .

(٧٢) انظر تخريج الحديث في ص ١٧١ .

(٧٣) البقرة - الآية ١٥٩ .

(٧٤) أنظر : كتاب الكبائر للذمهي ص ١٥٧ .

لهذا فانا نرى أن فرض الكفاية هو تحقيق المعروف وازالة المنكر من بين جماعة المسلمين ، وليس مجرد الامر والنهي ، واما هذان فهما فرض عين على كل قادر عليهما حتى يتحقق المقصود .

وأما القياس على القتال فهو قياس مع الفارق ، لان القتال فريضة تنفذ بطريقة جماعية ، ولو تفرغ لها جميع المسلمين لتعطلت امور المعاش ولم يتفرغ أحد للقيام بالمصالح الاخرى اللازمة للأمة ، وتكون النتيجة تعطيل الجهاد بسبب تعطيل الاسباب التي تساعد عليه (٧٥) . وأما الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد ينفذ بطريقة جماعية ، او بطريقة فردية ، ولا يترتب على شموله لكل مسلم قادر عليه اية مفسدة جماعية . فاذا كان كذلك . وكانت النصوص تدل في عمومها على الوجوب العيني فلا داعي للقول بالوجوب الكفائي .

ولهذا يقول ابن قيم الجوزية : (والتحقيق ان جنس الجهاد فرض عين : اما بالقلب واما باللسان ، واما بالمال واما باليد ، فعلى كل مسلم ان يجاهد بنوع من هذه الانواع ، واما الجهاد بالنفس ففرض كفاية (٧٦)) . ويمكن ان يضاف على ما ذكر ابن القيم ان الواجب مما ذكر من انواع الجهاد دون الجهاد بالنفس هو ما يقدر عليه المسلم منها ، وليس مجرد التخيير بينها ، لان حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ترتيب وجوب الجهاد بأحد تلك الانواع على القدرة عليه ، ولم يقل فيه : من رأى منكم منكرا فليغيره اما باليد واما باللسان واما بالقلب .

قواعد وآداب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

لقد عني بعض العلماء بذكر واستنباط أحكام هذه الفريضة بصورة تفصيلية ومن هؤلاء ، الماوردي وابو يعلى في كتاب «الاحكام السلطانية» ، والامام الغزالي في « احياء علوم الدين » ، وابن تيمية في كتاب « الحسبة

(٧٥) المبسوط ج ١٠ ص ٣ ، مغني المحتاج ج ٤ ص ٢٠٩ .

(٧٦) زاد المعاد ج ٢ ص ٥٨ .

في الاسلام » وابو بكر الخلال في كتاب « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، وابن حزم في « المحلى » و « الفصل » ، وغيرهم .

الا اننا نذكر هنا أهم القواعد والمبادئ العامة والآداب التي تحكم الطريقة التي تقام بها هذه الفريضة الهامة . وللقارئ ان يرجع ، اذا أراد التفصيل الى تلك المراجع المذكورة .

وأهم هذه القواعد والآداب ما يلي :

١ - بما أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر جهاد فيه بذل جهد ومشقة فينبغي على المسلم أن يوجه هذا الجهد الى اصلاح القضايا الأكثر أهمية ^(٧٧) والخرق الاعظم اتساعا ، وأصول الفساد والمنكر ، ولا يحسن به أن يصرف همه وجهده ووقته كله في علاج الجزئيات والفروع البسيطة ، اذا كان فسادها ناشئا عن فساد أصل من الاصول .

وعندما يصطالح الناس او يربون على ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فضول وتعد على حريات الآخرين ، ويجد هذا الاتجاه دعما واضحا وحماية كاملة من الحكام ، فيحاسب ويجازى بالشر كل مسلم يدعو الى الخير او يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحجة التعدي على حريات الآخرين ، فانه لا يجدي كثيرا معالجة الفروع والجزئيات ولا بد من ان تتوجه الجهود الى ازالة المنكر الاكبر ، وهو عزوف الناس ، وخاصة حكامهم عن حكم ربهم وطاعته ، وضعف عقيدتهم ويقينهم بالله واليوم الآخر ، واسناد أمورهم الى جهالهم وضلالهم ^(٧٨) .

وعندما يجهل الناس معنى الركن الاول من اركان الدين ، ولا يعرفون مقتضيات (لا اله الا الله محمد رسول الله) ، ولا حقوقها ، فينبغي أن تصرف معظم الجهود الى تجلية معنى هذه الكلمة الطيبة وبيان حقوقها ومقتضياتها في حياة الناس . ويؤيد ذلك ان بعض المفسرين

(٧٧) انظر : احياء علوم الدين ، المجلد الثاني ص ١١٩٩ .

(٧٨) انظر : كتاب « الدعوة الاسلامية فريضة شرعية وضرورة بشرية » ص ٣٩ .

قد فسروا المعروف الذي يجب على أمة الاسلام ان تأمر به بأنه الايمان بالله ورسوله والعمل بشرائعه ، وفسروا المنكر الذي يجب على أمة الاسلام أن تنهى عنه بأنه الشرك بالله وتكذيب رسوله والعمل بما نهى عنه ، فقد روى ابو جعفر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ٠٠٠) انه قال : (تأمرونهم بالمعروف أن يشهدوا أن لا اله الا الله والاقرار بما أنزل الله ، وتقاتلونهم عليه ، ولا اله الا الله هو أعظم المعروف وتنهونهم عن المنكر ، والمنكر هو التكذيب ، وهو أنكر المنكر) (٧٩) .

ففي هذه الاحوال التي يتخذ فيها الاسلام مهجورا ، لا يجدي الا الجهاد بالدعوة الى الله عز وجل ، والى الشهادتين ، والى حكم الاسلام ، وطاعة الله واتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتوحيد الله في الربوبية والانوهمية ، وفي أسماء الجلال وصفات الكمال .

على أن هذا لا يعني اهمال الجزئيات والفروع ، ولكن عملية الاصلاح فيها تأتي بعد اصلاح العقيدة ، فلا يبدأ بها مع الناس الذين فسدت عقائدهم ، وهم أكثر بكثير ممن بقي لهم عقائد سليمة في المجتمعات الجاهلية .

كذلك فان الدعاة انفسهم يجب عليهم ان يمارسوا عملية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بجميع ابعادها فيما بينهم ، فيتواصوا بالمعروف ، ويتناهاوا عن المنكر ، ويأخذوا انفسهم بكل فرض وكل أدب وكل سنة وردت في كتاب الله او في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

كذلك يمكن توجيه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الى الناس الذين ما زالت عقائدهم سليمة ، ولكنهم تأثروا بالجاهلية في بعض نواحي

السلوك ، فيمكن تذكيرهم بالحق والصواب والمعروف لعلمهم يصححون أنفسهم ويتأهلون للدعوة الى الله عز وجل .

ولكن المطلوب من الغيورين على دينهم ان يوجهوا جهودهم لما يكون أكثر جدوى في سدمنافذ المنكر ، وان يشتغلوا بالاهم ، ويمنحوه النصيب الأكبر من اهتمامهم .

يقول العز بن عبد السلام ، رحمه الله تعالى في بيان درجات الوسائل الموصلة الى المصالح : (يختلف اجر وسائل الطاعات باختلاف فضائل المقاصد ومصالحها ، فالوسيلة الى المقاصد أفضل من سائر الوسائل ، فالتوسل الى معرفة الله تعالى ومعرفة ذاته وصفاته أفضل من التوسل الى معرفة أحكامه ، والتوسل الى معرفة أحكامه أفضل من التوسل الى معرفة آياته ، والتوسل بالسعي الى الجهاد أفضل من التوسل بالسعي الى الجمعيات ، والتوسل بالسعي الى الجماعات في الصلوات المكتوبات وكلما قويت الوسيلة في الاداء الى المصلحة كان أجرها أعظم من أجر ما نقص عنها ، فتبليغ رسالات الله من أفضل الوسائل ، لأدائه الى جلب كل صلاح دعت اليه الرسل ، والى درء كل فاسد زجرت عنه الرسل ، والانداز وسيلة الى درء مفسد الكفر والعصيان ، والتبشير وسيلة الى جلب مصالح الطاعة والايمان . وكذلك الامر بالمعروف وسيلة الى تحصيل ذلك المعروف المأمور به ، رتبته في الفضل والثواب مبنية على رتبة مصلحة الفعل المأمور به في باب المصالح: فالامر بالايمان أفضل أنواع الامر بالمعروف ، وكذلك الامر بالفرائض أفضل من الامر بالثواب ، والامر باماطة الاذى عن الطريق من ادنى مراتب الامر بالمعروف . . .) (٨٠) .

ويقول ايضا في بيان درجات الوسائل المؤدية الى المفسد: (. وهكذا تختلف رتب الوسائل باختلاف قوة ادائها الى المفسد وكذا النهي عن المنكر وسيلة الى دفع مفسدة ذلك المنكر المنهي عنه ورتبته في الفضل

(٨٠) قواعد الاحكام ج ١ ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

والثواب مبنية على رتبة درء مفسدة الفعل المنهي عنه في باب المفساد
ثم تترتب رتبة على رتب المفساد الى ان تنتهي الى أصغر الصفائر ،
فالنهي عن الكفر بالله أفضل من كل نهى في باب النهي عن
المنكر (٠٠٠) (٨١) .

ويضرب الامام ابو حامد الغزالي رحمه الله مثالا لمن يشتغل بالاكل
أهمية ويترك الامور الخطيرة ، فيقول : (فمن غصب فرسه ولجام فرسه ،
فاشتغل بطلب اللجام وترك الفرس ، نفرت عنه الطباع ، ويرى
مسيئا) (٨٢) .

٢ - فاذا علم ذلك ، فينبغي لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ان ينوي
في ذلك وجه الله تعالى ، ويجعل نيته خالصة له سبحانه ، وان يقصد بعمله
هذا أن تكون كلمة الله هي العليا ، وأن يكون الله عز وجل هو المطاع في
الارض ، وان يحزر نفسه عند العزم على القيام بهذا العمل من أية نية
أخرى ، ويجرد نيته من جميع حظوظه الشخصية (٨٣) . فان الله تبارك
وتعالى يقول فيما أخبر عنه الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث
القدسي : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه
غيري ، فأننا بريء منه ، وهو كله للذي أشرك) (٨٤) .

٣ - وبعد الاخلاص في هذه الفريضة يشترط أن تقام على وجه
الصواب ، فان أحسن العمل الذي ذكره الله تعالى في قوله « ليلوكم أيكم
أحسن عملا » (٨٥) هو كما قال الفضيل بن عياض : أخلصه وأصوبه .
فاذا كان العمل خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل حتى يكون خالصا وصوابا ،
والخالص ، كما تقدم ، هو أن يكون في سبيل الله تعالى ، والصواب أن
يكون على الوجه الشرعي ، وهو الوجه الذي بينه الله ورسوله .

(٨١) قواعد الاحكام ج ١ ص ١٢٨ .

(٨٢) احياء علوم الدين ، المجلد الثاني ص ١١٩٩ .

(٨٣) انظر : الحسبة ص ٧١ ، ٧٢ ، وتنبية الغافلين ص ٣٤ .

(٨٤) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٨ ص ١١٥ .

(٨٥) هود - الآية ٧ ، والمملك - الآية ٢ .

وحتى يكون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر صوابا لا بد أن يكون بعلم وفقه (٨٦) . قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح (٨٧) .

ويقول ابن حزم رحمه الله تعالى : (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرضان على الناس ، قال تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . وهذا متوجه الى العلماء بالمعروف وبالممنكر ، لانه لا يجوز أن يدعو الى الخير الا من علمه ، ولا يمكن ان يأمر بالمعروف الا من عرفه ، ولا يقدر على انكار المنكر الا من ميزه) (٨٨) .

ثم ان هنالك أمورا ظاهرة ومشهورة من الواجبات والمحرمات ، كالصلاة والصيام والزنا والخمر والربا ، ونحوها ، فكل المسلمين علماء بها ، واما اذا كان الامر من دقائق الافعال والاقوال ، فالامر بالمعروف منه والنهي عن المنكر منه هو من اختصاص العلماء (٨٩) .

٤ - ومن الصلاح في القيام بهذا الجهاد أن يكون القائم به رفيقا بمن يأمره وبمن ينهاه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كان الرفق في شيء الا زانه ، ولا كان العنف في شيء الا شانه » (٩٠) . وقال أيضا : (ان الله رفيق يحب الرفق في الامر كله ، ويعطي عليه مالا يعطي على العنف) (٩١) .

(٨٦) الحسبة في الاسلام ص ٧٢ ، تنبيه الغافلين ص ٣٤ ، شرح النووي على مسلم ، ج ٢ ص ٢٣ .

(٨٧) الحسبة ص ٧٢ .

(٨٨) الاحكام في اصول الاحكام لابن حزم ج ٥ ص ٦٩٤ .

(٨٩) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٣ .

(٩٠) الحسبة في الاسلام ص ٧٣ ، تنبيه الغافلين ص ٢٠٥ ، والحديث رواه مسلم عن عائشة ، انظر :

صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ ص ١٤٦ ، ١٤٧ . وانظر سنن ابي داود ج ٢ ص ٥٥٤ .

(٩١) انظر : الحسبة في الاسلام ص ٧٣ ، وتنبيه الغافلين ص ٢٠٥ ، واصل الحديث في البخاري ومسلم ،

انظر صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١٠ ص ٣٦٩ . وصحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ ص ١٤٦ .

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى : (لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر الا من كان فيه خصال ثلاث : رفيق بما يأمر ، رفيق بما ينهى ، عدل بما يأمر عدل بما ينهى ، عالم بما يأمر ، عالم بما ينهى) (٩٢)

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : (الناس يحتاجون الى مداراة ورفق في الامر بالمعروف ، بلا غلظة ، الا رجلا مباينا معلنا بالفسق والردى ، فيجب عليك نهيه واعلانه ، لانه يقال : ليس لفاسق حرمة ، فهذا لا حرمة له) ، وقال أيضا : (كان اصحاب ابن مسعود اذا مروا بقوم يرون فيهم ما يكرهون يقولون : مهلا رحمكم الله) (٩٣) .

ومن الرفق أن يراعي القائم بهذه الفريضة حرمة الناس ومشاعرهم ، فلا يفضحهم ، وانما يأمرهم وينهاهم بالرفق واللين وبدون تشهير بهم ، قال الامام الشافعي رحمه الله تعالى : (من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه) (٩٤) .

الا انه يستثنى من ذلك من اختاروا فضح أنفسهم ، فجاهروا بمعاصيهم فهؤلاء لا بأس من أمرهم ونهيهم سرا وعلانية .

٥ - ومن الاخلاق التي يجب أن يتحلّى بها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الحلم والصبر على الاذى الذي يلاقيه نتيجة أمره ونهيه ، فان من نصب نفسه لبيان الحق للناس ، ودعوتهم اليه ، يتعرض للاذى الكثير منهم ، فيكون ذلك ابتلاء له وامتحانا ، والابتلاء والامتحان سنة الله فيمن يدعي الايمان والعمل لله عز وجل ، قال تعالى : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) (٩٥) .

فلا بد لمن يقوم بهذه الفريضة أن يكون حليما صبوراً ، فانه ان لم يكن كذلك فربما يؤول اسلوبه الى الفساد اكثر من الاصلاح ، ولذلك

(٩٢) الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٩٣) المرجع السابق .

(٩٤) شرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٤ .

(٩٥) المنكوب - الأيتان ٢ ، ٣ .

كانت وصية لقمان لابنه كما قال الله عز وجل : (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ، ان ذلك من عزم الامور) (٩٦) ، فأوصاه بالصبر مع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكذلك فان الله سبحانه أمر رسله ، وهم أئمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصبر ، كقوله تعالى لخاتم رسله : (يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر) (٩٧) ، فأمره من بداية الطريق بالصبر مع الانذار ، الذي هو أمر بالمعروف الاكبر ، ونهي عن المنكر الاكبر (٩٨) .

أخرج الطبراني في الاوسط عن ابي جعفر الخطمي ان جده عمير ابن حبيب بن حماسة رضي الله عنه ، وكان قد ادرك النبي صلى الله عليه وسلم عند احتلامه أوصى لولده ، فقال : يا بني اياك ومجالسة السفهاء ، فان مجالستهم داء ، ومن يحلم عن السفية يسر ، ومن يحبه يندم واذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف او ينهى عن المنكر فليوطن نفسه على الصبر على الاذى ، ويثق بالثواب من الله تعالى ، فانه من وثق بالثواب من الله عز وجل لم يضره مس الاذى (٩٩) .

٦ - وينبغي لمن يقوم بهذه الفريضة ان يكون عالما بأحوال الناس وظروفهم ، ليخاطبهم على قدر أحوالهم وطاقتهم ، فيكون اسلوبه مع العالم غير أسلوبه مع الجاهل ، وطريقته مع العقلاء غير طريقته مع السفهاء (١٠٠) . يقول عباس العنبري : كنت مارا مع ابي عبد الله بالبصرة ، قال : فسمعت رجلا يقول لرجل : يا ابن الزاني ، فقال الآخر : يا ابن الزاني ، قال : فوقفت ومضى ابو عبد الله ، فالتفت فقال : يا ابا الفضل امش ، قال : فقلت : قد سمعنا ، قد وجب علينا

(٩٦) لقمان - الآية ١٧ .

(٩٧) المدثر - الآيات ١ - ٧ .

(٩٨) انظر : الحسبة من ٧٣ ، ٧٤ ، وتنبيه الغافلين من ٣٤ .

(٩٩) قال الهيثمي عن هذا الخبر : رجاله ثقات ، وأخرجه أبو نعيم أيضا واحمد في كتاب الزهد - ذكر ذلك

ابن حجر في الاصابة - انظر حياة الصحابة ج ٢ ص ٧٢٠ .

(١٠٠) الحسبة في الاسلام من ٧٣ .

قال : امض ، ليس هذا من ذلك (١٠١) . فترك الامام احمد بن حنبل النهي عن المنكر لما رأى مرتكبيه على هذه الدرجة من الحق والسفاهة .

٧ - كذلك ينبغي لمن يريد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ان يغلب على ظنه عند القيام بهذه الفريضة أن المصلحة فيما يقوم به راجعة على المفسدة ، ولذلك قيل : ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر . يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى : (وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما اذا تعارضت المصالح والمفاسد ، والحسنات والسيئات ، او تزاومت ، فانه يجب ترجيح الراجح منهما ، . . . فان الامر والنهي وان كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة ، فينظر في المعارض له ، فان كان الذي يفوت من المصالح او يحصل من المفاسد اكثر ، لم يكن مأمورا به ، بل يكون محرما اذا كانت مفسدته اكثر من مصلحته) (١٠٢) .

الا انه ينبغي على المسلم أن يحذر عند الترجيح والاختيار وتقدير المصالح والمفاسد من أن يزن الامور بميزان مصالحه الخاصة ، وانما يجب عليه أن يزن بميزان الشريعة ، ويلتزم النصوص ، وينظر الى مصلحة الدعوة ، وكلمة الله عز وجل ، فالفساد ماصد عن سبيلها والاصلاح ما أسهم في رفعها .

٨ - وينبغي للمجاهد بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ان يتخلق بما يدعو اليه وأن يتجنب ما ينهى الناس عنه حتى يكون لكلامه أثر فيمن يأمرهم وينهاهم ، فقد قال الله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون) (١٠٣) ، وقال أيضا : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) (١٠٤) . وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يؤتى بالرجل يوم

(١٠١) الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لابي بكر الغلال ص ١١٤ .

(١٠٢) الحسبة في الاسلام ص ٦٦ .

(١٠٣) البقرة - الآية ٤٤ .

(١٠٤) الصف - الآيتان ٢ ، ٣ .

القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها ، كما يدور الحمار في الرحى ، فيجتمع اليه أهل النار ، فيقولون : يا فلان : مالك مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت أمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية (١٠٥) .

ولقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا أراد أن ينهى الناس عن شيء يقدم الى أهله ويقول : لا أعلمن أحدا وقع في شيء مما نهيت عنه الا اضعفت له العقوبة (١٠٦) .

الا انه ينبغي أن يلاحظ في هذا المقام أنه لا يشترط في الأمر والناهي أن يكون كامل الحال . وان عدم امتثاله لما يقول ، ومخالفة قوله عمله لا يسقط عنه واجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فان المعصية لا تبرر ترك الواجبات ، مهما كانت تلك المعصية . ومهما كانت الواجبات .

نعم ، يجب على المرء أن يأمر نفسه بالمعروف وينهاها عن المنكر قبل أمر الناس ونهيههم ، حتى لا يواجهه الناس حال نفسه ويقولوا له : هلا أمرت نفسك قبل أن تأمرنا ونهيتها قبل أن تنهانا . ولكن عدم قيامه بهذا الواجب لا يجعل له عذرا في ترك غيره من الواجبات التي من أهمها أمر الناس بالمعروف ونهيههم عن المنكر . فقد يكون لكلامه أثر في بعض الناس مما لا يكون لكلام غيره . فان النفوس تختلف في تقبل الوعظ باختلاف الواعظين (١٠٧) .

٩ - لا يسقط عن المسلم المكلف واجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب ظنه أن هذا لا يفيد . بل يجب عليه القيام بالواجب ، وتذكير الناس فان الذكرى تنفع المؤمنين . وليس عليه هداية الناس ،

(١٠٥) متفق عليه - انظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٣٣ .

(١٠٦) انظر : حياة الصحابة ج ٢ ص ٧٢٠ .

(١٠٧) انظر : احياء علوم الدين - المجلد الثامن ص ١١٩٧ . وشرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٣ .

حياة الصحابة ج ٢ ص ٧٢٠ .

فان الله هو الذي يهدي من يستحق الهدى ، وهو الذي يمنع الهدى عن
 لا يستحقه ، وعلينا أن نقوم بواجباتنا ومسؤولياتنا ، وعلى الله سبحانه
 التوفيق وتحقيق النتائج (١٠٨) . قال تعالى : (واذ قالت أمة منهم لم تعظون
 قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ، قالوا : معذرة الى ربكم ولعلمهم
 يتقون) (١٠٩) .

نعم ، يجب على المسلم الداعية ان يتخير من يدعوهم ويامرهم
 بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فلا يصرف وقته وجهده لامر ونهي أناس
 يغلب على ظنه أنهم لا يستجيبون له ، لسفهمهم مثلا ، او جهلهم او شدة
 عداوتهم ، او اشتغالهم بأمور الدنيا عن سماع الهدى ، او غير ذلك ،
 ويترك فرصة أخرى تتيح له دعوة أناس يعلم منهم الجدية في الامور ،
 والحرص على الحق والصواب . هذا اذا وجد تعارض بين قيامه
 بالواجبين ، فيختار ما يجدي ويترك ما يغلب على ظنه عدم جدواه .
 وأما اذا تمكن من القيام بالأمرين معا ، فينبغي أن يقوم بهما
 جميعا (١١٠) .

١٠ - كذلك لا ينبغي أن يصد المسلم عن القيام بالامر بالمعروف
 والنهي عن المنكر خوف الناس ، وخوف أذاهم وفتنتهم ، او قرابتهم او
 صداقتهم ، او الخوف على مصالحه الدنيوية التي ارتبط بها معهم (١١١)،
 فان المؤمنين الذين مدحهم الله عز وجل وصفهم بأنهم لا يخافون لومة
 لائم ، وقد تقدم قول الرسول عليه الصلاة والسلام فيمن قام الى ظالم
 فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر ، فقتله ، وانه قام بأفضل الجهاد ،
 وانه سيد الشهداء .

ورد عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى
 الله عليه وسلم : (لا يحقرن احدكم نفسه ، قالوا : يا رسول الله ، وكيف

(١٠٨) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٣ .

(١٠٩) الاعراف - الآية ١٦٤ .

(١١٠) أنظر : قواعد الاحكام ج ١ ص ١٢٤ .

(١١١) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٤ .

يحقر احدنا نفسه ؟ قال يرى أن عليه مقالا ، ثم لا يقول فيه ، فيقول الله عز وجل يوم القيامة : ما منعك أن تقول في كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس ، فيقول : فايي كنت أحق أن تخشى (١١٢) .

فيجب على الداعية ان يوطن نفسه على تحمل الاذى ، وان يجعل انتصاره لربه ويترك الانتصار لنفسه : سئل أحمد بن حنبل عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر : كيف ينبغي أن يأمر ؟ قال : يأمر بالرفق والخضوع ، ثم قال له : انه أسمعوه ما يكره لا يغضب فيكون يريد أن ينتصر لنفسه . وروى ابو بكر الخلال عنه أنه قال: الذي يريد أن يأمر وينهى لا يريد أن ينتصر بعد ذلك (١١٣) .

ولا ينبغي أن يظن المؤمن أنه يذل نفسه بوضعها في مواضع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لمن يخشى أذاهم ، انما الدليل من يعرض نفسه للمهانة في سبيل عرض من أعراض هذه الدنيا الفانية ، سئل أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى عن الرجل يأمر بالمعروف بيده ، فقال : ان قوي على ذلك فلا بأس به ، فقيل له : أليس قد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم : (ليس للمؤمن أن يذل نفسه) (١١٤) ، بان يعرضها من البلاء مالا طاقة له به ؟ قال : ليس هذا من ذاك (١١٥) ولكن الذي يتحمل أذى الناس في سبيل الله عز وجل ، فقد أعز نفسه في الحقيقة ولم يذلها .

١١ — يجب على من يأمر وينهى ان لا يحاول حمل الناس على اجتهاده وآرائه في الامور التي تحتل الاجتهاد ، فان الامور الاجتهادية ليست محلا للقيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيها . وانما محلها ما كان متفقا عليه من الواجبات والمنهيات الشرعية . لان كل مجتهد ، بالشروط الشرعية ، مأجور عند الله تعالى ، اذا خلصت نيته لربه . وكثير من الاصوليين ذهبوا الى القول بان كل مجتهد مصيب ، وقال

(١١٢) رواه ابن ماجه ورواه ثقات . انظر الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٢٧ .

(١١٣) اي ينتصر لنفسه ، اما الانتصار للدين عندما تنتهك حرمات الله فهذا من صفات النبي صلى الله عليه وسلم فقد ورد في السنة انه عليه الصلاة والسلام لم يكن يغضب الا ان تنتهك حرمات الله .

(١١٤) اخرج الترمذي وابن ماجه في كتاب الفتن بلفظ « لا ينبغي للمؤمن ان يذل نفسه » .

(١١٥) الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لابي بكر الخلال ص ٩٤ .

آخرون : ان المصيب في الواقع واحد ، ولكن المخطيء غير متعين ، وهو غير آثم ، بل له اجر كما ورد في بعض الاحاديث الصحيحة .

فلا يجوز ، اذن ، التعرض للناس في هذه الامور الاجتهادية . نعم يجوز لمن ترجع عنده مذهب من المذاهب في قضية من القضايا او حكم من الاحكام ان يدل غيره على ادلة الترجيح وان يندبه الى الراجع على سبيل النصيحة (١١٦) .

الا انه لا يدخل في الامور الاجتهادية تلك الاحكام التي ضعف فيها الخلاف بحيث يتفق معظم العلماء المعبرين على امر من الامور ، ويظهر بعد ذلك رأي شاذ يخالف ذلك الرأي ، وخاصة اذا كان هذا الرأي الشاذ ذريعة للدخول في الحرام المتفق عليه عند العلماء ، كربا الفضل ، فان الخلاف فيه ضعيف ، وهو وسيلة الى ربا النساء المتفق على تحريره ، ومثل نكاح المتعة ، فانه ربما صار ذريعة الى استباحة الزنا ، فيجب انكاره كالزنا (١١٧) .

١٢ - لا يجوز لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ان يتجسس على الناس ويقتحم دورهم بالظنون ، فانه لا يجوز ارتكاب المحرمات من اجل القيام بفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الا اذا كان المنكر المتوقع من الجرائم التي لو وقعت لم يمكن تداركها (١١٨) ، لان القاعدة الاسلامية تقرر ان من ستر على نفسه بعد ارتكابه المحرم لم يجز هتك ستره ، فان ابدى جريمته كانت له عقوبة رادعة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أتى من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله تعالى ، فانه من يبذل لنا صفحته نقم عليه) (١١٩) . جاء في الاحكام السلطانية : (ليس للمعتسب ان يبحث عما لم يظهر من المحرمات ، فان غلب على الظن استسرار قوم بها ، لامارة دلت وآثار ظهرت فذلك ضربان :

(١١٦) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٣ ، واحياء علوم الدين ، المجلد الثاني ص ١٢٢٩ .

(١١٧) انظر : الاحكام السلطانية لابي يعلى ص ٢٩٧ . والاحكام السلطانية للماوردي .

(١١٨) الاحكام السلطانية لابي يعلى ص ٢٩٦ ، احياء علوم الدين ج ٢ ص ١٢١٨ .

(١١٩) الموطن ص ٥١٦ ، التلخيص الجيد ج ٤ ص ٥٧ .

أحدهما : ان يكون ذلك في انتهاك حرمة يفوت استدراكها ، مثل ان يخبره من يثق بصدقه ان رجلا خلا برجل ليقتله ، أو بامرأة ليزني بها ، فيجوز له في مثل هذه الحال ان يتجسس ويقدم على الكشف والبحث حذرا من فوات مالا يستدرك من انتهاك المحارم وارتكاب المحظورات
والضرب الثاني : ما كان دون ذلك في الريبة ، فلا يجوز التجسس عليه ولا كشف الاستار عنه) (١٢٠) .

١٣ - يكون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، اذا روعيت القواعد والآداب السابقة بقدر ما يستطيعه المسلم : فان استطاع ذلك بيده كان هذا هو الواجب في حقه فان كان عاجزا عن التغيير باليد ، وكان بمقدوره النهي باللسان ، كان ذلك فرضا عليه ، والا فيجب عليه الانكار بالقلب وكراهة المنكر ، وهذا في ملك كل انسان ، ولذلك فانه لا يسقط عن أحد .

وانما وجب هذا على كل مسلم ، لان الاصل ان تكون محبة المسلم وبفضه وارادته لهذا الشيء وكراهته لذاك موافقة لحب الله وبفضه وارادته . فهذا عمل القلب لا يقبل منه الا هذا القدر . واما تسخير الجوارح لفعل المحبوب ودفع المكروه فيكلف به المسلم بقدر استطاعته ، لان الله لا يكلف نفسا الا وسعها (١٢١) .

هذا وقد ذكر الامام الغزالي درجات تنفيذية للامر بالمعروف والنهي عن المنكر يحسن تلخيصها في هذا المقام (١٢٢) ، وقد جعلها ثمانية درجات :

الاولى : درجة التعرف ، وهو طلب المعرفة بجريان المنكر ، وقد علمت ان مصدر التعرف لا يجوز أن يكون التجسس ، وانما الجأز وصول الخبر اليه من غير تجسس : اما باخبار عدول او بالرواية او بالسمع .

(١٢٠) انظر : الاحكام السلطانية لابي يعقوب ص ٢٩٦ ، والاحكام السلطانية للماوردي ص ٢٥٢ .
(١٢١) الحسبة لابن تيمية ص ٦٨ ، ٦٩ ، احياء علوم الدين ، المجلد ٢ . ص ١٢٠٨ .
(١٢٢) انظر تفصيلها في احياء علوم الدين - المجلد الثاني ص ١٢٢٦ وما بعدها .

الثانية : وهي درجة التعريف : ذلك ان كثيرا من الذين يقدمون على فعل المنكر يفعلون ذلك عن جهل ، فينبغي ان يبدأ بهذه الدرجة ، فقد تكفي في ازالة المنكر ، ولا يحتاج الى غيرها .

الثالثة : درجة الوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى وصفاته وايامه : وهذه لا تكون الا مع من عرف على المنكر ، فاصر عليه بعد ان عرف كونه منكرا ، فيجب ان يوعظ وتورد عليه الاخبار الواردة في الوعيد على ما اقدم عليه من المنكر ، ويذكر باليوم الآخر وما فيه من العذاب لمن عصى الله تعالى ، وحسن الثواب لمن تاب واصلاح . ويكون ذلك كله باللطف والشفقة من غير عنف وغضب . وينبغي للمسلم وهو يقوم بهذه الدرجة ان لا يتعالى على الناس وان لا يشعرهم انه احسن منهم واعلم ، حتى لا ينفروا منه ولا يقيموا وزنا لكلامه ونصحه .

الرابعة : وهي درجة التعنيف بالقول الغليظ الخشن ، وتكون هذه الدرجة بعد العجز عن درء المنكر بسابقتها ، وبعد ظهور الاصرار على المنكر والاستهزاء بالوعظ والتعريف . الا انه ينبغي ان يلاحظ في هذه الدرجة ان لا يتكلم المسلم بالفحش ، وان لا يقع في القذف ، فيجب عليه ان لا ينطق الا بالصدق ، وان لا يسترسل فيها ، فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج اليه ، بل يقتصر على الحاجة . ومن ذلك قول ابراهيم عليه السلام : (أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون) (١٢٣) . ويدخل في هذه الدرجة اظهار الغضب والاحتقار والازدراء بفاعل المعصية .

الخامسة : درجة التغيير باليد ، ككسر محل المعصية ، او اراقته او خلعه او ارغام العاصي على ترك معصيته بالدفع او الاخراج او نحو ذلك ، وينبغي ان لا يلجأ الى هذه الدرجة الا بعد اليأس من الدرجات السابقة . واذا لجأ اليها فيجب الاقتصار على قدر الحاجة منها ، وعدم

(١٢٣) الانبياء - الآية ٦٧ .

الاسترسال فيها ، وعدم استعمال الاساليب المهينة المذلة المستخرجة
للحق .

السادسة : درجة التهديد والتخويف بما يجوز التهديد به ، كقوله :
لأكسرن رأسك ، او لأضربن رقبتك ، او لأمرن بك وما اشبه ذلك . ولكن
لا يجوز التهديد بما يحرم التهديد به ، كالتهديد بضرب ولده او أخذ
زوجته او نهب داره او سرقة ماله ، فان كان هذا كافيا في الزجر عن
المعصية لم يلجأ الى الضرب . وله ان يزيد في الوعيد على ما هو في عزمه
وليس ذلك من الكذب المحذور .

السابعة : مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه
شهر سلاح ، وهذا جائز للأفراد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر
الحاجة في الدفع ، فاذا اندفع المنكر فلا يجوز الاستمرار فيه .

الثامنة : ان يعجز الشخص عن تغيير المنكر بمفرده ، وانما يحتاج
للتغيير الى اعوان يشهرون السلاح .

الا ان هذه الدرجة وقع خلاف في جوازها للأفراد من غير اذن الامام
المسلم ، فذهب جماعة الى عدم الجواز بغير اذن الامام ، لان الفاسق قد
يستمد باعوانه ويؤدي ذلك الى ان يتقابل الصفان ويتقاتلا ، فتكون
فتنة .

ولكن الامام الغزالي رجع الرأي الآخر ، وهو جواز الاستمداد
بالاعوان وشهر الاسلحة في وجه العصاة والفاسقين ، اذا كان لا بد من هذا
الاسلوب في النهي عن المنكر وقال : (لانه اذا جاز للأحاد الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر واوائل درجاته تجر الى ثوان ، والثواني الى ثوانث ،
وقد ينتهي لا محالة الى التضارب ، والتضارب يدعو الى التعاون ، فلا
ينبغي ان يبالي بلوازم الامر بالمعروف ، ومنتهاه تجنيد الجنود في رضا الله
ودفع معاصيه ، ونحن نجوز للأحاد من الغزاة ان يجتمعوا ويقاتلوا من
أرادوا من فرق الكفار ، قمعا لاهل الكفر ، فكذلك قمع اهل الفساد
جائز ، لان الكافر لا بأس بقتله ، والمسلم ان قتل فهو شهيد ، فكذلك

الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله ، والمحاسب الحق ان قتل مظلوما فهو شهيد (١٢٤) .

١٤ - واذا عجز المسلم عن الانكار باحدى الدرجات السابقة ، كان عليه ان ينكر المنكر بقلبه ، بحيث يعلم الله سبحانه وتعالى منه انه كاره لما رأى من المنكر . غير أنه لا يكتفي منه بمجرد الكره بالقلب ، وانما ينبغي ان يصحب ذلك مقاطعة اهل المنكر . واجتناب مجالسهم التي يقتربون فيها الاثم ، لان هذا من ثمرات الكره الذي يطوي عليه قلبه للمنكر ، والا فليس كارها للمنكر ولا منكرا له بقلبه من يشارك اهل المنكر . فيؤاكلهم ويشاربهم ويجالسهم . ومجالسهم لا تخلو من معصية الله عز وجل ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم . وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) (١٢٥) .

١٥ - لا يشترط في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ان يكون مأذونا فيه من جهة الحاكم ، لان الآيات والاحبار التي تقدم ذكرها تدل على أن كل من رأى منكرا فسكت عليه فقد عصى ، فيجب النهي عن المنكر على كل من رآه ، ولا يختص ذلك بالتفويض من الامام (١٢٦) .

والاخبار تدل على وجوب نصح الحكام وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فكيف يشترط اذنهم في القيام بهذه الفريضة ؟

ومن جهة اخرى فقد كانت عادة السلف جهاد الأئمة والانكار عليهم اذا صدر منهم ما يستوجب الانكار . وقد تقدم ذكر ما كان من رجل عندما رأى مروان بن الحكم يريد ان يقدم الخطبة قبل صلاة العيد ، فقد أنكر عليه ، وما كان من موقف الصحابي ابي سعيد الخدري رضي

(١٢٤) احياء علوم الدين . المجلد الثاني ص ١٢٣٣ .

(١٢٥) اخرجه الترمذي في كتاب التفسير .

(١٢٦) انظر احياء علوم الدين . مجلد ٢ . ص ١٢٠١ . وشرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٣ .

الله عنه من دعم موقف ذلك الرجل بما ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام في وجوب تغيير المنكر باليد او باللسان او بالقلب . ففهم اولئك السلف من احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والآيات الواردة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر انه حق لكل مسلم ، من غير اشتراط اذن الامام ، وسنذكر ، ان شاء الله تعالى ، بعض المواقف التي وقفها اولئك السلف من الحكام عندما كانوا يرون متهم منكرا او غفلة عن معروف .

١٦ - واكثر الناس مسؤولية عن القيام بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر هم اولو الامر ، وهم العلماء والامراء ، لان معنى اولي الامر اصحابه ، وهم الذين يأمرون الناس ، ويشتركون في هذا الوصف اهل اليد والقدرة ، واهل العلم ، ويدخل فيه كل من كان متبوعا ، فالحاكم والعالم والقائد والامير ورب الاسرة وكل صاحب ولاية على غيره هو من اولي الامر ، فيجب عليهم ان يأمرؤا بما امر الله به ، وينهؤا عما نهى عنه (١٢٧) .

ولذلك قال بعض العلماء : انه يجب على كل حاكم مسلم ان يتصب في كل بلد رجلا قويا وامينا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم الحدود ولا يتعدى الشرع ، وله ان يضرب تعزيرا (١٢٨) .

١٧ - واذا كان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبا على كل مسلم يرى منكرا فانه في الوقت نفسه حق لكل مسلم في دولة الاسلام ، ولا يجوز لاحد ، حاكما كان او محكوما ، ان ينكر هذا الحق أو يعطله أو يقف في طريق من يمارسه على الوجه الشرعي ، حتى ذهب بعض العلماء الى انه لا يجوز شرعا ان يقول شخص لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر : انت فضولي ، وقالوا : يخشى على من يقول مثل هذا الكلام للامر بالمعروف او الناهي عن المنكر من الكفر . وذلك اذا

(١٢٧) الحسبة ص ١٠٤ .

(١٢٨) انظر : تحقيق عبد القادر عطا على كتاب ابي بكر الخلال في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٩٤ ، نقلا عن مخطوط الكنز الاكبر للبيهقي ورقة ٧٨ .

قصد بقوله هذا انكار هذا الحق الذي منحه الله لكل مسلم في المحافظة على الشرع ومقاومة المنكر والفساد والفسوق عن امر الله تعالى (١٢٩) .

ومن هنا لا يصح في مجتمع الاسلام ان يفعل المنكر تحت ستار الحرية الشخصية ، ولكل فرد في هذا المجتمع ان يمنع مثل هذا المنكر ، وليس هذا من باب الاعتداء على حريات وحقوق الآخرين ، لان المعصية لا يقتصر ضررها على فاعلها وانما يمتد ليشمل جميع افراد المجتمع الذي اتفق على طاعة الله ، وتجمع على الاخذ بأمره والانتفاء عما نهى سبحانه عنه .

١٨ - هذا وان اشرف انواع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأعظمها خطرا وأوفرها خيرا على الامة ، وأجرا على المجاهد هو التصدي للحكام الظالمين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، لان فساد الحاكم ليس كفساد غيره من الناس فان فساد معناه فساد الرعية ، وصلاحه صلاحها ، وكذلك العلماء ، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : (صنفان من الناس اذا صلحا صلح الناس ، واذا فسدا فسد الناس : العلماء والامراء) (١٣٠) . وسئل ابو بكر الصديق رضي الله عنه : ما بقاؤنا على هذا الامر ؟ فقال : ما استقامت لكم أئمتكم (١٣١) .

جهاد الظلمة والعصاة من حكام المسلمين :

واما كيفية جهاد الامراء والحكام ، فيكون بوعظهم ونصحهم وتذكيرهم بواجباتهم ، وما حملوا من الامانة ، وما يكون على تضييعها من العذاب العظيم عند الله سبحانه ، وبيان ما يقعون فيه من الخطأ او المعصية او الظلم ، وتعريفهم به ، والانكار عليهم .

ولكن هل يجوز جهادهم باليد ، وهل يجوز شهر السلاح عليهم ، واستمداد الاعوان لانتزاع الامر من ايديهم ؟

(١٢٩) انظر : حاشية ابن عابدين ج ٤ ص ١٨٦ .

(١٣٠) رواه ابو نعيم في الحلية .

(١٣١) الحسبة لابن تيمية ص ١٠٤ .

وقبل الجواب عن هذا التساؤل لا بد ان نذكر امرين اتفق عليهما علماء المسلمين :

الامر الاول :

اتفقوا جميعا على انه لا يجوز للمسلمين ان يصبروا على حكم الكافر ويجب عليهم ان يجتهدوا في التخلص من حكمه ، وتنصيب حاكم مسلم يسوس دنياهم بأحكام الدين . وينطبق هذا على الحاكم الذي يعطل قاعدة من قواعد الاسلام او ركنا من أركانه .

يقول القاضي عياض : (أجمع العلماء على أن الامامة لا تنعقد لكافر وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل ، وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء اليها . . .) ثم قال : (فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع او بدعة خرج عن حكم الولاية ، وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب امام عادل ان امكنهم ذلك فان لم يقع ذلك الا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر) (١٣٢) .

وقال ابن حجر في فتح الباري نقلا عن ابن التين : (وقد اجمعوا انه - اي الخليفة - اذا دعا الى كفر او بدعة انه يقام عليه ، واختلفوا اذا غصب الاموال وسفك الدماء وانتهك هل يقام عليه) (١٣٣) .

ويقول ابن حجر ايضا : (ينعزل الامام بالكفر اجماعا ، فيجب على كل مسلم القيام في ذلك ، فمن قوي على ذلك فله الثواب ، ومن داهن فعليه الاثم ، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الارض) (١٣٤) .

الامر الثاني :

أنهم أجمعوا على أن الشرط في الامام أن يكون مجتنباً للكبائر مستترا بالصغائر ، حسن السياسة ، من أهل الفضل ، ولكن لم يشترطوا أن يكون غاية في الفضل ، وليس في الناس من هو أفضل منه ، وأنه لا ينازع في سلطاته لوجود من هو أفضل منه (١٣٥) .

(١٣٢) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٢ ص ٢٣٩ .

(١٣٣) فتح الباري ج ١٣ ص ٩٩ .

(١٣٤) فتح الباري ج ١٣ ص ١٠٥ .

(١٣٥) انظر : المحل لابن حزم . منشورات المكتب التجاري ج ٩ ص ٣٦٢ .

واختلف العلماء في كيفية امر الحكام المسلمين بالمعروف ونهيهم عن المنكر : فذهبت جماعة من أهل السنة الى انه لا يجوز سل السيوف ووضع السلاح لامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وانما يكتفي عند هؤلاء بنصحهم ووعظهم ، او بانكار منكرهم بالقلب ، ولا تستعمل معهم اليد . وذهب هؤلاء الى انه يجب معاونة الامام العدل للتغلب على من يقوم عليه من الفسقة واهل المنكر . وقد نقل هذا الرأي عن الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة في عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما ، ومنهم سعد ابن ابي وقاص وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهم . وهو مذهب الامام احمد بن حنبل رحمه الله تعالى (١٢٦) .

وذهبت الجماعة الاخرى من أهل السنة ، وكذلك المعتزلة والظاهرية وجميع الخوارج والزيدية الى أنه يجب اشهار السلاح على الحكام الطغاة اذا لم يكن هناك طريقة اخرى لتغيير واقعهم الذي لا يرضي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقالوا : اذا كان اهل الحق في عصابة يمكنهم الدفع ولا ييأسون من الظفر ففرض عليهم ذلك ، وان كانوا في عدد لا يرجون لقلتهم وضعفهم بظفر كانوا في سعة من ترك التغيير باليد .

وقد نسب ابن حزم هذا الرأي الى جميع الصحابة الذين شاركوا في الحوادث التي وقعت في عهد عثمان وعلي ومعاوية ، وكذلك من خرج من الصحابة والتابعين على بعض حكام بني أمية وغيرهم ، فقال : (وهذا قول علي وكل من كان معه من الصحابة ، وعائشة وطلحة والزبير ، وكل من كان معهم من الصحابة ، ومعاوية وعمرو بن العاص والنعمان بن بشير وغيرهم ممن معهم ، وعبد الله بن الزبير ومحمد والحسن بن علي ، وأنس بن مالك وعبد الرحمن بن ابي ليلى ، وسعيد بن جبير والحسن البصري ، ومالك بن دينار والشعبي والمطرف بن عبد الله بن الشخير وعطاء بن السائب) ، كما ذكر أناسا غيرهم من الصحابة والتابعين .

(١٢٦) انظر : الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم ج ٥ ص ١١ ، وشرح النووي ج ١٢ ص ٢٢٩ ، ونيل الاوطار ج ٧ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

وكذلك نسب هذا الرأي الى بقية أئمة المذاهب سوى احمد بن حنبل ، فقال : (وهو الذي تدل عليه أقوال الفقهاء كأبي حنيفة ومالك الشافعي وداود واصحابهم ، فان كل من ذكرنا اما ناطق بذلك في فتواه ، واما فاعل ذلك بسل سيفه في انكار ما رأوه منكرا) (١٢٧) .

هذا وقد استدل كل فريق بجملة ادلة :

أدلة الفريق الاول :

أ - احتجت الطائفة الاولى بجملة ما ورد من الاحاديث التي تأمر الرعية بالسمع والطاعة ، وأصرحها ما رواه الشيخان عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : (دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا . وان لا ننازع الامر أهله ، قال : الا ان تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان) (١٢٨) .

ب - ومن ادلتهم ما ورد عن ام سلمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (انه يستعمل عليكم امراء ، فتعرفون وتنكرون ، فمن كره فقد بريء ، ومن أنكر فقد سلم . ولكن من رضي وتابع . قالوا : يا رسول الله ، الا نقاتلهم ، قال : لا ما صلوا) (١٢٩) .

ج - ومنها ما ورد عن عوف بن مالك الاشجعي انه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم) (١٤٠) ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم قالوا : قلنا يا رسول الله ، أفلا ننايذهم عند ذلك ، قال : لا ما أقاموا فيكم الصلاة

(١٢٧) انظر : الفصل في الملل ج ٥ ص ١٢ ، وانصار الى هذا الخلاف ابن حجر في فتح الباري ج ١٣ ص ٥ ، ٦ ، ٩٩ . والنووي في شرحه على صحيح مسلم ج ١٢ ص ٢٢٩ والشوكاني في نيل الاوطار ج ٧ ص ١٨٥ . (١٢٨) متفق عليه - انظر صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١٣ ص ٥ ، ٦ وصحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٢٨ .

(١٢٩) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٢٣ . (١٤٠) اي تدعون لهم ويدعون لكم .

لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، الا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعة) (١٤١) .

فالظاهر من هذه الاحاديث انها لا تبيح للمسلمين ان يقوموا على امامهم المسلم بالسيوف ، وينازعوه السلطان ، ليأخذوه منه ويجعلوه لغيره ، الا ان يخرج من ملة الاسلام او يترك الصلاة واقامتها في الناس
أدلة الفريق الآخر :

أ - واما الآخرون فقد احتجوا بالآيات والاحاديث الكثيرة الواردة في ايجاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد او باللسان او بالقلب (١٤٢) . وليس فيها تفريق بين أناس وأناس ممن يعزفون عن المعروف او يرتكبون المنكرات . وقد تقدم ذكر طائفة من تلك الادلة .

ب - واستدلوا ايضا بالاحاديث التي تنهى عن طاعة الحكام في معصية الله عز وجل كقوله عليه الصلاة والسلام : (لا طاعة في معصية الله ، انما الطاعة في المعروف) (١٤٣) ، وقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما : (على المرء المسلم السمع والطاعة . فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) (١٤٤) .

ج - واستدلوا ايضا بان الله سبحانه أمر المسلمين بالتعاون على البر والتقوى وحرم عليهم التعاون على الاثم والعدوان . فقال عز وجل : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) (١٤٥) ، والسكوت عن الحاكم الظالم وهو يوقع الظلم بعباد الله تعاون على الاثم والعدوان (١٤٦) .

(١٤١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٤٥ .

(١٤٢) انظر : نيل الاوطار ج ٧ ص ١٨٦ .

(١٤٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٢٧ .

(١٤٤) المرجع السابق .

(١٤٥) المائدة - الآية ٢ .

(١٤٦) الفصل في الملل ج ٥ ص ١٣ .

د - كما استدلو بالاحاديث التي تحت المرء المسلم على الدفاع عن ماله وعن عرضه ، وانه ان مات في دفاعه هذا كان من الشهداء الابرار عند رب العالمين . فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : (من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد) (١٤٧) .

فان هذه الاحاديث تشمل ما لو تعدى الحاكم على مسلم او جماعة من المسلمين ، وظلمهم فدافعوا عن حقوقهم ، كان لهم ذلك ، بل يكونون شهداء اذا قتلهم الحاكم الظالم وهم يدافعون عن حقوقهم (١٤٨) .

الرأي الذي نرجحه :

والذي نراه في هذه المسألة أنه ينبغي التفريق بين أنواع الفسق والمعاصي التي يقع فيها الحكام المسلمون : فان كانت هذه المعاصي امورا شخصية تعود على الحاكم بالضرر في دينه ، او كانت توقع ضررا بعدد محدود من الرعية دون أن تصل الى حد يدل على أن هذا الحاكم قد اتخذ منهجا منحرفا عن منهج الله عز وجل في سياسة الامة ، فلا يكون هذا الفسوق وهذه المعاصي مبررا شرعيا للخروج على الحاكم والقيام عليه ، وتجميع الاعوان ، وشهر السلاح في وجهه ، فانه ما يأخذ الناس بمنهج الله وشرعه بصورة عامة ، فانه لا يضرهم في دينهم ؛ وانما يضر نفسه بما يرتكب من المعاصي ، وما يعود من ضرر على بعض الافراد خاصة لا يوازي ما يكون من فتنة تفريق الصف ، وسفك الدماء اذا ما شهر في وجهه السلاح .

وأما اذا كان فسوق الحاكم وعصيانه يشكل منهجا يأخذ به رعيته ويظهر من خلاله عزمه على الانحراف بالامة عن منهج ربها في العقيدة والاخلاق والشرائع وقيادتها بغير كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى

(١٤٧) أخرجه أحمد والابن ماجة وصححه الترمذي - انظر سنن النسائي بشرح السيوطي ج ٧ ص ١١٦ .

(١٤٨) الفصل في الملل ج ٥ ص ١٤ .

الله عليه وسلم . فان فتنة الصبر على هذا المنكر أشد وأعظم من أية فتنة تنتج عن القيام على هذا الحاكم وشهر السلاح في وجهه .

فيجب على المسلمين ان يجاهدوا هذا الحاكم ، ويستعملوا كل وسيلة مشروعة لازاحته عن سدة الحكم ، واستبداله بمن يأخذهم بدين الله سبحانه وتعالى ، فان جهاد الكفار نفسه لم يشرعه الله سبحانه الا ليمنع طواغيت الانس من الحكام من فتنة الناس ، وليوقف صدهم العباد عن الحق ، وعن رؤية النور ، ولاخذهم البشر بأحكام وأخلاق وقيم مستمدة من أهوائهم وشهواتهم ، فقد قال تبارك وتعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) (١٤٩) .

فليس متشددا ، اذن ، من يقول بوجوب الخروج على الحاكم اذا أصبح ديدنه صد العباد عن شرع الله عز وجل ، وأخذهم بأحكام لا تمت الى شريعة الله بصلة ، وفتنتهم عن دين الله سبحانه ، مهما كان هذا الحاكم متظاهرا بالاسلام ، فان المسلمين ما بايعوه الا ليعينهم على أمور دينهم ، ليلتزم هذا الدين في ديارهم وينشر في اقطار الارض . فاذا نقض عهد ، معهم كان لهم الحق في نقض بيعته بل كان ذلك واجبا على كل قادر منهم ، لان ضرره عندئذ لا يقتصر على نفسه ، ولا يقتصر على أفراد معينين ، بل يصيب كل الامة وكل فرد فيها ، ويضيع حقوقها ، ويؤدي الى هلاك المسلمين وزوال دولتهم .

وقد يكون بعض هؤلاء الحكام من المنافقين الموالين لأعداء الله وأعداء دينه ، في حقيقة امرهم ، وان كانوا متظاهرين بالاسلام ، ويؤدون بعض العبادات .

وقد علمت أن هذا الاسلوب هو من أهم اساليب المنافقين في محاربة المسلمين . ولكن المعيار الذي ذكرناه يكشف أمثال هؤلاء للامة المسلمة ، ولا يتيح لهم البقاء متربعين على مراكز الامر والنهي والتوجيه في دولة

الاسلام . فانه ما دام الحاكم يأخذ المسلمين بمنهج الله تعالى ويقيم عليهم حدوده ، ويرعى بينهم حرماته ، فانه يبعد جدا ان يكون من المنافقين الذين عرفت خصائصهم وأساليبهم ، وان ارتكب من المعاصي ما يعد من الكبائر عند الله تعالى ، فانه ينطبق عليه ، عندئذ ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . (اسمعوا وأطيعوا فانما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم) (١٥٠) .

وأما الذي يفتن المسلمين عن دينهم ، ويسخر ما جعل بين يديه من رسائل القهر والسلطان لتربية الناس على الفسوق والعصيان ، ونشر الرذيلة بينهم ، فانه يقودهم الى جهنم وغضب الله تعالى ، ويكون ما يحمل من الاوزار حملا ثقيلا عليه وعلى أمته جميعا ، فلا يجوز لمسلم يريد نفسه النجاة من عذاب الله ان يسكت عليه .

ورسول الله عليه الصلاة والسلام عندما ضرب لنا مثل السفينة ، وما يكون مصيرها عندما يسكت الناس عن خرقها في أسفلها ، فانه يعلمنا انه لا يجوز للناس أن يسكتوا عن اي انسان يخرق خرقا في سفينة المسلمين ، اذا كان هذا الخرق يؤدي الى هلاكها ، ولا فرق فيمن يصنع الخرق بين الحاكم وغيره ، اذ كيف لو كان الذي خرق السفينة في أسفلها هو قائدها ، فهل لاحد أن يقول ، لا يجوز أن يقام عليه أو تستعمل معه القوة ؟ فان قال قائل بهذا ، فان قوله يؤدي الى انه يجب التوضيحية بالمسلمين ودولتهم في سبيل فرد ظالم مستهتر لا يخشى الله ولا يحسب حسابا للآخرة . وهذا القول لا يقول به أحد من المسلمين ، لا من السابقين ، ولا من اللاحقين .

ولا يحول دون القيام في وجه هذا الحاكم اي مظهر اسلامي يظهر فيه ، ولذلك ذهب جمهور علماء المسلمين الى جواز الخروج على الحاكم الذي يأخذ رعيته ببدع ليس لها أساس في دين الله تعالى (١٥١) .

(١٥٠) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٣٦ .
(١٥١) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٢ ص ٢٢٩ .

ويدل على هذا الاصل الذي ذكرناه ان بعض الاحاديث التي امرت بطاعة الحكام ، وعدم القيام عليهم ومعاداتهم قيدت ذلك باقامتهم للدين في رعاياهم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ان هذا الامر في قریش لا يعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين) (١٥٢) ، فقد نهى عليه الصلاة والسلام عن معاداة هؤلاء الامراء ما داموا يقيمون الدين في الناس الذين بايعوهم . فهذا هو الشرط في استحقاق الولاة الطاعة على الرعية ، فان لم يوفوا به لم يستحقوا الطاعة ، ولم تكن معاداتهم والقيام عليهم سببا في غضب الله عز وجل .

ومثل هذا ما ورد في صحيح مسلم عن يحيى بن حصين قال : سمعت جدتي تحدث انها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع وهو يقول : (ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له راطيعوا) (١٥٣) ، فاذا قام حاكم وقاد الامة الاسلامية بغير كتاب الله عز وجل لم يكن له سمع ولا طاعة ولم يجز السكوت عليه .

وعلى هذا الذي قدمنا يمكن أن تحمل جميع الاحاديث التي تنهى عن الخروج على الحكام المسلمين . فيكون المقصود بها أنه لا يجوز الخروج عليهم ما داموا يقيمون الدين في الامة ، وان صدر منهم ما يعد معصية ، ولو كان ذلك من الكبائر . ولا يستثنى من ذلك الا ان يترك الحاكم الصلاة واقامتها في الناس والدعاء اليها ، فان تركها حاكم وجب القيام عليه ، حتى ولو كان يقيم بقية أمور الدين في الرعية ، لان هذه الكبيرة قد ورد النص عليها في جملة أحاديث ، وعدها الرسول عليه الصلاة والسلام من المبررات التي تجيز الخروج على الحاكم الذي يدعي الإسلام ، وذلك لاهمية هذا الركن في الاسلام ، فان الاستمرار في تركه يدل على عزوف الحاكم عن عبادة الله عز وجل ، حتى ذهب بعض علماء المسلمين المعتد بهم الى اعتبار تارك الصلاة مرتدا .

(١٥٢) انظر : صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١٣ ص ٩٩ .

(١٥٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٢٥ .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : (الا ان تروا كفرا بواحا) ،
فالبواح هو الظاهر البادي ، من قولهم : باح بالشيء يبوح به بواحا اذا
اذاعه وأظهره (١٥٤) .

وأما الكفر المذكور في هذا الحديث فقد اختلف العلماء في المقصود
به : فمنهم من حمله على الخروج عن الملة ، ورأى أنه لا يجوز الخروج
على حاكم مسلم مالم يظهر منه ما يستوجب اخراجه من ملة الاسلام .
ومنهم من قال : المراد بالكفر هنا المعصية ، ومن فسر به بذلك
الامام النووي ، فقد قال : (والمراد بالكفر هنا المعاصي ، ومعنى عندكم
من الله فيه برهان اي تعلمونه من دين الله تعالى ، ومعنى الحديث :
لا تنازعوا ولاية الامور في ولايتهم ، ولا تعترضوا عليهم الا ان تروا
منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الاسلام ، فاذا رأيتم ذلك ،
فانكروه عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم) (١٥٥) .

ويؤيد ما ذهب اليه النووي ان هناك بعض الروايات الاخرى للحديث
جاء فيه قوله عليه الصلاة والسلام : (الا ان يكون معصية لله بواحا) ،
وجاء في رواية عند الامام احمد قوله عليه الصلاة والسلام : (مالم يأمرؤك
باثم بواحا) (١٥٦) .

ويؤكد كذلك هذا التفسير لمعنى الكفر في هذا الحديث ، انه أطلق في
كثير من الاحاديث الاخرى على المعاصي ، التي وان عدت من الكبائر ،
الا ان فعلها دون استباحتها لا يخرج فاعلها من الدين ، ولا يعتبر بمجرد
سببها في الردة ، من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : (سباب المؤمن فسوق
وقتاله كفر) (١٥٧) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : (اثنتان في الناس
هما بهم كفر : الطعن في الانساب والنياحة على الميت) (١٥٨) ، وقد اتفق

(١٥٤) اساس البلاغة للزمخشري مادة بوح ، وفتح الباري ج ١٣ ص ١٦ .

(١٥٥) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٢ ص ٢٢٩ .

(١٥٦) انظر هذه الروايات في فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ١٣ ص ٦ ونيل الاوطار ج ٧ ص ١٨٥ .

(١٥٧) صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١ ص ٩٢ ، وصحيح مسلم بشرح النووي ج ٢ ص ٥٤ وصحيح

الترمذي بشرح ابن العربي ج ٨ ص ١٥١ .

(١٥٨) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٢ ص ٥٧ .

أهل السنة على أن الكفر المذكور في هذه الاحاديث ليس هو المخرج من الملة ، وانما المقصود ان هذه الاعمال التي وصفت بالكفر خلال وخصال وأخلاق يكون عليها الكفار ، وانه ينبغي ان لا توجد عند المسلمين^(١٥٩) .

واذا حملنا الحديث على هذا المعنى الاخير للكفر البواح استطعنا التوفيق بين مختلف الاحاديث المتعلقة بهذا الموضوع .

ويكون عندئذ المقصود المعاصي التي تخرق قواعد الاسلام ، وتشكل منهجا مستقلا في الانحراف او الدعوة الى المنكر والبدع .

مواقف العلماء مع الحكام :

وفي ختام هذا المبحث نثبت للاخ القارئ صوراً لمواقف وقفها علماء السلف الصالح في أمر الامراء والحكام بالمعروف ونهيههم عن المنكر ، ومحاسبتهم وفق مبادئ الاسلام ، وأوامر الله عز وجل .

فانهم رحمة الله عليهم أدركوا ثقل هذه الفريضة ، وامثلوا لما وصلهم عن نبي الله عز وجل وهو قوله صلى الله عليه وسلم : (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، او ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم)^(١٦٠) . فخافوا من لعنة الله في الآخرة ، وانتقامه في الدنيا ، فحملوا ما حملوا ، وقاموا بالواجب خير قيام .

وسمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهم : (سيكون أمراء فسقة جوررة ، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم فليس مني وليس بوارد علي الحوض)^(١٦١) ، فخافوا ان يدخلهم الله مداخل الظالمين ، فألزموا أنفسهم طريق المصطفى عليه الصلاة والسلام ،

(١٥٩) انظر رسالة الايمان لابي عبيد القاسم بن سلام ص ٨٩ وما بعدها .

(١٦٠) أخرجه ابو داود والترمذي وقال عنه : حديث حسن وهذا لفظ ابي داود - نزهة المتقين ج ١ ص ٢١٧ .

(١٦١) انظر : صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ٩ ص ١١٧

فلم يتجاوزوا عن مقام الله فيه مقال الا قالوا فيه ما يرضي ربهم وان أسخط الناس ولم يسكتوا عن منكر علموا به ، ولا عن معروف تقاعس عنه الفاسقون . وكانوا بمواقفهم هذه قدر الله عز وجل في الحد من الطغيان ، وفي ايقاظ ضمائر الحكام ، وفي حفظ الامة الاسلامية من الانحراف المهلك الى ان خلف من بعدهم خلف ممن يتسمون بالعلماء ، رضوا بأعراض الدنيا ، وسكتوا عن ظلم الظالمين وفسوق الفاسقين ، بل ربما أعانواهم على ظلمهم وفسوقهم ، حتى عم الفساد وانتشر ، وأدار الحكام ظهورهم لشريعة الله عز وجل ، وعاد الناس في جاهلية جهلاء لا يخرجهم منها الا ان يعود العلماء كما كان اسلافهم : يجهرون بالحق ، ويضحون في سبيله بأرواحهم ، ويحملون الدعوة ولا يخشون في الله لومة لائم .

وما أكثر المواقف التي وقفها علماء السلف الصالح للحكام يصوبونهم، ويصدونهم عن الظلم والانحراف ، ولكننا نكتفي في هذا المقام بذكر بعض الامثلة :

١ - لقد التزم الصحابة رضوان الله عليهم بنصح الولاة ، فمن كان صالحا منهم أعانوه وشدوا أزره ، ومن ظهر عنده بعض الفساد قوموه وذكروه ونصحوه ولم تأخذهم في الله لومة لائم .

بل ان من ولي أمر المسلمين من اولئك الصحابة كان يشجع الناس على محاسبته ويحثهم على تقويمه .

فهذا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ابو بكر الصديق رضي الله عنه يقول عندما اختاره المسلمون اميرا لهم : (فان أحسنت فأعينوني ، وان أسأت فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم ...) (١٦٢) .

(١٦٢) الاسلام بين العلماء والحكام ص ٧٠ .

وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه) ، فيقوم له أعرابي ويقول : (والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بعد سيوفنا) ، فسر عمر رضي الله عنه لهذا الجواب وقال : (الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر بسيفه) (١٦٣) .

ومما ذكر من ممارسة الصحابة رضوان الله عليهم لهذا الحق ، وقبول الخلفاء الراشدين لمحاسبتهم ، انه كان في جملة غنائم المسلمين أبراد يمانية ، فقام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يقسم هذه الغنائم ، وكان من نصيبه برد منها ، وكذلك كان لابنه عبد الله مثل ذلك كأي رجل من المسلمين . ولما كان عمر طويلاً ولا يكفيه ما أصابه من تلك الأبراد لیتخذہ ثوباً ، فقد تبرع له ابنه عبد الله ببرده وصنع عمر منه ثوباً ، ثم وقف في الناس خطيباً ، وعليه هذا الثوب ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله « أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا . . . » فوقف له سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال له : لا سمع لك علينا ولا طاعة . فقال سيدنا عمر : ولم ؟ قال سلمان : من أين لك هذا الثوب وقد نالك برد واحد وأنت رجل طويل ؟ فقال : لا تعجل وقد نادى : يا عبد الله ، فلم يجبه أحد ، فقال : أين عبد الله بن عمر ؟ فقال : ها آنذا يا أمير المؤمنين ، قال : لمن أحد هذين البردين اللذين علي ؟ قال : لي ، فقال لسلمان : عجلت علي يا أبا عبد الله ، اني كنت غسلت ثوبي الخلق ، فاستعرت ثوب عبد الله . قال : أما الآن فقل نسمع ونطع (١٦٤) .

ومن ذلك أيضاً ما روي أن عمر رضي الله عنه خرج من المسجد ومعه الجارود العبدي ، فبينما هما خارجان اذ بامرأة على ظهر الطريق ، فسلم عليها عمر فردت عليه السلام ثم قالت : رويدك يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة ، قال لها : قولي .

(١٦٣) المرجع السابق .

(١٦٤) أخبار عمر ص ٢٠٣ .

قالت : يا عمر ! عهدي بك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ تصارع
الفتيان فلم تذهب الايام حتى سميت عمر ، ثم لم تذهب الايام حتى
سميت أمير المؤمنين ، فاتق الله في الرعية ، واعلم انه من خاف الموت
خشى الفوت ، فقال الجارود : هيه ! قد اجتترأت على أمير المؤمنين •

فقال عمر : دعها ، أما تعرف هذه يا جارود ؟ هذه خولة بنت حكيم
التي سمع الله قولها من فوق سمائه ، فعمر والله احرى أن يسمع كلامها ،
أراد بذلك قوله تعالى : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي
الى الله) (١٦٥) •

ومن مواقفهم رضوان الله عليهم ما رواه ابو سعيد الحسن البصري
أن عائذ بن عمرو رضي الله عنه دخل على عبيد الله بن زياد فقال :
أي بني ، اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان شر
الرعاء (١٦٦) الحطمة (١٦٧) ، فاياك ان تكون منهم ، فقال له : اجلس ،
فانما انت من نخالة اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : وهل
كانت لهم نخالة ؟ ! انما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم (١٦٨) •

٢ - ومن هذه المواقف موقف ابي مسلم الخولاني ، رحمه الله تعالى
من معاوية رضي الله عنه ، عندما حبس العطاء عن بعض المسلمين ، فقام
اليه ابو مسلم وقال : يا معاوية انه ليس من كدك ولا من كد ابيك
ولا من كد امك ، فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال للحاضرين :
مكانكم ، وغاب عن اعينهم ساعة ، ثم خرج عليهم وقد اغتسل ، فقال :
ان ابا مسلم كلمني بكلام اغضبني ، وانني سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : الغضب من الشيطان ، والشيطان خلق من نار .
وانما تطفأ النار بالماء ، فاذا غضب أحدكم فليغتسل وانني دخلت

(١٦٥) أخبار عمر ص ٤٢٠ ، والآية من سورة المجادلة - رقم ١ •

(١٦٦) جمع راع •

(١٦٧) العنيف الذي لا يرفق برعيته - انظر شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٢ ص ٢١٦ •

(١٦٨) رواه مسلم في كتاب الامارة - انظر صحيح مسلم شرح النووي ج ١٢ ص ٢١٥ •

فاغتسلت ، وصدق ابو مسلم ، انه ليس من كدي ولا من كد ابي
فهللوا الى عطائكم (١٦٩) .

٣ - ومنها ما رواه ابن خلكان عن الحسن البصري مع والي العراق
ابن هبيرة ، فقد قال : (لما ولي عمر بن هبيرة الفزاري العراق ، وأضيفت
اليه خراسان ، وذلك في ايام يزيد بن عبد الملك ، استدعى الحسن البصري
ومحمد بن سيرين والشعبي ، وذلك في سنة ثلاث ومئة ، فقال لهم : ان
يزيد خليفة الله استخلفه على عبادته ، واخذ عليهم الميثاق بطاعته ، واخذ
عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولاني ما ترون ، فيكتب الي بالامر من
أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الامر ، فما ترون ؟

فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقية ، قال ابن هبيرة : ما تقول
يا حسن ؟ فقال : يا ابن هبيرة ، خف الله في يزيد ، ولا تخف يزيد في الله .
ان الله يمنحك من يزيد ، وان يزيد لا يمنحك من الله ، وأوشك أن يبعث
اليك ملكاً ، فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك الى ضيق
قبرك . ثم لا ينجيك الا عملك . يا ابن هبيرة . ان تعص الله فانما جعل
الله السلطان ناصراً لدين الله وعباده . فلا تركب دين الله وعباده لسلطان
الله ، فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (١٧٠) .

٤ - ومنها ما روي ان سليمان بن عبد الملك قدم المدينة وهو يريد
مكة ، فأرسل الى أبي حازم ، فلما دخل عليه . قال له سليمان . يا أبا
حازم ، ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لانكم خربتم آخرتكم ، وعمرتم
دنياكم ، فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب

فقال : يا أبا حازم . كيف القدوم على الله ؟

قال : يا أمير المؤمنين . اما المحسن فكالفائب يقدم على أهله ، وأما
المسيء فكالآبق يقدم على مولاه .

(١٦٩) الحديث الذي رواه معاوية رضي الله عنه أخرجه ابو نعيم في الحذفة . والحادثة ذكرها الفزالي في
أحياء علوم الدين - المجلد الثاني ، ص ١٢٥٢ .
(١٧٠) نقله عن ابن خلكان ابو الحسن الندوي في « رجال الفكر والدعوة » ص ٦٠ . وانظر عيون الاخبار ،
المجلد الثاني ص ٣٤٣ .

فبكى سليمان وقال : ليت شعري مالي عند الله ؟
قال ابو حازم : اعرض نفسك على كتاب الله تعالى : « إن الابرار لفي
نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم » (١٧١) .
قال سليمان : فأين رحمة الله ؟
قال : قريب من المحسنين .
ثم قال سليمان : يا أبا حازم ، أي عباد الله أكرم ؟
قال : أهل البر والتقوى .
قال : فأبي الاعمال أفضل ؟
قال : أداء الفرائض واجتناب المحارم .
قال : فأبي الكلام أسمع ؟
قال : قول الحق عند من تخاف وترجو .
قال : فأبي المؤمنين أكيس ؟
قال : رجل عمل بطاعة الله ودعا الناس اليها .
قال : فأبي المؤمنين أخسر ؟
قال : رجل خطا في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه غيره .
قال سليمان : ما تقول فيما نحن فيه ؟
قال : أوتعفيني ؟
قال : لا بد منها ، فاتها نصيحة تلقوها الي .
قال ابو حازم : يا أمير المؤمنين ، ان آباءك قهروا الناس بالسيف ،
وأخذوا هذا الملك عنوة ، من غير مشورة من المسلمين ، ولا رضا منهم ،
حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وقد ارتحلوا ، فلو شعرت بما قالوا وما
قيل فيهم .
فقال له رجل من جلسائه : بئسما قلت .
قال ابو حازم : ان الله قد اخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس
ولا يكتُمونه .

قال سليمان : وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد ؟

قال : ان تأخذه من حله فتضعه في حقه .

فقال سليمان : ومن يقدر على ذلك ؟

فقال : من يطلب الجنة ويخاف النار .

فقال سليمان : ادع لي .

فقال ابو حازم : اللهم ان كان سليمان وليك فيسره لخيري الدنيا والآخرة ، وان كان عدوك فغذ بناصيته الى ما تحب وترضى .

فقال سليمان : أوصني .

فقال : أوصيك وأوجز : عظم ربك ، ونزهه أن يراك حيث نهاك .

او يفقدك حيث أمرك (١٧٢) .

٥ - ومن ذلك ما ورد انه لما قدم عبد الله بن علي العباسي الشام ، وقد قتل من قتل من بني أمية بعد ذهاب دولتهم ، استدعى الامام عبد الرحمن بن عمرو الازواعي ، وهو في جنده وحشمه وقال له : ما تقول في دماء بني أمية ؟

قال الازواعي : قد كان بينك وبينهم عهد ، وكان ينبغي أن تفي

بها .

قال الامير : ويحك ، اجعلني واياهم لا عهد بيننا .

قال الازواعي : فأجهشت نفسي ، وكرهت القتل ، فتذكرت مقامي

بين يدي الله تعالى فلفظتها وقلت : دماؤهم عليك حرام .

فغضب عبد الله بن علي وانتفخت عيناه وأوداجه ، فقال : ويحك

ولم ؟

قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يحل دم امريء مسلم

الا باحدى ثلاث : ثيب زان ، ونفس بنفس ، وتارك لدينه) .

قال : ويحك ، أليس الامر لنا ديانة ؟

(١٧٢) انظر : احياء علوم الدين - المجلد الثاني ص ٩٠٥ .

قلت : كيف ذاك ؟

قال : أو ليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى لعلي ؟

قلت : لو أوصى لعلي ما حكم الحكمين ؟

فسكت وقد اجتمع غضبه ، فجعلت أتوقع رأسي يسقط بين يديه ،

فأشار بيده هكذا ، وأوماً أن أخرجوه فخرجت (١٧٣) .

من هذه الحادثة ترى أن الامام الاوزاعي رحمه الله تعالى كان يتوقع القتل بسبب ما يجهر به من الحق أمام ذلك الامير العباسي ، وبسبب ما حمل العباسيين دماء من قتلوا من بني أمية . وقد كان لهذا التوقع ما يبرره عند الاوزاعي ، وعند كل من عرف الظرف الذي وقف فيه الاوزاعي هذا الموقف ، فقد مثل عند ذلك الامير ساعة تأسيس ملكه وانتصاره على خصمه ، واجتماع الامر له ، واضطرام النار تحت الرماد من أنصار الحكم السابق الذين كانوا ينتظرون فرصة للثورة والانقضاض (١٧٤) ، ولكن الامام الاوزاعي تذكر مقامه بين يدي ربه عز وجل فدفعته هذه الذكرى الى الجهر بالحق ، وانكار المنكر مهما كانت النتيجة في هذه الحياة الدنيا .

وهكذا كان علماء السلف الصالح ، لا يهمهم مقدار ما يقدمون من التضحيات اذا تذكروا موقفهم بين يدي الله عز وجل .

٦ - ومن هذه المواقف ما روي أن حطيطة الزيات جيء به الى الحجاج ، فلما دخل عليه قال : أنت حطيطة ؟

قال : نعم ، سل عما بدا لك ، فاني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال : ان سئلت لأصدقن ، وان ابتليت لأصبرن ، وان عوفيت لأشكرن .

قال : فما تقول في ؟

قال : أقول ، انك من أعداء الله في الارض ، تنتهك المحارم ، وتقتل

بالظنة .

(١٧٣) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٨١ ، الخلق الكامل ج ٢ ص ٢٣٩ . الاسلام بين العلماء والحكام ص ٨٣ .
(١٧٤) الخلق الكامل ج ٢ ص ٢٤٠ .

قال : فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟
قال : أقول : انه أعظم جرماً منك ، وانما أنت خطيئة من خطاياهم .
فقال الحجاج : ضعوا عليه العذاب .

فانتهى له العذاب الى ان شقق له القصب ، ثم جعلوه على لحمه
وشدوه بالحبال ، ثم جعلوا يمدون قصبه قصبه . حتى انتحلوا لحمه ،
فما سمعوه يقول شيئاً . ف قيل للحجاج : انه في آخر رمق ، فقال :
أخرجوه فارموا به في السوق . قال جعفر ، وهو الراوي : فأتيته انا
وصاحب له ، فقلنا له : **حطيط ألك حاجة ؟** قال : شربة ماء ، فأتوه
بشرية ، ثم مات ، وكان ابن ثمانين عشرة سنة رحمة الله عليه (١٧٥) .

٧ - روي أن أبا جعفر المنصور استدعى ابن طاوس أحد علماء
عصره ، ومعه مالك ابن أنس ، فلما دخلا عليه ، أطرق ساعة ، ثم التفت
الى ابن طاوس فقال له : حدثني عن أبيك طاوس (ابن كيسان التابعي) .
فقال : حدثني أبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ان أشد
الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور
في عدله) ، فأمسك ساعة . قال مالك : فضمنت ثيابي مخافة أن يملأني
من دمه . ثم التفت اليه ابو جعفر فقال : عطني يا ابن طاوس . قال :
نعم يا أمير المؤمنين ، ان الله تعالى يقول : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد
ارم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا
الصخر بالواد ، وفرعون ذي الاوتاد الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها
الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد) (١٢٦) ،
قال مالك : فضمنت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه . فأمسك عنه ثم
قال : ناولني الدواة ، فأمسك ساعة حتى اسود بيننا وبينه ، ثم قال :
يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة ، فأمسك عنه ، فقال : ما يمنعك
أن تناولنيها ؟ فقال : أخشى أن تكتب بها معصية الله ، فأكون شريكك
فيها .

(١٧٥) احياء علوم الدين - المجلد الثاني ص ١٢٥٦ .
(١٧٦) الفجر - الآيات ٦ - ١٤ .

فلما سمع ذلك قال : قوما عني ، قال ابن طاوس : ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم • قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاوس فضله (١٧٧) •

٨ — عن ابن المهاجر قال : قدم أمير المؤمنين المنصور مكة ، شرفها الله ، حاجا فكان يخرج من دار الندوة الى الطواف في آخر الليل ، يطوف ويصلي ولا يعلم به ، فاذا طلع الفجر رجع الى دار الندوة ، وجاء المؤذنون فسلموا عليه ، وأقيمت الصلاة ، فيصلي بالناس ، فخرج ذات ليلة حين أسحر • فبينما هو يطوف اذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول : اللهم اني أشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع •

فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله ، ثم خرج ، فجلس ناحية من المسجد وأرسل اليه فدعاه . فأتاه الرسول وقال له : أجب أمير المؤمنين ، فصل ركعتين ، واستلم الركن ، وأقبل مع الرسول ، فسلم عليه •

فقال له المنصور : ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الارض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما امرضني واقلقني •

فقال : يا أمير المؤمنين ، ان أمنتني على نفسي أنباتك بالامور من أصولها ، والا اقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل •
فقال له : أنت آمن على نفسك •

فقال : الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق ، واصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الارض أنت •

فقال : ويحك ، وكيف يدخلني الطمع ، والصفراء والبيضاء في يدي ، والحلو والحامض في قبضتي ؟

(١٧٧) الاسلام بين العلماء والحكام ص ٨٤ ، ٨٥ نقلا عن تذكرة الحفاظ •

قال : وهل دخل أحدا من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين ، ان الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر . وأبوابا من الحديد ، وحجبة معهم السلاح ثم سجنت نفسك فيها منهم . وبعثت عمالك في جمع الاموال وجبايتها ، واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة ان نسيت لم يذكروك . وان ذكرت لم يعينوك ، وقويتهم على ظلم الناس بالاموال والكراع والسلاح . وأمرت بان لا يدخل عليك من الناس الا فلان وفلان نفر سميتهم . ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العاري ، ولا الضعيف ولا الفقير . ولا احد الا وله في هذا المال حق . فلما رآه هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيته ، وأمرت أن لا يحجبوا عنك ، تجبي الاموال ولا تقسمها ، قالوا : هذا قد خان الله ، فمالنا لا نخونه وقد سخر لنا ، فائتمروا على أن لا يصل اليك من علم أخبار الناس شيء الا ما ارادوا ، وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا الا أقصوه حتى تسقط منزلته ، ويصغر قدره . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم ، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والاموال ليتقوا بهم على ظلم رعيته ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيته لينالوا ظلم من دونهم من الرعية ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك ، وأنت غافل ، فان جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول اليك، وان اراد رفع صوته أو قصته اليك عند ظهورك وجدوك قد نهيت عن ذلك . ووقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم ، فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانته سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته ، وان كانت للمتظلم به حرمة واجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ به ، ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه ويعتل عليه ، فاذا جهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك ، فيضرب ضربا مبرحا ، ليكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير ، فما بقاء

الاسلام وأهله على هذا ؟ ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينتهي اليهم المظلوم الا رفعت ظلامته اليهم ، فينصف ، لقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم ، فينادي : يا أهل الاسلام فيبتدرونه:مالك مالك؟فيرفعون مظلمته الى سلطانهم ، فينصف(١٧٨) .

٩ - ويروى عن عمرو بن عبيد أنه قال للمنصور : ان الله اعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك ببعضها ، واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده ، فوجم أبو جعفر من قوله فقال له الربيع : يا عمرو ، غممت أمير المؤمنين ، فقال عمرو : ان هذا صحبتك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحدا ، وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه . قال ابو جعفر : فما اصنع قد قلت لك : خاتمي في يدك فتعال واصحابك فاكفني ، قال عمرو : ادعنا بعدلك تسخ انفسنا بعونك ، ببابك الف مظلمة أردد منها شيئا نعلم أنك صادق (١٧٩) .

١٠ - وذكر عبد الله بن المبارك عن رجل من أهل الشام ان الاوزاعي قال : دخلت على أبي جعفر المنصور فقال : ما الذي بطأ بك عني ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذي تريد مني ؟ فقال : الاقتباس منك ، قلت : انظر ما تقول ، فان مكحولا حدثني عن عطية ابن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من بلغه عن الله نصيحة في دينه فهي رحمة من الله سيقته اليه ، فان قبلها من الله بشكر والا كانت حجة من الله عليه ، ليزداد اثما ويزداد الله عليه غضبا ، وان بلغه شيء من الحق فرضي فله الرضى ، وان سخط فله السخط ، ومن كرهه فقد كره الله ، لان الله هو الحق المبين) ، فلا تجهلن ، قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمع . قال الاوزاعي : فسل علي الربيع السيف وقال : تقول لأمر المؤمنين هذا . فانتهره المنصور وقال : أمسك ، ثم كلمه الاوزاعي ، وكان في كلامه ان قال :

(١٧٨) احياء علوم الدين ، المجلد الثاني ص ١٢٦٤ - ١٢٦٦ . عيون الاخبار ، المجلد الثاني ص ٣٣٣ وما بعدها .

(١٧٩) عيون الاخبار - المجلد الثاني ص ٣٣٧ .

انك قد اصبحت من هذه الخلافة بالذي اصبحت فيه ، والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها ونقيرها ، ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما من راع يبيت غاشا لرعيته الا حرم الله عليه رائحة الجنة) ، فحقيق على الوالي ان يكون لرعيته ناظرا ، ولما استطاع من عوراتهم ساترا ، وبالقسط فيما بينهم قائما ، لا يتخوف محسنهم منه رهقا ، ولا مسيئهم عدوانا ، فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين فأتاه جبريل فقال : (يا محمد ، ما هذه الجريدة بيدك اقدفها ، لا تملأ قلوبهم رعبا) ، فكيف من سفك دماءهم وشقق آبشارهم وأنهب أموالهم ؟ !

يا أمير المؤمنين ، ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا الى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده ، فهبط جبريل فقال : (يا محمد ان الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون أمته) ، واعلم أن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقاب قوس أحدكم من الجنة او قذة^(١٨٠) خير له من الدنيا بأسرها) . وان الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ، ولو بقي الملك لمن قبلك لم يصل اليك .

يا أمير المؤمنين، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والارض لأذاهم فكيف من يتقمصه ، ولو أن ذنوبا^(١٨١) من صديد أهل النار صب على ماء الارض لأجته^(١٨٢) فكيف من يتجرعه ! ولو ان حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب ، فكيف من سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه ، وقد قال عمر بن الخطاب « لا يقوم امر الناس الا حصيف العقل ، لا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يحنق في الحق على جره^(١٨٣) ، ولا تأخذه في الله لومة لائم » .

(١٨٠) أي ريش السهم .
(١٨١) الدلو .
(١٨٢) جعله أجنا أي متغير الطعم واللون .
(١٨٣) لا ينطوي على حقد ودغل .

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يظلف (١٨٤) نفسه وعماله ، فذلك له أجر المجاهد في سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف . وأمير رتغ ورتغ عماله ، فذاك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله . وأمير يظلف نفسه ويرتغ عماله ، فذاك الذي باع آخرته بدنيا غيره . وأمير يرتغ ويظلف عماله ، فذاك شر الأكياس .

واعلم يا أمير المؤمنين انك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، وقد جاء عن جدك في تفسير قول الله عز وجل « ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها » (١٨٥) : ان الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ، فما ظنك بالكلام وما عملته الايدي ! فأعيزك بالله أن يخيّل اليك أن قرابتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تنفع مع المخالفة لأمره . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا صفية عمة محمد ويا فاطمة بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله ، اني لا أغني عنكما من الله شيئا » وكان جدك الاكبر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم اماره فقال : (اي عم نفس تحييها خير لك من اماره لا تحصيها) ، نظرا لعمه شفقة عليه أن ينني فيجور عن سنته جناح بعوضة ، فلا يستطيع له نفعا ولا عنه دفعا . هذه نصيحتي ان قبلتها فلنفسك عملت ، وان رددتها فعلى نفسك جنيت ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، قال : بلى نقبلها ونشكر عليها وبالله نستعين (١٨٦) .

١١ - وعن ابي عمران الجوني ، قال : لما ولي هرون الرشيد الخلافة ، زاره العلماء فهنوه بما صار اليه من أمر الخلافة ، ففتح بيوت الاموال ، وأقبل يجيزهم بالجوائز السنية وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ، وكان يظهر النسك والتقشف ، وكان مؤاخيا لسفيان بن

(١٨٤) يظلف نفسه . أي يكفها .

(١٨٥) الكهف - الآية ٤٩ .

(١٨٦) هذه الموعظة التي وعظها الاوزاعي للمنصور رواها ابن قسبه في عيون الاحبار المجلد الثاني

ص ٣٣٨ وما بعدها ، وقد رواها مطوله الغزالي في الاحياء - المجلد الثاني ص ١٢٥٩ وما بعدها .

وقد حرج الاحاديث الواردة فيها الامام المراقى في تخريجه المطبوع مع الاحياء .

سعيد بن المنذر الثوري قديما ، فهجره سفيان ولم يزره ، فاشتاق هرون الى زيارته ليخلو به ويحدثه ، فلم يزره ولم يعبا بموضعه ، ولا بما صار اليه ، فاشتد ذلك على هرون ، فكتب اليه كتابا يقول فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هرون الرشيد أمير المؤمنين الى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر ، أما بعد :

يا أخي قد علمت أن الله تبارك وتعالى وأخى بين المؤمنين ، وجعل ذلك فيه وله ، واعلم أنني قد وأخيتك مواخاة لم اصرم بها حبلك ، ولم أقطع منها ودك ، واني منطو لك على أفضل المحبة والارادة ، ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله لأتيتك ولو حبوا ، لما أجد لك في قلبي من المحبة . واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقي من اخواني واخوانك احد الا وقد زارني وهناني بما صرت اليه ، وقد فتحت بيوت الاموال ، وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي ، وقرت به عيني ، واني استبطأتك فلم تأتني ، وقد كتبت اليك كتابا شوقا مني اليك شديدا ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته فاذا ورد عليك كتابي فاعجل العجل .

فلما كتب الكتاب التفت الى من عنده ، فاذا كلهم يعرفون سفيان الثوري وخشونته ، فقال : علي برجل من الباب ، فأدخل عليه رجل يقال له : عباد الطالقاني ، فقال : يا عباد ، خذ كتابي هذا ، فانطلق به الى الكوفة ، فاذا دخلتها فسل عن قبيلة بني ثور ، ثم سل عن سفيان الثوري ، فاذا رأيته ، فألق كتابي هذا اليه ، وع بسمعك وقلبك جميع ما يقول ، فأحص عليه دقيق امره وجليله لتخبرني به . فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد اليها ، ثم سأل عن سفيان ، فقيل له : هو في المسجد . قال عباد : فأقبلت الى المسجد ، فلما رأيته قام قائما ، وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، واعوذ بك اللهم من طارق يطرق الا بخير . قال عباد : فوقعت الكلمة في قلبي ،

فخرجت ، فلما رأني نزلت بباب المسجد قام يصلي ، ولم يكن وقت صلاة ، فربطت فرسي بباب المسجد ودخلت ، فاذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم ، كأنهم لصوص ، قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته ، فسلمت فما رفع أحد الي رأسه ، وردوا السلام علي برؤوس الاصابع ، فبقيت واقفا ، فما منهم احد يعرض علي الجلوس ، وقد علاني من هيبتهم الرعدة ، ومددت عيني اليهم ، فقلت : ان المصلي هو سفيان ، فرميت بالكتاب اليه . فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه ، فرجع وسجد وسلم وأدخل يده في كمه ، هلفها بعباءته ، وأخذ فقلبه بيده ، ثم رماه الى من كان خلفه ، وقال : يأخذه بعضكم يقرؤه ، فاني استغفر الله أن أمس شيئا مسه ظالم بيده . قال عباد : فأخذه بعضهم ، فحله كأنه خائف من فم حية تنهشه ، ثم فضه وقرأه وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب ، فلما فرغ من قراءته قال : اقلبوه واكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه ، فقليل له : يا أبا عبد الله ، انه خليفة ، فلو كتبت اليه في قرطاس نقي؟ فقال : اكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه . فان كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به ، وان كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا ، فقليل له : ما نكتب ؟ فقال : اكتبوا (بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري ، الى العبد المغرور بالآمال ، هرون الرشيد ، الذي سلب حلاوة الايمان أما بعد : فاني قد كتبت اليك أعرفك اني قد صرمت حبلك ، وقطعت وذك ، وقليت موضعك ، فانك قد جعلتني شاهدا عليك باقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين ، فأنفقته في غير حقه ، وأنفدته في غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت الي تشهدني على نفسك ، أما اني قد شهدت عليك أنا واخواني الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنؤدي الشهادة عليك غدا بين يدي الله

تعالى • يا هرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضي
 بفعلتك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى ، والمجاهدون
 في سبيل الله وابن السبيل . أم رضي بذلك حملة القرآن واهل العلم
 والارامل والايتم ، أم هل رضي بذلك خلق من رعيته ، فشد يا هرون
 مؤزرك ، وأعد للمسالة جوابا ، وللبلاء جلبابا ، واعلم انك ستقف بين
 يدي الحكم العدل ، رزئت في نفسك ، اذ سلبت حلاوة العلم والزهد
 ولذيق القرآن ومجالسة الاخيار ، ورضيت لنفسك ان تكون ظلما ،
 وللظالمين اماما • يا هرون قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، وأسبلت
 سترا دون بابك ، وتشبهت بالحجة برب العالمين ، ثم أقعدت اجنادك
 الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ولا ينصفون : يشربون الخمر
 ويضربون من يشربها ، ويزنون ويحدون الزاني . ويسرقون ويقطعون
 السارق • افلا كانت هذه الاحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على
 الناس ! • فكيف بك يا هرون غدا ، اذا نادى المنادي من قبل الله تعالى :
 احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ، أين الظلمة وأعوان الظلمة ، فقدمك
 بين يدي الله تعالى ، ويداك مغلولتان الى عنقك ، لا يفكهما الا عدلك
 وانصافك ، والظالمون حولك ، وانك لهم سابق ، وامام الى النار •
 كأنني بك يا هرون وقد أخذت بضيق الخناق ، ووردت المساق وانك ترى
 حسناتك في ميزان غيرك ، وسيئات غيرك في ميزانك ، زيادة على سيئاتك
 بلاء على بلاء ، وظلمة فوق ظلمة ، فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي
 التي وعظتك بها • واعلم اني قد نصحتك ، وما ابقيت لك في النصيح
 غاية ، فاتق الله يا هرون في رعيته ، واحفظ محمدا صلى الله عليه
 وسلم في أمته وأحسن الخلافة عليهم • واعلم أن هذا الامر لو بقي
 لغيرك لم يصل اليك ، وهو صائر الى غيرك وكذا الدنيا تنتقل بأهلها
 واحدا بعد واحد ، فمنهم من تزود زادا نفعه ، ومنهم من خسر دنياه
 وآخرته ، وانني أحسبك يا هرون ممن خسر دنياه وآخرته ، فايك اياك
 أن تكتب لي كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام •

قال عباد : فألقي الي الكتاب منشورا غير مطوي ولا مختوم ، فأخذته وأقبلت الى سوق الكوفة ، وقد وقعت الموعظة في قلبي ، فناديت يا أهل الكوفة ، فأجابوني ، فقلت لهم : يا قوم ، من يشتري رجلا هرب من الله الى الله ، فأقبلوا الي بالدنانير والدراهم فقلت : لا حاجة لي في المال ، لكن جبة صوف خشنة ، وعباءة قطوانية ، قال : فاتيت بذلك ، ونزعت ما كان علي من اللباس الذي كنت البسه مع امير المؤمنين ، وأقبلت أقود البرذون ، وعليه السلاح الذي كنت أحمله ، حتى آتيت باب امير المؤمنين هرون حافيا راجلا ، فهزأ بي من كان على باب الخليفة ، ثم استؤذن لي ، فلما دخلت عليه وبصر بي على تلك الحالة قام وقعد ، ثم قام قائما ، وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ، ويقول : انتفع الرسول وخاب المرسل ، مالي وللدنيا ، مالي والمملك يزول عني سريعا ، ثم القيت الكتاب اليه منشورا كما دفع الي ، فأقبل هرون يقرؤه ، ودموعه تنحدر من عينيه ، ويقرأ ويشهق ، فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين ، لقد اجترأ عليك سفيان ، فلو وجهت اليه ، فأثقلته بالحديد ، وضيقته عليه السجن ، كنت تجعله عبرة لغيره ، فقال هرون : اتركونا يا عبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه ، والشقي من أهلكتموه وان سفيان أمة وحده ، فاتركوا سفيان وشأنه ، ثم لم يزل كتاب سفيان الى جنب هرون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله (١٨٧) .

١٢ - وعن سفيان الثوري أيضا قال : أدخلت على أبي جعفر المنصور بمنى ، فقال لي : ارفع الينا حاجتك ، فقلت له : اتق الله فقد ملأت الارض ظلما وجورا ، قال : فطأطأ رأسه ثم رفعه ، فقال : ارفع الينا حاجتك ، فقلت : انما انزلت هذه المنزلة بسيفوف المهاجرين والانصار ، وابنائهم يموتون جوعا ، فاتق الله وأوصل اليهم حقوقهم فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال : ارفع الينا حاجتك ، فقلت : حج عمر بن الخطاب رضي

(١٨٧) انظر : احياء علوم الدين المجلد الثاني ص ١٢٦٨ - ١٢٧١ .

الله عنه فقال لخازنه : كم أنفقت ؟ قال : بضعة عشر درهما ، وأرى
ههنا أموالا لا تطيق الجمال حملها ، وخرج (١٨٨) .

١٣ - ودخل اعرابي على سليمان بن عبد الملك ، فقال : تكلم يا
أعرابي ، فقال : يا أمير المؤمنين : اني مكلمك بكلام فاحتمله وان
كرهته ، فان وراءه ما تحب ان قبلته ، فقال : يا أعرابي انا لنجود بسعة
الاحتمال على من لا نرجو نصحه ، ولا نأمن غشه ، فكيف بمن نأمن
غشه ونرجو نصحه ؟

فقال الاعرابي : يا أمير المؤمنين ، انه قد تكنفك رجال أساءوا
الاختيار لانفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ،
خافوك في الله تعالى ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما ائتمنتك
الله تعالى عليه ، فانهم لم يألو في الامانة تضييعا ، وفي الامة خسفا وعسفا ،
وأنت مسؤول عما اجترحوا . وليسوا بمسؤولين عما اجترحت ، فلا
تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان أعظم الناس غبنا من باع آخرته
بدنيا غيره . فقال له سليمان : يا أعرابي أما انك قد سللت لسانك
وهو أقطع سيفيك ، قال : أجل يا أمير المؤمنين ، ولكن لك لا
عليك (١٨٩) .

١٤ - (ومن ذلك أنه لما خرج الظاهر بيبرس الى قتال التتار بالشام
أخذ فتاوي العلماء بجواز أخذ مال من الرعية يستنصر به على قتالهم ،
فكتب له فقهاء الشام بذلك ، فأجازوه ، فقال : هل بقي من أحد ؟ فقل
له : نعم ، بقي الشيخ محيي الدين النووي ، فطلبه فحضر ، فقال له :
اكتب خطك مع الفقهاء فامتنع ، فقال : ما سبب امتناعك ؟ فقال : أنا
أعرف انك كنت في الرق للامير «بندقدار» وليس لك مال ، ثم من الله
عليك ، وجعلك ملكا ، وسمعت عندك ألف مملوك ، كل مملوك له
حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية ، لكل جارية حق من الحلبي ،
فاذا انفقت ذلك كله ، وبقيت ممالكك بالبندود والصرف بدلا من

(١٨٨) احياء علوم الدين - المجلد الثاني ص ٩٠٤ .

(١٨٩) احياء علوم الدين - المجلد الثاني ص ٩٠٦ ، عيون الاخبار - المجلد الثاني ص ٣٧٧ .

الحوائص ، وبقيت الجواربي بشيا بهن دون الحلي ، أفيتك بأخذ المال من الرعية . فغضب الظاهر من كلامه وقال : أخرج من بلدي ، يعني دمشق ، فقال : السمع والطاعة ، وخرج الى (نوى) ، فقال الفقهاء : ان هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به ، فأعده الى دمشق ، فرسم برجوعه . فامتنع الشيخ وقال : لا أدخلها والظاهر فيها ، فمات بعد شهر (١٩٠) .

١٥ - (ويذكر المؤرخون الثقات أن الملك اسماعيل خاف من نجم الدين بن أيوب حاكم مصر ، فتحالف مع الافرنج الصليبيين ليساعدوه على نجم الدين ، وسلم اليهم لقاء هذه المساعدة قلعة صفد وبلادها ، وقلعة الشقيف وبلادها ، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها ، وجبل عامر وسائر بلاد الساحل ، كما أذن الملك للفرنج في دخول دمشق وشراء السلاح .

فقام العز بن عبد السلام ، سلطان العلماء ، وحاسب الملك اسماعيل على فعلته المذكورة ، من على المنبر في يوم الجمعة ، وذم الملك على هذه الخيانة ، وكشف خطورتها للامة ، وقطع من الخطبة الدعاء له ، وكان الدعاء للسلطان رمز الولاء والطاعة له ، وصار يدعو في الخطبة بدعاء منه : « اللهم أبرم لهذه الأمة ابرام رشد يعز فيه أولياؤك ، وتذل فيه أعداؤك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك » ، والناس يرضجون بالدعاء .

وكان الملك اسماعيل غائبا عن دمشق ، فأخبر بذلك ، فورد كتابه بعزل العز بن عبد السلام عن الخطابة ، واعتقاله ، وجعل عقابه بالاقامة الجبرية في داره ، وان لا يفتي الناس (١٩١) .

١٦ - ومن مواقف الجهر بالحق ومحاسبة العلماء للحكام موقف ابن تيمية رحمه الله تعالى من غازان التتري ، رابع ملك مسلم من التتار :

(١٩٠) ذكره البدر في « الاسلام بين العلماء والحكام » ص ١٠١ .
(١٩١) الاسلام بين العلماء والحكام ص ٧٦ ، ٧٧ نقلا عن طبقات السبكي وغيره .

(فقد وردت الانباء في أواخر سنة ٦٩٨ هـ بزحف غازان التتري وجيشه من ايران نحو حلب ، وفي وادي سلمية يوم ٢٧ ربيع الاول من سنة ٦٩٩ هـ التقى جمع غازان بجمع الناصر بن قلاوون ، وبعد معركة حامية الوطيس هزم جمع الناصر وولى الجند وأمرأؤهم الادبار ، ونزح أعيان دمشق الى مصر ، حتى خلت دمشق من حاكم أو أمير أو أعيان البلاد . ولكن شيخ الاسلام بقي صامدا في عامة الناس . فاجتمع شيخ الاسلام مع من بقي من أعيان البلاد ، واتفق معهم على تولي الامور . وان يذهب هو على رأس وفد من الشام لمقابلة غازان . فقابله في بلدة النبك ودارت بينهما مناقشة عنيفة . وحاسب شيخ الاسلام غازان على تصرفه ونكثه للعهد وكلمه كلاما قويا شديدا ، ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ، وفصله كما سمعه من الشيخ ابي عبد الله محمد بن عمر البالسي الذي كان من أعضاء وفد المقابلة :

قال الشيخ البالسي : ان الشيخ ابن تيمية قال لغازان ، وترجمانه يترجم كلام الشيخ : أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وامام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا وبلغت بلادنا ، على ماذا ؟ وابوك وجدك كانا كافرين . وما غزوا بلاد الاسلام بعد أن عاهدونا ، وأنت عاهدت فغدرت . وقلت فما وفيت . وجرت لابن تيمية مع غازان امور قام بها ابن تيمية كلها لله ، وقال الحق ولم يخش الا الله عز وجل .

ثم قرب غازان الى الوفد طعاما فأكلوا الا ابن تيمية ، فقليل له الا تأكل ؟ فقال : كيف أكل من طعامكم وكله ما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟

وغازان مصغ لما يقول الشيخ ، شاخص اليه لا يعرض عنه . وان غازان من شدة ما اوقع في قلبه من الهيبة والمحبة سأل : من هذا الشيخ ؟ اني لم أر مثله ولا أثبت قلبا منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعظم انقيادا لأحد منه . فأخبر بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل . ثم طلب منه غازان الدعاء . فأخذ ابن تيمية يدعو فقال :

اللهم ان كان عبدك هذا انما يقاتل لتكون كلمتك العليا ، وليكون الدين كله لك . فانصره وأيده . وملكه البلاد والعباد ، وان كان قد قام رياء وسمعة وطلباً للدنيا . ولتكون كلمته هي العليا ، وليذل الاسلام وأهله . فخذة وزلزه ودمره واقطع دابره . وغازان يؤمن على دعائه ، ويرفع يديه . قال البالسي : فجعلنا نجتمع ثيابنا خوفاً من أن تتلوث بدم ابن تيمية اذا أمر بقتله . فلما خرجنا من عنده قال قاضي القضاة نجم الدين وغيره : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك ، والله لا نصحبك من هنا ، فقال : واني والله لا أصحبكم . قال البالسي : فانطلقوا عصبية وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من اصحابه . فتسامعت به الخواتين والأمراء أصحاب غازان ، فأتوه يتبركون بدعائه ، وهو سائر الى دمشق ، والله ما وصل الى دمشق الا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه ، وكنت أنا من جملة من كان معه . واما اولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتار فشلحوهم (اي سلبوهم ثيابهم وما معهم) (١٩٢) .

١٧ - ومن هذه المواقف موقف الامام ابي حامد الغزالي من السلطان «سنجربن ملك شاه» السلجوقي الذي كان يحكم خراسان ، فقد قال له مرة :

« أسفا ! ان رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب ، ورقاب خيلك كادت تنقض بالاطواق الذهبية » (١٩٣) .

١٨ - ومن هذه المواقف الموقف الذي وقفه الاستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمين ، من جمال عبد الناصر ، رئيس الحكومة المصرية ، في عام ١٩٥٤ ، حيث تأزمت الامور، وامتألت مصر بالشائعات ، وكممت الافواه ، وخنقت الحريات ، وانتشر الظلم والعدوان ، فبعث الاستاذ حسن الهضيبي خطابا الى الرئيس المذكور يأمره بالمعروف وينهاه عن الفساد والافساد ، وهذا نصه :

(١٩٢) ذكره البدرى في « الاسلام بين العلماء والحكام » ص ٧٨ ، ٧٩ نقلا عن البداية والنهاية وعن مختصر منهاج السنة للذهبي .
(١٩٣) نقله عن رسائل الغزالي بالفارسية ابو الحسن الندوي في « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » ص ٢٠٨ .

(السيد جمال عبد الناصر رئيس مجلس الوزراء • السلام عليكم
ورحمة الله وبركاته أما بعد :

فاني ما زلت أحييك بتحية الاسلام ، وأقرئك السلام ، وما زلت
ترد على التحية بالشتائم واتهام السرائر ، واختلاق الوقائع ، واخفاء
الحقائق والكلام المعاد الذي سبق لكم قوله والاعتذار عنه • وليس ذلك
من أدب الاسلام ولا من شيم الكرام • ولست أطمع في نصحك بان تلزم
الحق ، فذلك أمر عسير ، وأنت حر في أن تلقى الله تعالى على ما تريد أن
تلقاه عليه • ولكنني أريد أن أبصرك بأن هذه الأمة قد ضاقت بخنق
حريتها وكتم أنفاسها ، وانها بحاجة الى بصيص من نور يجعلها تؤمن
بانكم تسلكون بها سبل الخير ، وأن غيركم يسلكون بها سبل الشر والهدم
والتدمير الى آخر ما تنسبون اليهم •

ان الأمة في حاجة الآن الى القوت الضروري ، القوت الذي يزيل عن
نفسها الهم والغم والكرب • انها في حاجة الى حرية القول • فمهما قلتم :
انكم أغدقتم عليها من خير ، فانها لن تصدق الا اذا سمحتم لها بأن تقول
أين الخير وسمحتم لها أن تراه ، ومهما قلتكم انكم تحكمونها حكما
ديمقراطيا ، فانها لن تصدق ، لانها محرومة من نعمة الكلام والتعبير
عن الرأي •

واذا حققتم ذلك ، فاننا نعدكم بأن نذكر الحقائق ولا نخاف من
نشرها ، ونصدق القول ، ولا نشوبه بالكذب والبهتان والاختلاق ،
ولا ننتهم لكم سريرة ولا نبادلكم فيما تضررون وتدخلون في أنفسكم ،
ولا نجاري بعض وزراءك فيما يكتبون من غثاثة واسفاف • وانما نعدكم
— كما هو شأننا — بأن نناقش المسائل مناقشة موضوعية على ما تعطيه
الوقائع التي ترضونها أو تصدر عنكم • أما أن تعطوا أنفسكم الحق
في الكلام وتحرموا الناس منه ، واما ان تفرضوا آراءكم بالسلاح على
الأمة فشيء لا يعقله الناس ، ولا ترضاه الأمة •

أيها السيد : ان الأمة قد ضاقت بحرمانها من حريتها ، فأعيدوا اليها حقها في الحياة . اذا كان الغضب على الهضيبي وعلى الاخوان المسلمين قد أخذ منكم كل مأخذ ، فلکم الحق أن تغضبوا ، وهذا شأنكم ، ولكن لا حق لكم في أن تعرضوا الناس على الاخوان المسلمين وتغروهم بهم ، وليس ذلك من كياسة رؤساء الوزارات في شيء فانه قد يؤدي الى شر مستطير وبلاء كبير ، ومن واجبكم أن تحافظوا على الناس مخطئهم ومصيبهم ، وأن تجمعوا شمل الأمة على كلمة سواء . وانكم لا شك تعلمون ان الاخوان المسلمين حملة عقيدة ليس من الهين ان يتركوها ولا أن يتركوا الدفاع عنها ما وجدوا الى الدفاع سبيلا ، فاغراء بعض الأمة بهم وتحريضهم عليهم من الامور التي لا تؤمن عواقبها .

وانني أؤكد لكم أن في وسعك أن تمشي ليلا او نهارا وحدك بلا حراس وفي اي مكان دون ان تخشى ان تمتد اليك يد احد من الاخوان المسلمين بما تكره . أما أن يمد انصارك أيديهم بالسوء اليهم ، استجابة الى اغرائك فان مسؤوليتك عند الله عظيمة .

ولعل الذي حملك على العداوة والبغضاء للاخوان المسلمين هو انهم عارضوا المعاهدة ، فالاخوان المسلمون لن يؤمنوا بها دون أن تناقش في برلمان منتخب انتخابا حرا يمثل الأمة أكمل تمثيل .

وخير لكم وللأمة الا تخدعوا انفسكم عن الحقائق ، فان الأمة قد بلغت من حسن الرأي ومن النضج مبلغا يسمح لها بأن لا يتصرف أحد في شؤونها دون الرجوع اليها والاخذ برأيها ، والسلام عليكم) (١٩٤) .

تعقيب :

ان المتدبر لتلك المواقف التي ذكرناها ، وأمثالها كثير جدا ، يستطيع أن يدرك أمرين مهمين :

(١٩٤) انظر مجلة الدعوة ، العدد السابع ، السنة السادسة والعشرون ، غرة المحرم ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٦ م
ص ١٤ ، ٢٥ .

الاول : ان الخلفاء المسلمين ، وحكامهم الذين كانوا قبل القضاء على الخلافة الاسلامية ممن عاصروا اولئك العلماء الابرار ، لم يكونوا بكرهون الاسلام ، ولا كانوا يبغون عنه بديلا ، ولا كانوا يتولون كافرا يظاهرونه على شعوبهم ، ولم يحاولوا يوما من الايام تغيير أحكام الشرع ، او تبديل حكم من احكام الاسلام ، او استبدال نظام من أنظمتة الربانية ، بنظام دخيل صنعته أهواء البشر .

بل كانوا يطبقون شرع الله ، ويأخذون المسلمين بأنظمتة وحدوده ، ويعنون الحرب على أعدائه ، وينشرون دعوة الله في الارض ، ويدافعون عن ديار الاسلام ولا يفرطون بشيء من أراضيها أو أهلها .

ولذلك فانك لاحظت أنهم كانوا يحسبون لعلماء المسلمين حسابا وكانت كلمات اولئك تؤثر في قلوبهم في كثير من الاحيان . بل تراهم أحيانا يقصدون العلماء بأنفسهم ، ليروا من خلالهم مقدار قربهم أو بعدهم من الله تعالى ودينه ، وكل ذلك يدل على أن حرارة الايمان لم تخمد في صدور اولئك الحكام ، ولا ماتت بذرتة .

بل انك تلاحظ خوف كثير منهم من الله عز وجل واليوم الآخر والعذاب بعد الذكرى التي كانوا يسمعونها من اولئك العلماء . وان العبد اذا انتفع بالذكرى فتلك علامة الايمان ، كما قال الله تبارك وتعالى : (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) (١٩٥) .

ولكن بعض اولئك الحكام وقع منهم انحرافات واساءات ، وخذعتهم الدنيا بعض الشيء ، فاتبعوا أهواءهم في بعض الامور ، حرصا على الحكم والسلطان ، وان فتنة السلطان من أعظم الفتن التي يبتلى بها المؤمنون . فكان من اولئك مظالم وسيئات ، استفزت حفيظة حراس دين الله في الارض ، وهم العلماء فوققوا لهم يصوبونهم ، ويسددونهم وينذرونهم ، باللين حيناً وبالشدّة حيناً آخر .

الامر الثاني : ان علماء السلف ، في جملتهم ، لم يتهاونوا فيما كانوا يرون من انحراف الحكام ، وخروجهم عن سوي الصراط . ولم يكونوا ينتظرون حتى يخرج أولئك الحكام من دين الله عز وجل ، أو حتى يستشري الفساد في الارض . بل كانوا يقفون امام كل انحراف ، وكل ظلم ، واي فساد يصدر عن الحكام . خوفا من اتساع الخرق وازدياد الانحرافات ، وتفشي الفساد . وقد كان لصنيعهم هذا أجل الاثر في بقاء دولة الاسلام تلك القرون المتطاولة ، باذن الله سبحانه وتعالى ، وجعل كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وبقاء هيبة الاسلام في قلوب الحكام أنفسهم .

ولو أنهم تقاعسوا عن الجهر بالحق في أول الامر ، وسكتوا عن اساءات الحكام لماتت قلوبهم ، وهان عليهم دين الله ، وسقطت هيبة العلماء من نفوسهم ، وهو ما حدث في العصور الاسلامية المتأخرة ، حيث كان الخرق يتسع بقدر ما يتغلى العلماء عن واجبهم ، حتى تمزقت دولة المسلمين على أيدي أعدائهم ووزعت أشلاء تلك الدولة الممزقة على أمراء لا يهمهم أمر الاسلام ، ولا امر المسلمين . وانما كان سعيهم وكدهم ونضالهم ، دائما من اجل بقاء حكمهم وسلطانهم ، وهنا وقع الناس في بلاء عظيم ، وأصابتهم أم المصائب ، وحرموا من العيش في ظلال الاسلام وأحكامه ومناهجه واخلاقه . وهي محنة لا ينقذهم منها مجرد كلمة حق عند سلطان جائر ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وان ظلت هذه الكلمة أفضل الجهاد عند الله تعالى ، كما أخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام .

ذلك انه عندما يوصد الحكام ابوابهم أمام العلماء ، ولا يمكنون احدا من أهل العلم من تذكيرهم ، كالذين استغشوا ثيابهم ، وهم يستكبرون . وعندما يغدو ذكر الله عز وجل واليوم الآخر لا يحدث في قلوب الحكام أي أثر . وعندما تتعطل أجهزة الاستقبال عند الحكام ، فلا تستقبل الا ما يرضي غرورهم واستكبارهم في الارض . وعندما يتولى الحكام أعداء الله وأعداء الاسلام من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار فيغدون

عمالا لهم ، لا لله ، ولا لعباده المسلمين • وعندما تصبح خطة الحكام قائمة على ابعاد الناس عن دينهم تحت شعارات مختلفة ويصبح حكمهم يقوم على الامر بالمنكر وانكار المعروف ...

في مثل هذه الحالة لا ينفع في مثل هؤلاء الحكام الشاردين عن هدى الله عز وجل مجرد الامر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان ، لان قلوبهم غدت مقفلة بأقفال الهوى ، فلن يسمعو من أحد كلمة حق ، وان سمعوها صدفه او كرها تولوا وهم معرضون ، فان الذي تنفعه الذكرى من يستمع بقلب واع قاصد للخير ، وقد قال الله تبارك وتعالى : (انما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى بيعتهم الله ثم اليه يرجعون) (١٩٦) •

وقال عز وجل : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وان يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) (١٩٧) •

ومن هنا نعود لنؤكد مرة أخرى انه ليس امام المؤمنين الصادقين ، في مثل تلك الحالة ، الا ان يعملوا مجتمعين لاقضاء الحكام الظالمين عن مراكز القيادة وتسليمها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا ، والذين اذا مكنهم الله العلي القدير في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر •

فاذا عادت المياه الى مجاريها ، ورد الامر الى أهله ، واستلم الزمام أناس تنفعهم الذكرى ، كان على العلماء أن يساعدوهم على حمل الامانة ويصوبوهم اذا وقعوا في الخطأ ، او مال بهم الهوى •

• (١٩٦) الانعام - الآية ٣٦

• (١٩٧) الاعراف - الآية ١٤٦ •

خاتمة

ضرورة الجهاد بجميع انواعه

يتضح مما تقدم من الابحاث السابقة ان الجهاد بمعناه العام الشامل هو في حقيقته الجانب العملي الحركي من الاسلام .

وان لكل نوع من انواعه ، وميدان من ميادينه ، ثغرة خاصة من ثغرات الدعوة الاسلامية يحميها ، وهدفا خاصا يحققه .

وان هذه الانواع في مجموعها متكاملة ، يقود بعضها الى بعض ، وكل واحد منها مشروع لتحقيق الهدف الاسمي لدعوة الاسلام ، وهو تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى : في الافراد والجماعات والمجتمعات ، وفي داخل النفس وخارجها .

غير أن كلا منها يتعامل مع صنف خاص من الاعداء الذين يصدون عن تحقيق ذلك الهدف ، فيزيحه من الطريق او يحد من فاعليته ، والكل يلتقي عند جعل العبودية خالصة لله تعالى ، ورفع كلمة الله سبحانه في الارض ، وجعلها هي العليا ، بأن تكون هي المرجع الوحيد للبشرية في جميع نشاطاتها .

ومن هنا كان لكل نوع من تلك الانواع اهميته الخاصة ، وكانت حاجة المؤمنين الى ممارسة كل منها حاجة ماسة .

والمجتمع الذي يسعى لان يكون مجتمعا اسلاميا وربانيا لا بد له ان يجاهد في الله حق جهاده ، كما قال تعالى : (وجاهدوا في الله حق جهاده)^(١) وحق الجهاد هو التصدي لكل عدو يقف أمام دعوة الله ، وممارسة جميع الانواع التي سلف بيانها وتفصيلها من الجهاد ، فان ترك ثغرة من تلك الثغور ، وفسح المجال لعدو من اولئك الاعداء لم يكن مجتمعا اسلاميا خالصا ، وبقدر ما يفوت المجتمع من انواع

(١) الحج - الآية ٧٨ .

الجهاد يبعد عن اتصافه بالربانية ، وعن تحقيق معنى العبودية لله عز وجل .

ولذلك كان حث الشارع على جميع تلك الانواع ، فجاءت النصوص القرآنية والاحاديث النبوية تأمر بكل نوع منها، وتبين فضله وضرورته، والترغيب فيه ، والترهيب من التقاعس عنه ، وقد رأيت جانبا من تلك النصوص .

والواقع أن ارتباط تلك الاشكال الجهادية ، بعضها ببعض ، وثيق جدا ، ولا يعني ما تقدم من التقسيم والتصنيف لها ان بعضها منفصل ومستقل عن بعض ، بل كل شكل منها يتضمن في حقيقته قدرا من الاشكال الاخرى ، او يرتبط بالانواع الاخرى برباط السببية او الشرطية او غيرهما :

– فجهاد النفس هو ، في حقيقته ، اصل تلك الانواع جميعا ، وهي متفرعة عنه ومعتمدة عليه ، فهو بذرتها ، وهو شرطها ، وهو عدتها ، يقول ابن قيم الجوزية : (ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » ، كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج واصلاً له ، فانه مالم يجاهد نفسه اولاً ، لتفعل ما امرت به ، وتترك ما نهيت عنه ، ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج) (٢) .

– واما جهاد الشيطان فهو ضروري للتمكن من جهاد النفس وجهاد اعداء الله في الخارج ، لان الشيطان عدو يثبط الانسان عن جهاد نفسه وجهاد الكفار والمنافقين والفاسقين ، ولا بد للعبد من جهاده والتغلب عليه اذا اراد ان يتغلب على شهوات نفسه ، وعلى كل عدو يصد عن سبيل الله تعالى . يقول ابن القيم بيانا لهذا المعنى بعد ان بين اهمية جهاد النفس وجهاد اعداء الله في خارج الانسان :

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٨ .

(وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما الا بجهاده ، وهو واقف بينهما
يثببط العبد عن جهادهما ، ويخذله ويرجف به ، ولا يزال يخيل له ما في
جهادهما من المشاق وترك الحظوظ ، وفوت اللذات والمشتريات ، ولا
يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين الا بجهاده ، فكان جهاده هو الاصل
وهو الشيطان ، قال تعالى : « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا »
والامر باتخاذ عدوا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته
ومجاهدته (٠٠٠) (٣) .

— واما جهاد الكفار والمنافقين وأهل المنكر فهو مشتمل على جميع
أنواع الجهاد ، لانه جهاد النفس على التضحية باللذة العاجلة في سبيل
السعادة الابدية ، وهو في حقيقته مشتمل على جميع انواع العبادات
الباطنة والظاهرة ، فهو مشتمل على محبة الله عز وجل ، والاخلاص له
والتوكل عليه ، وتسليم النفس والمال له سبحانه والصبر والزهد
غيرها (٤) . وكذلك فانه جهاد للشيطان الذي يزين القعود ويمني
بالسلامة العاجلة .

الا انه من الجدير بالذكر ان هذا لا يعني تساوي الجهاد واشكاله
من حيث الاجر والفضل عند الله تعالى . ومن حيث القيمة في ميزانه
سبحانه يوم ينصبه لوزن اعمال العباد .

والمعيار ، كما تشير اليه بعض الآيات والاحاديث ، في بيان قيمة جهاد
المؤمن عند الله تعالى ، هو مقدار التضحية التي يقدمها بجهاده في سبيل
الله تعالى : فما كان أشد تضحية كان أفضل عند الله عز وجل ، وأثقل
في ميزانه سبحانه لدلالته على قوة الايمان بالله . وشدة الثقة بما عنده .

ولا شك في ان التضحية بالنفس هي أعلى انواع التضحية وأكرمها
عند البارئ تبارك وتعالى ، اذ أثمن ما يملك العبد نفسه ، وهي اصل
كل ثمين ، ومرجع كل لذة في هذه الحياة الدنيا . فمن ضحى بها فقد

(٣) المرجع السابق .

(٤) السيادة الشرعية لابن تيمية ص ١١٨ .

نذل كل ما يملك ، ولم يستبق لنفسه شيئاً ، وانما قدمه في سبيل ربه ،
فان كانت نيته خالصة لله تعالى ، كان أكرم الشهداء عند رب العباد .

ولذلك قال الله تعالى : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي
الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين
على القاعدین أجراً عظيماً) (٥) .

وقال عز وجل : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن
آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، لا يستوون عند الله ، والله
لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله
بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) (٦) .

ولذلك فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهاد بالنفس على
الحج ، وجعله بعد الايمان (٧) . ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه سئل : أي الاعمال أفضل ؟ قال : ايمان بالله ورسوله ، ثم
جهاد في سبيله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : ثم حج مبرور . وقد روى الامام
مسلم في صحيحه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : (رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من ضياع شهر
وقيامه ، ومن مات مرابطاً مات مجاهداً ، وأجري عليه رزقه من الجنة ،
وأمن الفتان) وقد قال ابو هريرة رضي الله عنه : لان ارتباط ليلة في
سبيل الله أحب الي من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الاسود (٨) .

ولذلك أجمع العلماء على أن المقام في ثغور المسلمين أفضل من
المجاورة في المساجد الثلاثة (٩) ، لان الرباط ، هو في الواقع ، نوع من
التضحية بالنفس او استعداد لها .

(٥) النساء - الآية ٩٥ .
(٦) التوبة - الآيتان ١٩ ، ٢٠ .
(٧) فتح القدير ج٤ ص ٢٧٧ .
(٨) ذكر هذه الاحاديث والاعبار ابن تيمية في مجموع الفتاوى - المجلد الثامن والعشرون ص ٥ ، ٦ ، وكلها
احاديث صحيحة كما ذكر .
(٩) المرجع السابق .

ولهذا السبب نفسه أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام ان من أعلى مراتب الجهاد قول الحق أمام أهل الجور من الحكام ، لما في ذلك من تعريض النفس للخطر .

كذلك فان هذا يفسر ذلك الترتيب الذي ذكره الرسول عليه الصلاة والسلام في حديثه الشريف : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان) ، فان في الرتبة الاولى تضحية أشد من الرتب الاخرى ، ويخف هذا في الجهاد باللسان ، ثم في الجهاد بالقلب ، ولذلك كان اضعف الايمان . ولكن كون الجهاد بالقلب أضعف الايمان ، وأدنى مراتب الجهاد لا يعني انه ليس ضروريا ، بل هو ضروري ، لانه الحد الفاصل بين الايمان والكفر كما تقدم ، فالقلب اذا لم يعرف المعروف ولم يحب أهله ، ولم يكره المنكر ولا أهله فسد ، وربما آل به الامر الى حب المنكر وكره المعروف والخير ، وهذا عنوان الكفر والعياذ بالله تعالى .

الجهاد مادة الابتلاء لمعرفة الصادقين :

ولتعلم ، أيها الاخ القاريء ، ان الله عز وجل هو العزيز الجبار الذي لا يعجزه احد من مخلوقاته ، وانه لو شاء لانتقم من أولئك الاعداء ، او لأجبرهم على السير في دروب الهدى ، كما قال سبحانه : (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين) (١٠) .

ولكن الله عز وجل ابتلى الذين يدعون الايمان ، ومحبة الله عز وجل وتقديمها على محبة غيره ، بهؤلاء الاعداء ، وسلطها عليهم امتحانا لهم وابتلاء . ولكنه سبحانه لم يترك عباده عزلا من السلاح ، وانما اعطاهم مددا وعدة واعوانا وسلاحا لهذا الجهاد ، كما اعطى اعداءه مددا وعدة واعوانا وسلاحا ، وبلا احد الفريقين بالآخر وجعل بعضهم لبعض فتنة ليلبوا أخبارهم ، ويمتنح من يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه (١١) .

(١٠) الانعام - الآية ٣٥ .

(١١) انظر : زاد المعاد ج ٢ ص ٢٨ .

ولقد أشار الله تعالى الى هذا المعنى في كثير من الآيات الكريمة ، من ذلك قوله تعالى : (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا) (١٢) ، وقوله تعالى : (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض) (١٣) .

وأعطى الله عباده الاسماع والابصار والعقول والقوى ، وأنزل عليهم كتبه ، وارسل اليهم رسله ، وأمدهم بملائكته ، وأمدهم بالهدى في العقائد والاقوال والاعمال والمناهج والاحكام .

الابتلاء سنة الله في عباده :

والواقع أن الابتلاء هو سنة الله في خلقه ، سواء في ذلك مؤمنهم وكافرهم ، وبرهم وفاجرهم قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن) (١٤) ، وقال ايضا : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر او مجنون ، أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون) (١٥) ، وقال عز وجل : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين) (١٦) ، وقال : (أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، الا ان نصر الله قريب) (١٧) ، وتدبر هذه الآيات من سورة العنكبوت .

(ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا : آمنا ، وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين . أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ، ساء ما يحكمون . من كان يرجو لقاء الله فان اجل الله لآت ، وهو السميع العليم .

(١٢) الفرقان - الآية ٢٠ .

(١٣) محمد - الآية ٤ .

(١٤) الانعام - الآية ١١٢ .

(١٥) الذاريات - الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

(١٦) الانعام - الآية ٥٣ .

(١٧) البقرة - الآية ٢١٤ .

ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ، ان الله لغني عن العالمين • والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم احسن الذي كانوا يعملون •••) الى قوله تعالى : (ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فاذا اوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصر من ربك ليقولن : انا كنا معكم ، أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) (١٨) •

يقول ابن قيم الجوزية ، رحمه الله تعالى ، في ظلال تلك الآيات الكريمات : (فليتأمل العبد سياق هذه الآيات ، وما تضمنته من العبر ، وكنوز الحكم : فان الناس اذا ارسل اليهم الرسل بين أمرين : اما ان يقول أحدهم : آمنا ، واما أن لا يقول ذلك ، بل يستمر على السيئات والكفر • فمن قال : آمنا ، امتحنه ربه وابتلاه وفتنه • والفتنة الابتلاء والاختبار ليتبين الصادق من الكاذب • ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه ، فانه انما يطوي المراحل في يديه •

وكيف يفر المرء عنه بذنبه اذا كان يطوي في يديه المراحل فمن آمن بالرسول وأطاعهم عاداه أعداؤهم ، وآذوه ، فابتلى بما يؤله • وان لم يؤمن بهم ولم يطعهم عوقب في الدنيا والآخرة ، فحصل له ما يؤله ، وكان هذا المؤلم أعظم وأدوم من ألم اتباعهم ، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت ، او رغبت عن الايمان • لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ، ثم يكون له العاقبة في الدنيا والآخرة • والمعرض عن الايمان يحصل له اللذة ابتداء ، ثم يصير في الألم الدائم • وسئل الشافعي رحمه الله : أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى ؟ فقال : لا يمكن حتى يبتلى • والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل فلما صبروا مكنهم • فلا يظن أحد انه يخلص من الألم البتة ، وانما تفاوت أهل الآلام في العقول ، فأعقلهم من باع ألما مستمرا عظيما بألم منقطع يسير ، وأشقاها من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر • فان قيل : كيف يختار العاقل هذا ؟ قيل : الحامل له على هذا النقد والنسيئة ، والنفس

موكلة بالعاجل « كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة » (١٩) « ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا » (٢٠) . وهذا يحصل لكل أحد ، فان الانسان مدني بالطبع ، لا بد له أن يعيش مع الناس ، والناس لهم ارادات وتصورات ، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ، وان لم يوافقهم آذوه وعذوبه ، وان وافقهم حصل له الأذى والعذاب ، تارة منهم وتارة من غيرهم ، كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة ، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم الا بموافقتهم لهم او سكوتهم عنهم ، فان وافقهم او سكت عنهم ، سلم من شرهم في الابتداء ، ثم يتسلطون عليه بالاهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو انكر عليهم وخالفهم . وان سلم منهم فلا بد ان يهان على يد غيرهم ، فالحزم كل الحزم في الاخذ بما قالت أم المؤمنين لمعاوية : « ومن ارضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن ارضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئا » ومن تأمل أحوال العالم رأى هذا كثيرا فيمن يعين الرؤساء على اغراضهم الفاسدة ، وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم ، هربا من عقوبتهم ، فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه امتنع عن الموافقة على فعل المحرم وصبر على عداوتهم ثم يكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، كما كانت للرسول وأتباعهم كالمهاجرين والانصار ، ومن ابتلي من العلماء والعباد وصالحى الولاة والتجار وغيرهم .

ولما كان الألم لا محيص منه البتة عزى سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله « من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم » فضرب لمدة هذا الألم أجلا لا بد أن يأتي وهو يوم لقائه ، فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله وفي مرضاته ، ويكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله والله ، وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه ليحمل العبد اشتياقه الى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل ، بل ربما غيبه الشوق

(١٩) القيامة - الآيات ٢٠ ، ٢١ .

(٢٠) الانسان - الآية ٢٧ .

الى لقاءه عن شهود الألم والاحساس به ، ولهذا سأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه الشوق الى لقاءه ، فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان « اللهم اني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق احيني اذا كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ، وأسألك القصد في الفقر والغنى . وأسألك نعيما لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر الى وجهك ، وأسألك الشوق الى لقاءك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الايمان ، واجعلنا هداة مهتدين » .

فالشوق يحمل المشتاق على الجد في السير الى محبوبه ويقرب عليه الطريق ويطوي له البعد ، ويهون عليه الآلام والمشاق ، وهو من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عبده . ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال هما السبب الذي تنال به ، والله سبحانه سميع لتلك الاقوال عليم بتلك الافعال ، وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ويشكرها ويعرف قدرها ، ويحب المنعم عليه ، فيضع عنده النعمة كما قال تعالى : « وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين » ، فاذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه ، فليقرأ على نفسه « أليس الله بأعلم بالشاكرين » ، ثم عزاهم تعالى بعزاء آخر ، وهو أن جهادهم فيه انما هو لأنفسهم ، وثمرته عائدة عليهم ، وأنه غني عن العالمين ، ومصلحة هذا الجهاد ترجع اليهم لا اليه سبحانه ، ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وايمانهم في زمرة الصالحين .

ثم أخبر عن حال الداخل في الايمان بلا بصيرة ، وانه اذا أُوذِيَ في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، وهي أذاهم له ، ونيلهم اياه بالمكروه والألم الذي لا بد أن يناله الرسل واتباعهم ممن خالفهم ، جعل ذلك في فراره منهم وتركه الألم الذي ناله كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون

بالايمان • فالؤمنون ، لكمال بصيرتهم ، فروا من ألم عذاب الله الى الايمان ، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب • وهذا لضعف بصيرته فر من ألم عذاب أعداء الرسل الى موافقتهم ومتابعتهم ، ففر من ألم عذابهم الى ألم عذاب الله ، فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله ، فغبن كل الغبن اذ استجار من الرمضاء بالنار ، وفر من ألم ساعة الى ألم الأبد ...

والمقصود ان الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته انه لا بد ان يمتحن النفوس ويبتليها ، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها ، ومن يصلح لموالاته وكراماته ، ومن لا يصلح ، وليمحص النفوس التي تصلح له ، ويخلصها بكير الامتحان كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه الا بالامتحان ، اذ النفس في الاصل جاهلة ظالمة ، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه الى السبك والتصفية ، فان خرج في هذه الدار ، والا ففى كير جهنم ، فاذا هذب العبد ونقي أذن له في دخول الجنة (٢١) •

مراتب الناس حسب جهادهم :

ولما كان الجهاد هو الحجة والبرهان على صدق الايمان ، كانت منازل الناس عند ربهم في الدنيا والآخرة ، حسب ما يقومون به من جهاد ، وما يقدمونه من تضحيات فمن حاز قصب السبق منه ، وجب على المجتمع المسلم ان يرفعه ويكرمه ، ومن فترت همته عنه لم يجز تسويته بالمجاهدين •

فالجهاد قيمة عليا من القيم التي يتعامل بها المجتمع المسلم ، وانما كان العلم والتقوى من تلك القيم ايضا ، لانها انواع من الجهاد ، لما في العلم من دوافع لنجهاد ، ومعرفة طريقه ، والتثبيت عليه ، ولما في التقوى من جهاد النفس والزامها بطاعة الله ، وترك نواهيه سبحانه ، وكذلك

فان العلم والتقوى ثمرة من ثمار الجهاد في سبيل الله تعالى ، قال عز وجل :
(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (٢٢) •

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق وأكملهم عند
الله لانه كمل مراتب الجهاد كلها ، وجاهد في الله حق جهاده من حين بعث
الى أن توفاه الله ، وجاهد بقلبه وجنانه ، ودعوته وبيانه ، وسيفه
وسنانه ، وكانت ساعاته وأيامه وعمره موقوفة جميعها على الجهاد •

واذا كان المسلم لا يمكنه أن يصل الى تلك الرتبة العليا ، فينبغي أن
يسير نحوها ، وان يحاول ان يقترب منها ، وأن يأخذ من تلك المراتب
الجهادية قسطا وافرا حتى يكون ممثلا لقول الله تعالى : (وجاهدوا في
الله حق جهاده) ، وحق الجهاد كما علمت ان يستعمل العبد جميع ما
أوتي من طاقة في جهاد نفسه وشيطانه وأهل الكفر والنفاق والمنكر في
الارض •

وأخيرا نسأل الله ربنا ورب كل شيء أن يجعلنا من المجاهدين ، وأن
يرزقنا الشهادة في سبيله ، ونشكره سبحانه على ما يسر لنا ، وندعوه
أن ينفع به •

• والحمد لله رب العالمين •

فهرس المراجع

- ١ - الاحكام السلطانية ، ابو يعلى محمد بن الحسين ، الفراء الحنبلي ، مطبعة البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٨٦ / ١٩٦٦ م .
- ٢ - الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الاولى ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .
- ٣ - الاحكام في أصول الاحكام ، ابن حزم الظاهري ، مطبعة الامام .
- ٤ - أحكام القرآن ، ابو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الثانية .
- ٥ - أحكام القرآن ، ابو بكر احمد بن علي الرازي الجصاص ، المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٧ هـ .
- ٦ - احكام القرآن ، ابو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي ، كتب هوامشه الشيخ عبد الغني عبد الخالق ، نشر مكتب الثقافة الاسلامية ، الطبعة الاولى .
- ٧ - احياء علوم الدين ، الامام ابو حامد الغزالي ، دار الشعب بالقاهرة .
- ٨ - أخبار عمر ، علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ، مطابع دار الفكر بدمشق ، الطبعة الاولى ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .
- ٩ - الارشاد في قواطع الادلة في أصول الاعتقاد ، امام الحرمين الجويني .
- ١٠ - أساس البلاغة ، الزمخشري ، مطابع الشعب ، سنة ١٩٦٠ م .
- ١١ - الاسلام بين العلماء والحكام ، عبد العزيز البديري ، منشورات المكتبة العلمية / المدينة سنة ١٩٦٦ م .
- ١٢ - أعلام الموقعين عن رب العالمين ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي بكر ، المعروف بابن قيم الجوزية ، شركة الطباعة الفينسية المتحدة ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- ١٣ - اقتضاء العلم العمل ، ابو بكر الخطيب البغدادي ، تحقيق : محمد ناصر الدين الالباني ، المطبعة العمومية بدمشق ، مطبوع مع ثلاث رسائل أخرى .
- ١٤ - الام ، الشافعي ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، سنة ١٣٢١ هـ .

- ١٥- الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ابو بكر احمد بن محمد هارون الخلال ،
دراسة وتحقيق عبد القادر احمد عطا ، دار الاعتصام ، الطبعة الاولى ١٣٩٥ هـ /
١٩٧٥ م .
- ١٦- آيات الجهاد في القرآن الكريم ، الدكتور كامل الدقس ، دار البيان ، الكويت
١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .
- ١٧- أيها الولد ، ابو حامد الغزالي ، مطبعة المعارف ، بغداد .
- ١٨- سستان العارفين ، الشيخ نصر بن محمد بن ابراهيم السمرقندي ، مطبعة مصطفى
البابي الحلبي ، مطبوع مع تنبيه الغافلين لنفس المؤلف .
- ١٩- تاج العروس ، الزبيدي ، دار ليبيا للنشر والتوزيع .
- ٢٠- تذكرة الحفاظ ، الامام ابو عبد الله الذهبي ، دار احياء التراث العربي .
- ٢١- الترغيب والترهيب ، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ، مصطفى البابي الحلبي
الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- ٢٢- تفسير ابن كثير ، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي ، دار احياء
الكتب العربية .
- ٢٣- تفسير الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق محمود محمد شاكر ،
دار المعارف بمصر .
- ٢٤- تفسير القاسمي ، محمد جمال الدين القاسمي ، دار احياء الكتب العربية الطبعة
الاولى .
- ٢٥- تفسير القرطبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد القرطبي ، دار الكتاب العربي -
القاهرة ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ٢٦- تفسير مجاهد ، مجاهد بن جبر التابعي ، تحقيق عبد الرحمن الطاهر السورتى ،
مطابع الدوحة الحديثة .
- ٢٧- التلخيص الحبير ، احمد بن حجر العسقلاني ، شركة الطباعة الفنية ، ١٣٨٤ هـ /
١٩٦٤ م .
- ٢٨- تنبيه الغافلين ، ابو الليث نصر بن محمد بن ابراهيم السمرقندي ، مصطفى
البابي الحلبي بمصر .
- ٢٩- جاهلية القرن العشرين ، محمد قطب .

- ٣٠- جمع الفوائد من جامع الاصول ومجمع الزوائد ، محمد بن محمد بن سليمان ، طبع سنة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .
- ٣١- الجهاد في الاسلام ، محمد شديد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- ٣٢- الجهاد في سبيل الله ، ابو الاعلى المودودي ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م .
- ٣٣- حاشية ابن عابدين ، محمد امين المعروف بابن عابدين ، المطبعة العثمانية دار السعادة .
- ٣٤- حاشية الصاوي على الشرح الصغير ، احمد بن محمد الصاوي المالكي ، مطبوعة بهامش الشرح الصغير ، طبعة دار المعارف بمصر .
- ٣٥- الحسبة في الاسلام ، شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية ، من مطبوعات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة .
- ٣٦- الحضارة الاسلامية ، ابو الاعلى المودودي ، الدار العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية .
- ٣٧- حياة الصحابة رضي الله عنهم ، محمد يوسف الكاند هلوي ، دار النصر للطباعة القاهرة ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
- ٣٨- الخلق الكامل ، محمد احمد جاد المولى ، مطبعة حجازي ، الطبعة الاولى ، ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م .
- ٣٩- دراسة في السيرة ، الدكتور عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة - دار النفائس ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .
- ٤٠- الدعوة الاسلامية فريضة شرعية وضرورة شريفة ، الدكتور صادق أمين ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان - ١٩٧٦ م .
- ٤١- دليل الفالحين بطرق رياض الصالحين ، محمد بن علان الصديقي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م .
- ٤٢- رجال الدعوة والفكر في الاسلام ، ابو الحسن الندوي ، مطبعة جامعة دمشق ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .
- ٤٣- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، محيي الدين يحيى بن شرف النووي ، المطبعة اليوسفية - مصر .
- ٤٤- زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ، محمد حبيب الله الشنقيطي ، مؤسسة الحلبي وشركاه .

- ٤٥- زاد المسير في علم التفسير ، ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
- ٤٦- زاد المعاد في هدى خير العباد محمد صلى الله عليه وسلم ، ابن الجوزية ، المطبعة المصرية ، ١٣٧٩ هـ .
- ٤٧- الزواجر عن اقتراف الكبائر ، ابن حجر المكي المعروف بابن حجر الهيتمي ، المطبعة المصرية ببولاق .
- ٤٨- سنن ابي داود ، للإمام ابو داود سليمان بن الاشعث ، الطبعة الاولى - الحلبي ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .
- ٤٩- سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي ، ابو عبد الرحمن احمد بن شعيب النسائي ، المطبعة المصرية بالازهر ، الطبعة الاولى ، ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م .
- ٥٠- السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية ، ابن تيمية ، مؤسسة مكة للطباعة والاعلام ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .
- ٥١- سيرة ابن هشام (سيرة النبي صلى الله عليه وسلم) ، ابو محمد عبد الملك بن هشام ، كتاب التحرير - القاهرة ١٣٨٣ هـ .
- ٥٢- سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، محمد عزة دروزة ، مطبعة الاستقامة - القاهرة ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .
- ٥٣- السيرة الحلبية ، علي بن برهان الدين الحلبي ، مطبعة البابي الحلبي ، الطبعة الاولى ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
- ٥٤- السيرة النبوية ، ابو الفداء اسماعيل بن كثير ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٤ م .
- ٥٥- شرح العقيدة الطحاوية ، تحقيق ومراجعة جماعة من العلماء ، المكتب الاسلامي الطبعة الرابعة - ١٣٩١ هـ .
- ٥٦- شرح العناية على الهداية ، اكمل الدين محمد بن محمود البابر تي ، مطبوع مع فتح القدير ، مطبعة مصطفى محمد - مصر .
- ٥٧- شرح قصيدة ابن القيم ، احمد بن ابراهيم بن عيسى الشرقي ، المكتب الاسلامي الطبعة الاولى ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م .
- ٥٨- الشرح الدولي في الاسلام ، نجيب الارمنازي ، مطبعة ابن زيدون ١٣٤٩ هـ .

- ٥٩- الصارم المسلول على شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ابن تيمية ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الاولى ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .
- ٦٠- صحيح البخاري بشرح ابن حجر ، محمد بن اسماعيل البخاري ، انظر فتح الباري .
- ٦١- صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ، ابو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، انظر عارضة الاحوذى .
- ٦٢- صحيح مسلم بشرح النووي ، ابو الحسين مسلم بن الحجاج وصاحب الشرح محيي الدين يحيى بن شرف النووي ، المطبعة المصرية .
- ٦٣- عارضة الاحوذى بشرح صحيح الترمذي ، الامام ابن العربي المالكي ، دار العلم للجميع .
- ٦٤- العبودية ، ابن تيمية .
- ٦٥- العقائد الاسلامية ، السيد سابق ، دار النصر للطباعة ، مصر ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ٦٦- العلاقات الدولية في الاسلام ، الدكتور كامل الدقس ، دار الشروق ، الطبعة الاولى ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .
- ٦٧- عيون الاخبار ، ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، المؤسسة المصرية العامة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .
- ٦٨- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، احمد بن حجر العسقلاني ، المطبعة البهية المصرية .
- ٦٩- فتح القدير شرح الهداية ، الكمال بن الهمام ، مطبعة مصطفى محمد - مصر .
- ٧٠- الفرقان بين اولياء الرحمن واولياء الشيطان ، شيخ الاسلام ابن تيمية ، دار النذير للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
- ٧١- الفصل في الملل والاهواء والنحل ، ابن حزم الظاهري ، مطبعة محمد علي صبيح القاهرة .
- ٧٢- فقه السيرة ، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

- ٧٣- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، عبد الرؤوف المناوي ، الطبعة الاولى ، ١٣٥٦ هـ والطبعة الثانية ، ١٣٩١ هـ .
- ٧٤- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار احياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الخامسة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م .
- ٧٥- قواعد الاحكام في مصالح الايام ، ابو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، دار الشرق للطباعة - القاهرة ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- ٧٦- كتاب الايمان ، الامام ابو عبيد القاسم بن سلام - تحقيق الالباني ، المطبعة العمومية بدمشق ، مطبوع مع ثلاث رسائل اخرى .
- ٧٧- كتاب الكبائر ، شمس الدين الذهبي ، دار احياء التراث العربي - بيروت .
- ٧٨- لسان العرب ، العلامة ابن منظور ، اعداد وتصنيف يوسف خياط ونديسم مرغشلي دار لسان العرب - بيروت .
- ٧٩- المبسوط ، محمد بن احمد شمس الائمة السرخسي ، مطبعة السعادة - مصر .
- ٨٠- مجلة الدعوة ، القاهرة .
- ٨١- مجموع الفتاوى ، شيخ الاسلام ابن تيمية ، مطابع الرياض ، الطبعة الاولى ، ١٣٨٣ هـ .
- ٨٢- المحلى ، ابن حزم الظاهري ، المكتب التجاري للطباعة - بيروت .
- ٨٣- المسائل في أعمال القلوب والجوارح ، الحارث بن اسد المحاسبي - تحقيق عبد القادر عطا ، الطبعة الاولى ١٩٦٩ م .
- ٨٤- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي . احمد بن محمد بن علي الفيومي المطبعة الاميرية - القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٥٦ م .
- ٨٥- معارج القدس في مدارج معرفة النفس ابو حامد الغزالي ، نشر مكتبة الجندي .
- ٨٦- معالم في الطريق ، سيد قطب ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- ٨٧- المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، مطابع الشعب ١٣٧٨ هـ .
- ٨٨- المنار ، محمد رشيد رضا ، دار المنار ، الطبعة الرابعة ، ١٩٥٤ م .
- ٨٩- المغني ، ابو محمد عبد الله بن احمد بن محمد بن قدامة ، مطابع سجل العرب الطبعة الاولى ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

- ٩٠- مغني المحتاج الى معرفة الفاظ المنهاج ، الشيخ محمد الخطيب الشربيني ، طبع
سنة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .
- ٩١- الموطأ ، الامام مالك بن انس ، كتاب الشعب .
- ٩٢- نيل الاوطار ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي
الطبعة الثالثة ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .
- ٩٣- نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ، تأليف مجموعة من المؤلفين ، مؤسسة
الرسالة بيروت ، الطبعة الاولى ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .
- ٩٤- هداية الباري ، عبد الرحيم عنبر المصري ، شركة مطبعة الرغائب ، الطبعة
الثانية ١٣٤٠ هـ .

فهرس الموضوعات

الصفحة

فاتحة

٣

المبحث الاول

في

جهاد النفس

| | |
|----|----------------------------------|
| ٩ | المنى الاجمالي لجهاد النفس |
| ٩ | ميادين جهاد النفس |
| ١٠ | جهادها على تعلم الهدى |
| ١٢ | جهادها على العمل والالتزام |
| ١٣ | نصيحة للخطيب البغدادي |
| ١٥ | جهادها على الدعوة |
| ١٥ | جهادها على الصبر على مشاق الدعوة |

المبحث الثاني

في

جهاد الشيطان

| | |
|----|---------------------------------------|
| ١٧ | بيان خطورة هذا العدو |
| ١٩ | مداخل الشيطان |
| ١٩ | مدخل الهوى |
| ٢٢ | مدخل الغرور |
| ٢٣ | طرق جهاد الشيطان |
| ٢٤ | الشعور بخطورته والعزم على مقاومته |
| ٢٤ | الذكر والفكر |
| ٢٦ | جهاد النفس بالعلم والالتزام والدعوة |
| ٢٦ | التوبة الى الله |
| ٢٨ | صور من صنيع الشيطان في أهل هذا الزمان |

الصفحة

| | | |
|----|-----------|---|
| ٢٨ | • • • • • | انكار الخائق مبعثه الهوى |
| ٢٩ | • • • • • | التمرد على حاكمية الله من تزوين شيطان الهوى |
| ٣٠ | • • • • • | بعض النظريات المدعمة للهوى |
| ٣٠ | • • • | جبهات الشهوة التي اتخذها الشيطان في حربه مع الانسان |
| ٣١ | • • • • • | الشهوة الفرجية |
| ٣١ | • • • • • | أساليب الشيطان في العمل على هذه الجبهة |
| ٣١ | • • • • • | دور اصحاب الاموال في هذه الجبهة |
| ٣٢ | • • • • • | استغلال الشيطان للمرأة |
| ٣٣ | • • • • • | دور طلاب الشهوة في هذه الجبهة |
| ٣٣ | • • • • • | دور اصحاب السلطان |
| ٣٤ | • • • • • | التشيط عن الزواج |
| ٣٤ | • • • • • | الشهوة البطنية |
| ٣٥ | • • • • • | كلام للغزالي في خطورة هذه الشهوة |
| ٣٥ | • • • • • | شهوة الجاه والسلطان في أهل هذا الزمان |
| ٣٥ | • • • • • | تمزق الأمة ثمرة مرة من ثمار هذه الشهوة |
| ٣٦ | • • • • • | استعباد الهوى للجوارح |
| ٣٦ | • • • • • | تضخم الغرائز نتيجة التربية الشيطانية |
| ٣٧ | • • • • • | سنة ربانية في معاملة الفطرة الانسانية |
| ٣٨ | • • • • • | صور من مخالفات أهل هذا الزمان لمقتضيات العقول |
| ٣٩ | • • • • • | حصار التربية الشيطانية |
| ٤٠ | • • • • • | القيم المقدسة عند انسان اليوم |
| ٤١ | • • • • • | تطاول حفاة الاخلاق وعراة الفضائل |
| ٤١ | • • • • • | تقديس مؤججي الغرائز |
| ٤١ | • • • • • | وصول المنافقين والمرائين الى شرفات الجاه |
| ٤٢ | • • • • • | مصير الفضائل والفضلاء |
| ٤٣ | • • • • • | استعباد اصحاب السلطان لعقول الناس |
| ٤٣ | • • | تبادل المنافع بين شيطان الجاه والسلطان وشيطان الجنس |
| ٤٤ | • • • • • | معالم في طريق جهاد الشيطان واوليائه |
| ٤٥ | • • • • • | نداء للعقلاء |
| ٤٥ | • • • • • | لا بد من العزيمة القوية على الخلاص |

الصفحة

| | |
|----|---|
| ٤٥ | عمل العقل استنباط الطريق والدلالة على الأصول |
| ٤٦ | القلب التنظيف من أدران الهوى هو القادر على ادراك الوضع السليم |
| ٤٨ | العقل يأمر بتحويل الوجهة الى الله |
| ٤٩ | نداء آخر للعقلاء |
| ٥٠ | العقل يأمر الانسان بالتفتيش عن منهاج الله |
| ٥١ | العقل يدل على القرآن انه من عند الله |
| ٥١ | نداء ثالث للعقلاء |
| ٥٢ | العقل يدل على الرسول صلى الله عليه وسلم |
| ٥٣ | مكان القوى الانسانية في دوحه الرحمن الرحيم |
| ٥٣ | العقل يجد مكانه المناسب في هذه الدوحة |
| ٥٦ | الغرائز تجد مكانها الملائم في هذه الدوحة |
| ٥٦ | الحواس والجوارح تجد مكانها المناسب في هذه الدوحة |
| ٥٧ | بعض معالم الطريق في العودة الى الله ودينه |

المبحث الثالث

في

جهاد الكفار

| | |
|----|---|
| ٦٠ | موقف الكفار من المؤمنين كما أخبر الله عز وجل |
| ٦٢ | كيف يكون جهاد الكفار |
| ٦٢ | كيفية جهادهم عندما لا يكون للمؤمنين سلطان في الارض |
| ٦٢ | لا بد من طليعة تحمل الدعوة |
| ٦٣ | كيفية جهاد الكفار عندما يكون للمؤمنين سلطان في الارض |
| ٦٤ | دليل ما تقدم |
| ٦٥ | خطة الرسول عليه الصلاة والسلام في جهاد الكفار |
| ٦٥ | مرحلة التربية والاعداد العقائدي والفكري والاخلاقي |
| ٦٦ | عدم اللجوء الى القتال في هذه المرحلة |
| ٦٧ | تميز المؤمنين في هذه المرحلة عن الكفار في العقائد والاخلاق والافكار |
| ٦٧ | مرحلة التمييز المادي (الهجرة الى المدينة) |
| ٧٠ | مرحلة الدفاع المباح بالقوة المادية |

الصفحة

| | |
|-----|---|
| ٧١ | • • • • • متى شرع القتال |
| ٧٣ | • • • • رأي الامام الشافعي في ترتيب تشريع الهجرة والقتال |
| ٧٤ | • • • • • مرحلة الدفاع الواجب بالقوة المادية |
| ٧٦ | • • • • • المرحلة النهائية |
| ٧٧ | • • • • • تلخيص ابن القيم لمراحل الجهاد التي مرت بها الدعوة الاسلامية |
| ٧٩ | • • • • • تعقيب |
| ٨٠ | • • • • • رجوع الناس الى الجاهلية |
| ٨١ | • • • • • ضرورة الدعوة الى الله وايجاد القاعدة الصلبة المؤمنة |
| ٨٢ | • • • • • الجهاد بالدعوة الى الله عز وجل وظيفه كل مؤمن |
| ٨٣ | • • • • • مواقع الدعوة من الايمان |
| ٨٣ | • • • • • الجهاد بالدعوة مقتضى من مقتضيات الايمان |
| ٩٠ | • • • • • الجهاد بالدعوة الى الله علامة الايمان |
| ٩٢ | • • • • • الجهاد بالدعوة الى الله شرط الايمان |
| ٩٣ | • • • • • الجهاد بالدعوة الى الله وقاية للايمان |
| ٩٤ | • • • • • الجهاد بالدعوة الى الله غذاء الايمان |
| ٩٥ | • • • • • اسلحة الداعية |
| ٩٦ | • • • • • الثقة |
| ١٠٠ | • • • • • الصدق والاخلاص |
| ١٠٣ | • • • • • الالتزام |
| ١٠٥ | • • • • • التميز |
| ١٠٨ | • • • • • الاخوة |
| ١٠٩ | • • • • • حقوق الاخوة |

المبحث الرابع

في

جهاد المنافقين

| | |
|-----|---|
| ١١٣ | • • • • • خطورة هذا النوع من الأعداء |
| ١١٤ | • • • • • صفات المنافقين وأساليبهم |
| ١١٦ | • • • • • إبطان الكفر والتظاهر بالايمان |

الصفحة

| | | |
|-----|-----------|--|
| ١١٦ | • • • • • | صفة المخادعة |
| ١١٧ | • • • • • | العزوف عن التحاكم الى الله ورسوله |
| ١١٩ | • • • • • | موالة الكفار |
| ١٢٠ | • • • • • | بعض مواقف المنافقين في موالة الكفار |
| ١٢٤ | • • • • • | الدس والوقية بين المسلمين |
| ١٢٥ | • • • • • | أمثلة من مواقف المنافقين في التفريق بين المسلمين |
| ١٢٧ | • • • • • | الجبين الشديد والتخلف عن الجهاد |
| ١٢٨ | • • • • • | آيات تبين هذه الصفة في المنافقين |
| ١٢٩ | • • • • • | أمثلة من مواقف المنافقين في التخلف عن الجهاد |
| ١٣٤ | • • • • • | التخذيل والتثبيط والارجاف |
| ١٣٥ | • • • • • | مواقف تخذيلية وقفها المنافقون |
| ١٤٠ | • • • • • | الصد عن سبيل الله والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف |
| ١٤٠ | • • • • • | المنافقون يحبون ان تشيع الفاحشة في المؤمنين |
| ١٤١ | • • • • • | انتقاد المؤمنين ، والتهوين من شأنهم |
| ١٤٢ | • • • • • | الكذب وخيانة العهد والأمانة |
| ١٤٣ | • • • • • | الكسل في عبادة الله عز وجل |
| ١٤٣ | • • • • • | الذبذبة وعدم الاستقرار في أحد الصفتين |
| ١٤٤ | • • • • • | الفرح بما يصيب المسلمين من الضراء |
| ١٤٤ | • • • • • | العناد والاستكبار وعدم الاقتناع |
| ١٤٤ | • • • • • | شراستهم على المسلمين في الأزمات |
| ١٤٥ | • • • • • | أساليب جهاد المنافقين |
| ١٤٧ | • • • • • | الأساليب الوقائية |
| ١٤٧ | • • • • • | معرفتهم ودراسة صفاتهم |
| ١٤٨ | • • • • • | ترك موالاتهم |
| ١٤٩ | • • • • • | مقاطعتهم |
| ١٥٠ | • • • • • | عدم الثقة بهم |
| ١٥١ | • • • • • | الحيلولة بينهم وبين المراكز الخطرة |
| ١٥٢ | • • • • • | صيانة الصف المسلم من التنازع |
| ١٥٣ | • • • • • | الحرص على رباط الأخوة الايمانية |
| ١٥٤ | • • • • • | حسن الظن بالمؤمنين |

الصفحة

| | | |
|-----|-----------|-------------------|
| ١٥٤ | • • • • • | الاحتياط والحذر |
| ١٥٥ | • • • • • | الاساليب العلاجية |
| ١٥٥ | • • • • • | تذكيرهم |
| ١٥٧ | • • • • • | الغلظة عليهم |
| ١٥٨ | • • • • • | حرمانهم من الفرص |
| ١٥٩ | • • • • • | عدم الاستغفار لهم |

المبحث الخامس

في

جهاد الظالمين والفاسقين

(الامر بالمعروف والنهي عن المنكر)

| | | |
|-----|-----------|---|
| ١٦٢ | • • • • • | المعروف والمنكر |
| ١٦٤ | • • • • • | ضرورة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر |
| ١٧٠ | • • • • • | أدلة مشروعيته وتأكيده الشارع عليه |
| ١٧٧ | • • • • • | حكمه |
| ١٧٩ | • • • • • | ترجيح القول بالوجوب العيني |
| ١٨٠ | • • • • • | قواعد وآداب في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر |
| ١٨١ | • • • • • | البدء بالقضايا الأكثر أهمية |
| ١٨٢ | • • • • • | الامر بالمعروف الأكبر والنهي عن المنكر الأكبر |
| ١٨٤ | • • • • • | الاخلاص في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر |
| ١٨٥ | • • • • • | العلم والفقه فيما يأمر به وينهى عنه |
| ١٨٥ | • • • • • | الرفق في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر |
| ١٨٦ | • • • • • | الحلم والصبر خلقتان لا بد منهما لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر |
| ١٨٧ | • • • • • | العلم بأحوال الناس لمن يأمر وينهى |
| ١٨٨ | • • • • • | رجحان المصلحة على المفسدة عند القيام بهذا الجهاد |
| ١٨٨ | • • • • • | الالتزام بما يأمر به |
| ١٨٩ | • • • • • | الواجب هو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وليس هداية الناس |
| ١٩٠ | • • • • • | خوف الناس ليس مبررا لترك هذه الفريضة |

الصفحة

| | | |
|-----|-----------|---|
| ١٩١ | • • • | عدم حمل الناس على اتباع رأي معين في الامور الاجتهادية |
| ١٩٢ | • • • • • | عدم جواز التجسس على الناس |
| ١٩٣ | • • • • • | القيام بهذه الفريضة يكون بقدر الاستطاعة |
| ١٩٣ | • • | درجات الامر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الامام الغزالي |
| ١٩٦ | • • • | ضرورة الانكار بالقلب عند العجز عن الدرجات الاخرى |
| ١٩٦ | • • • | لا يشترط اذن الامام في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر |
| ١٩٧ | • • | العلماء والأمراء أكثر الناس مسؤولية عن القيام بهذا الواجب |
| ١٩٧ | • • • • • | الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حق لكل مسلم |
| ١٩٨ | • • • • • | أشرف أنواع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر |
| ١٩٨ | • • • • • | كيفية جهاد الظلمة والعصاة من حكام المسلمين |
| ١٩٩ | • • • | اتفاق العلماء على وجوب خلع الحاكم الكافر او المرتد |
| ٢٠٠ | • • • • • | رأيان في جواز الخروج على الحاكم الفاسق |
| ٢٠١ | • • • • • | أدلة الفريق الاول |
| ٢٠٢ | • • • • • | أدلة الفريق الثاني |
| ٢٠٣ | • • • • • | الرأي الراجح |
| ٢٠٨ | • • • • • | مواقف للعلماء مع الحكام |
| ٢٠٩ | • • • • • | مواقف للصحاباء رضوان الله عليهم |
| ٢١١ | • • • • • | موقف ابي مسلم الخولاني من معاوية |
| ٢١٢ | • • • • • | نصيحة الحسن البصري لعمر بن هبيرة |
| ٢١٢ | • • • • • | نصيحة ابي حازم لسليمان بن عبد الملك |
| ٢١٤ | • • • • • | موقف الاوزاعي مع عبد الله بن علي العباسي |
| ٢١٥ | • • • • • | موقف حطيظ الزيات من الحجاج |
| ٢١٦ | • • • • • | موقف ابن طاووس من ابي جعفر المنصور |
| ٢١٧ | • • • • • | نصيحة رجل لابني جعفر المنصور |
| ٢١٩ | • • • • • | موقف عمرو بن عبيد من المنصور |
| ٢١٩ | • • • • • | نصيحة الاوزاعي للمنصور |
| ٢٢١ | • • • • • | رسالة هرون الرشيد الى سفيان الثوري |
| ٢٢٣ | • • | جواب سفيان على رسالة هرون وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر |
| ٢٢٦ | • • • • • | موقف النووي من الظاهر بيبرس |
| ٢٢٧ | • • • • • | موقف العز بن عبد السلام مع الملك اسماعيل |

الصفحة

| | |
|-----|--|
| ٢٢٧ | • • • • • موقف ابن تيمية من غازان التتري |
| ٢٢٩ | • • • موقف الغزالي من السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقي |
| ٢٣٠ | • موقف الاستاذ حسن الهضيبي من جمال عبد الناصر ورسائله اليه |
| ٢٣١ | • • • • • تعقيب |
| ٢٣٣ | • • • • • اختلاف حكام الامس عن حكام اليوم |
| ٢٣٤ | • • • • • ضرورة اختلاف الاساليب تبعا لذلك |

خاتمة

في

ضرورة الجهاد بجميع انواعه

| | |
|-----|--|
| ٢٣٩ | • • • • • الجهاد مادة الابتلاء لمعرفة الصادقين |
| ٢٤٠ | • • • • • الابتلاء سنة الله في عباده |
| ٢٤٤ | • • • • • مراتب الناس حسب جهادهم |
| ٢٤٦ | • • • • • فهرس المراجع |
| ٢٥٢ | • • • • • فهرس الموضوعات |

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

